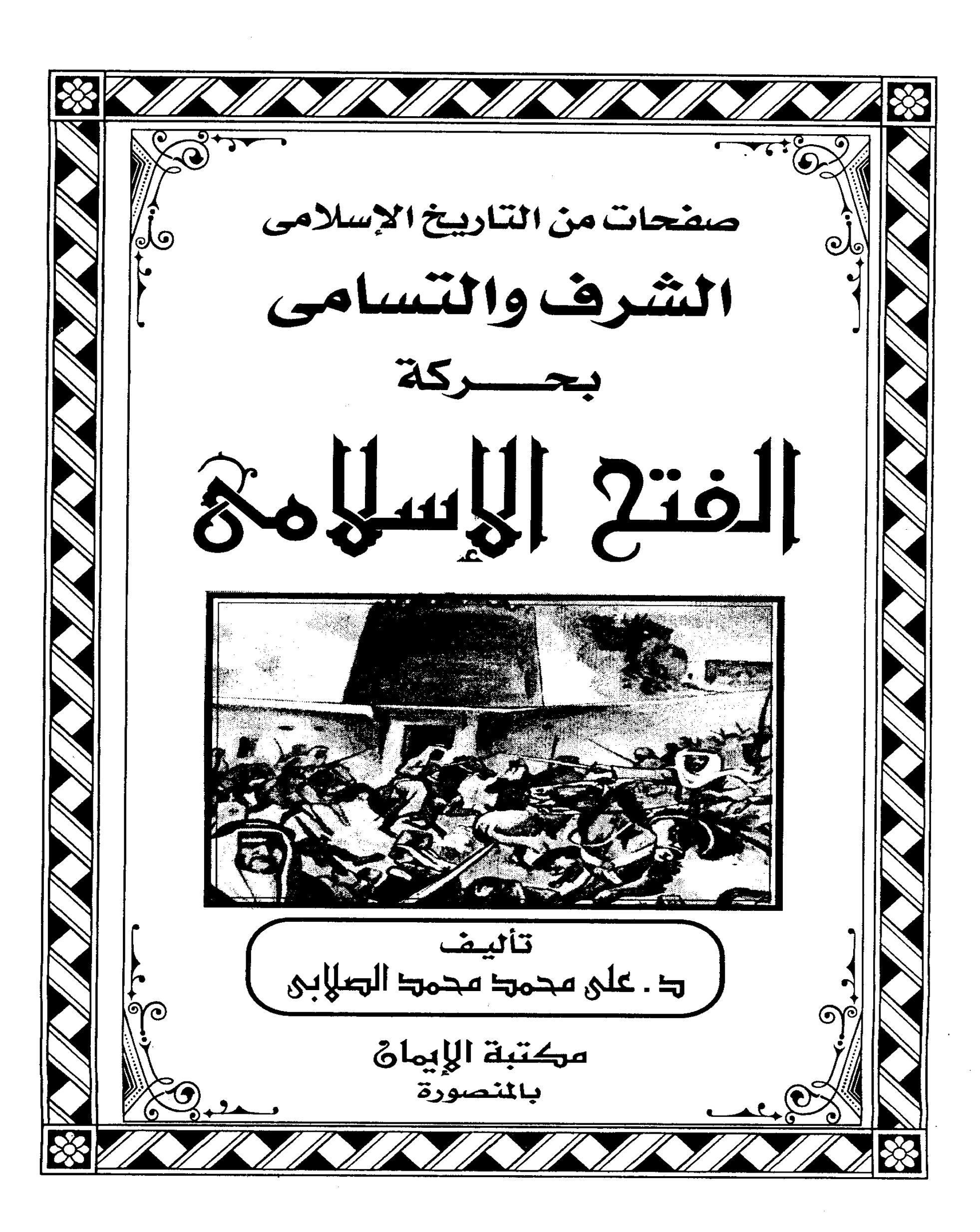


تأليف
د. على محمد محمد الصلابى

مكتبة الإيمان
بالمنصورة

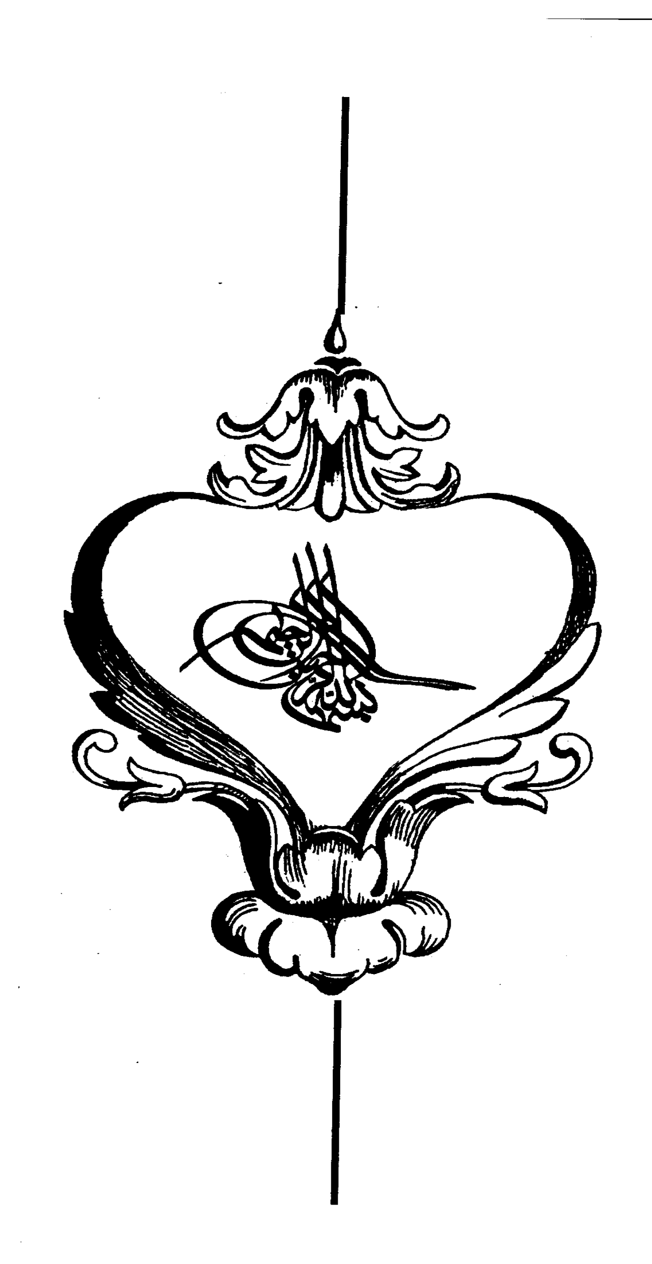


الطبعة الأولى

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢١٢٢٧



إخراج فنى وكمبيوتر
بانوراما قنديل للفنون ☎ ٠٤٠/٢٢٤١٣٢٩



الإهــــداء

إلى الصحابة الكرام الطيبين الأطهار، السابقين الأبرار ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين والمجاهدين الصادقين والفقهاء العاملين والقادة الربانيين، والجنود المخلصين الذين قدموا أنفسهم وأموالهم وما يملكون من أجل دعوة الله الخالدة فطافوا مشارق الأرض ومغاربها مبشرين ومنذرين أهدى هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[الكهف : ١١١].

المؤلف

على محمد محمد الصلابى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢).

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٧٠ ، ٧١).

أما بعد : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

من هنا كانت البداية : فقد بدأت فكرة تأصيل تاريخ ليبيا الإسلامية تنمو وتزداد يوماً بعد يوم فى ذهنى حتى سيطرت على مشاعرى ووجدانى، وكان ذلك خلف أسوار (الحصان الأسود) المعتقل السياسى الرهيب ، وزادت الفكرة نضوجاً فى (أبو سليم) المعتقل العسكرى ، حيث قدر الله لى أن ألتقى فى مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء البلاد فى فترة الستينات من ذوى المستويات المتنوعة ، والخبرات المتعددة، والثقافات

المختلفة، الذين حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم وتاريخهم وتاريخ حركاتهم للأجيال القادمة.

ثم بعد ذلك قدر الله لى - داخل المعتقل - أن أتحصل على نسخة من كتاب عن تاريخ الحركة الإسلامية فى الجزائر بقيادة العملاق عبد الحميد بن باديس البربرى - رحمه الله - الذى قد أثرّ فىّ حقيقة جهده الجبار فى صيانة الهوية الإسلامية فى المنطقة، ثم قدر الله لى العيش مع أقطاب المدرسة السلفية آنذاك المتمثلة فى تلاميذ الأستاذ الشيخ محمد البشيتى - رحمه الله- عن كثب، ثم قدر الله لى اللقاء ببعض أبناء الحركة السنوسية، وقد تأثرت بسردهم لتاريخ الحركة السنوسية وما قام به الصالحون منهم والمجاهدون فى إعزاز الدين ونصرة أهله والدعوة إليه فى مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد هذه الحصيلة العلمية التاريخية تبلورت لدىَّ فكرتان: الأولى كتابة تاريخ السجناء السياسين وقد تم هذا بحمد الله وفضله. والثانية: كتابة تاريخ الحركة السنوسية ودراستها دراسة تحليلة وافية، ولذلك كنت شديد الفرح بكل معلومة أتحصل عليها من أفواه رجال الحركة السنوسية فأكتبها على أوراق الصابون والبسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، وإذا انعدمت بواسطة الجرافيت التى بداخل بطّاريات الشحن الصغيرة؛لأن السلطات تمنع دخول الكتب والأوراق والأقلام فى المعتقل السياسى.

وممن استفدت منهم فى تلك المرحلة الشيخ الفاضل - رحمه الله - محمد القاضى عبد الكبير الفزانى وغيره من وجهاء ناحية الجنوب، والأستاذ راشد السنوسى، والشيخ أحمد الطاهر العرفى، والأستاذ عبد الله الشاعرى، وغيرهم من الإسلاميين والوطنيين الذين شجعونى على تلك الفكرة الوليدة التى ما كانت لتنبت فى ذهنى، لولا أن الله ساق لى أسبابها بدخول السجن والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقضيت فى السجن بضع

سنين خرجت بخبرات كثيرة منها هذه الفكرة التى بدأت ثمارها بتوفيق الله عز وجل هناك.

وبعد خروجى من السجن فى ٣ / ٣ / ١٩٨٨م فى أحداث خروج السجناء كانت فرحة عظيمة غمرتنى بظهور التيار الإسلامى الجارف فى أوساط الشباب وامتلاء المساجد، وانتشار الحجاب، وظهور التدين فى المناسبات الاجتماعية، إلا أنَّه بعد احتكاكى ببعض شباب الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعى من الكتاب والسنة، وهذا شيء طبيعى فى بلاد مثل بلادنا، كما وأننى لا حظت انقطاعاً غريباً عند الأجيال الصاعدة عن تاريخ أجدادهم القريب المتمثل فى جهادهم ضد إيطاليا عن أسس شرعية دينية عقدية، وكأن الإسلام شيء جديد فى بلادى ولم يكن يوماً ما ضارباً بأطنابه فى أعماق تاريخها، بل وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبيا والشمال الإفريقى شيئاً على العموم إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغنى من جوع !!

لذلك ازدَدْتُ قناعة بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط بل ليمتد من الفتح الإسلامى إلى العصر الحديث، وازدادت الفكرة نضوجاً بعد خروجى من المعتقل الكبير(ليبيا الحبيبة) وتوجهت نحو بيت الله الحرام للتقديم فى جامعة المدينة، ثم يسَّرَ الله لى القبول فى تلك الجامعة وقدر الله لى أن أكتب كتاباً بشأن المعتقلين السياسيين داخل سجون ليبيا منذ عام ١٩٦٩ إلى عام ١٩٨٨م، وقد تناولت فى هذا الكتاب ما مررنا به من محن ومنح ورحمة وتوفيق ورعاية من المولى عز وجل، وبكتابة ذلك الكتاب تشجعت لمواصلة العمل الجاد والمثمر الذى يفيد الأجيال التى ستحمل هذا الذين دعوة ودولة، فدعوت الله ولا زلت أدعو أن يكون جهداً موفقاً خالصاً لوجهه الكريم.

وطرحت هذه الفكرة بين إخوانى، فاستغرب بعض زملائى هذه الفكرة

فى المدينة النبوية ، فأما بعضهم فقال لى : آمال كبيرة لا يوجد من الليبيين من يقوم بها ، وأما بعضهم الآخر فقال لى : يبدو أنك تحلم ، وبعضهم قال : إن الساحة غير محتاجة لهذا ، وبعضهم قال لى : إن التاريخ مكتوب ولا داعى من ضياع الوقت ، وبعضهم شجعنى وأعاننى بكل ما يجده لخدمة هذه الفكرة وشرعت فى تحقيقها بانقطاعى فى الأجازات الصيفية بين مكتبة الحرم المكى والحرم المدنى.

وبدأت الكتابة الفعلية فى صيف ١٩٩١م فى مكة وكنت أبدأ من الصبح فى مكتبة الحرم فى ذلك الهدوء الجميل وعندما تغلق أبواب المكتبة أنزل للصلاة فأطوف بالبيت الحرام داعياً المولى عز وجل أن يكون خالصاً لوجهه الكريم ، ويذلل الصعب وييسر السبل . ورجعت للمدينة بحمل بعير من المعلومات الجديدة عن الصحابة والعلماء الذين دخلوا ليبيا وانطلقوا فى الشمال الإفريقى ، ومعلومات عن الدول وكتبتها ولخصتها وأثرتها للنقاش مع إخوانى الطلاب الليبيين وغيرهم ومع الأساتذة فى جامعة المدينة النبوية وتفاعل الأساتذة وأعطيتهم وما كتبته وأخص بالذكر الأستاذ خالد الصاعدى الأستاذ المحاضر فى مادة التاريخ فى الصف الثالث فى الجامعة فى كلية الدعوة وعلق عليها واهتم وشجع وأعان بكتب وإرشادات نافعة ، وبدأت الفكرة تنمو وتنضج وتتضح ، وتفاعل بعض المعتمرين والحجاج من بلادنا الذين غمرتهم الفرحة بهذا العمل الذى رأوا أنه يخصهم وهو منهم ولهم وللأمة ، وحضوا على ذلك وقالوا : بأنه عمل جاد لعلاج الهزيمة النفسية التى يمر بها شعبنا المظلوم ، وذلك بربطه بتاريخه وأمته وحضارته وعقيدته ودينه وإسلامه ، وإذا بالكتب المصورة والوثائق التاريخية تنهال علىّ فى المدينة المنورة من كل حدب وصوب ، ووصلت إلى شىء شعرت بأن الله ذلل أسباب المادة ، ويسر جمعها وأن الأمر بإذن الله سيتم.

وبعد أن انتهيت من الدراسة فى المدينة استخرت واستشرت ، وربطت

الأمتعة وخصوصاً ما يتعلق بالتاريخ وقصدت بلداً عربياً، وفى حى من أحيائه الشعبية فى بيت متواضع مبنى بالطوب الأحمر تم كتابة خمسمائة صفحة عن الحركة السنوسية ، وكتابة الكتاب الأول الذى أقدم له الآن ، ولقد كانت الفكرة فى نفسى عظيمة، سيطرت على أحاسيسى ومشاعرى واعتبرتها تحدياً من تحديات الحركة الإسلامية المعاصرة فى بلادى التى لابد لها من القيام بها عاجلاً أو آجلاً .

ولا شك قد ازددْت قناعة فى هذه الفترة بأهمية التاريخ فى تكوين الأمم، وتربية الشعوب ، وتحقيق الآمال ، وكان مسلكى فى كتابة التاريخ يعتمد على توسيع النقاط البيضاء وتقليل النقاط السوداء ، والرد على المخالفات العقدية ، والانحرافات الشرعية سواء من أفراد أو من دول ملتزماً فى ذلك بعقيدة أهل السنة والجماعة ، وأقصد بعقيدة أهل السنة والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة سليمة، وما انبثق عنها من عبادة سنية ، وأخلاق بهية ، وتصورات ربانية .

من أهداف هذا العمل :

١ ـ تأصيل جذور ليبيا الإسلامية ، وإنها كانت بوابة الخير والإسلام لشمال إفريقيا ، وأن أصول المد الإسلامى المعاصر ليست حديثة بل ضاربة بأطنابها منذ دخول الصحابة والتابعين لليبيا .

٢ ـ تقرير بأن أصولَ هذا المد الإسلامى فى المنطقة أصول سنية لا شيعية ولا خارجية إنما هى ما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه الطيبين الأطهار . (أهل السنة والجماعة) .

٣ ـ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها ، وأسباب سقوطها ، والنظر فى سنن الله فى الآفاق وفى الأنفس والمجتمعات .

وقد انتهجت فى كتابى هذا منهجاً يختلف عن منهج صادق النيهوم فى كتابه (تاريخنا) الذى اعتمد فيه منهج الفلسفة الملحدة ، والعلمانية

المشركة فى تفسير التاريخ .

وكذلك يختلف منهجى عن منهج كاتب كتاب (الحوليات الليبية) الفرنسى (شارل فيروا) النصرانى الحاقد .

وكذلك يختلف منهجى عن منهج كاتب (المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب) لأحمد محمد الأوسى الأنصارى الطرابلسى ، رغم أننى استفدت من كتابه من الناحية التاريخية ، وترتيب الأحداث .

ولا أزعم أنى جئت بجديد فى كتابى هذا ، وإنما وفقنى الله للجمع والترتيب فإن كان خيراً فمن الله وحده ، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لى ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه ، كما وأننى أقر بأننى قد استفدت كثيراً فى كتابى هذا من كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامى) للأستاذ : محمد بن صامل العليانى وكتاب (مدرسة الحديث فى القيروان) للأستاذ : الحسين بن محمد شواط . وكتاب (قادة فتح المغرب العربى) للأستاذ : محمود شيت خطاب وغيرها من الكتب والمذكرات الدراسية ، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه فى هامش الكتاب للأمانة العلمية .

خطة هذا الكتاب :

حاولت فى هذا الكتاب إعطاء أهمية بالغة بتعريف رجالات الفتح الإسلامى من الصحابة والتابعين ، ورجالات الدعوة والعلم والفقه ، كما وأننى عقدت فصولاً للدفاع عن الصحابة – رضوان الله عليهم – وبينت فضلهم ومكانتهم فى الدين، وناقشت بعض الأفكار والمعتقدات التى حادت عن المنهج الصحيح بدون سبٍّ أو شتم أو طعن، ولكن بمنهج أهل السنة والجماعة فى الجرح والتعديل ، وقد قسمت فكرة هذا العمل إلى عدة كتب :

الكتاب الأول : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامى والشمال الإفريقى من قبل الفتح الإسلامى إلى بداية الدولة الأموية .

الكتاب الثانى : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
الكتاب الثالث : الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية.
الكتاب الرابع : فقه التمكين عند دولة المرابطين .
الكتاب الخامس : دولة الموحدين .
الكتاب السادس : الدولة العثمانية.
الكتاب السابع : الحركة السنوسية .

☆ وقد قسمت خطة بحث الكتاب الأول الذى بين أيدينا : إلى مقدمة ، وخمسة أبواب وخاتمة وهى كالآتى :

الباب الأول : قواعد فى دراسة التاريخ :
الفصل الأول : مفهوم التاريخ وثمرة دراسته .
الفصل الثانى : أهمية المنهج فى الدراسات التاريخية .
الفصل الثالث : قواعد فى منهج كتابة التاريخ الإسلامى .
الفصل الرابع : قواعد فى المصادر .
الفصل الخامس : نبذة عن بعض مشاهير مؤرخى المسلمين .

الباب الثانى : الشمال الإفريقى قبل الفتح الإسلامى :
الفصل الأول : سكانه .
الفصل الثانى : ديانته.

الباب الثالث : ليبيا قبل الفتح الإسلامى :
الفصل الأول : معالم ليبيا .
الفصل الثانى : سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامى .

الباب الرابع : الفتح الإسلامى لشمال إفريقية :
الفصل الأول : دواعى الفتح الإسلامى .
الفصل الثانى : بدايات الفتح المبارك .
الفصل الثالث : تثبيت دعائم الإسلام فى المنطقة .

الخاتمة :

وأخيراً أرجو من الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبنى على كل حرف كتبته ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين أعانونى بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب ، وأخص بالذكر الأخ الفاضل / عبد الحكيم الصادق الفيتورى الذى أشرف على تهذيب ، ومراجعة ، وطباعة الكتاب الأول .

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد الصلابي



الباب الأول

قواعد فى دراسة التاريخ

الفصل الأول

مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

بادى ذى بدء لابد من الوقوف والإلمام بمعنى كلمة التاريخ لغة ، ودلالتها الاصطلاحية إذا ما أطلقت عند المؤرخين من السلف والخلف ، لأن معرفة معانى هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً يدخل دخولاً أوَّليًا فى فهم هذا العلم الجم، علم التاريخ الذى يعتنى بأحوال الأمم ودولهم ، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم ، وضبط تواريخ ولادتهم ووفاياتهم .

مصطلح التاريخ ودلالته (١) :

التاريخ لغة : هو الإعلام بالوقت والتاريخ ، وهذا ما قوله الجوهرى : (التاريخ تعريف الوقت والتَّوْريخ مثله يقال: أرخت وورخت) (٢) .

وقد فرق الأصمعى بين اللغتين **فقال :** (بنو تميم يقولون : ورخت الكتاب توريخا. وقيس تقول : أرخته تأريخا) (٣) .

وهذا القول من الأصمعى يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصلية وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم (٤) وقيل إن أصل كلمة تاريخ: سريانى (٥) ومعناه الشهر .

وأما تعريف التاريخ فى الاصطلاح : فقد اختلفت عبارات علماء المسلمين فى تحديد تعريف له ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التى تدخل فى مفهوم التاريخ ، ومن الملاحظ أن المؤرخين فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم

---

(١) اعلم أيها القارئ أن جل هذا الباب مختصر من كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامى للأستاذ / العليانى .
(٢) الجوهرى ، الصحاح مادة : أرخ : (١/٤١٨).
(٣) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوى (٦).
(٤) المرجع السابق : (٦).
(٥) علم التاريخ عند العرب ، لعبد الحميد العبادى (٣٤).

يدونوا تعريفاً كاملاً محدداً لعلم التاريخ وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه، ومن المعلوم أن العلم قد يعرف ببعض أنواعه أو أمثلته أو بذكر غايته ، وهذا ما نص عليه الأستاذ خليفة بن خياط بقوله : (هذا كتاب التاريخ ، وبالتاريخ عرفَ الناسُ أمرَ حجهم وصومهم وانقضاء عدَد نسائهم ومحل ديونهم) [١].

وقال قريباً من ذلك الإمام الطبرى فى مقدمة تاريخه [٢].

وكذلك حاول العلامة ابن خلدون ، المتوفى سنة ٨٠٨هـ ، أن يصيغ تعريفًا محدداً لعلم التاريخ فى مقدمته فقال : (إن التاريخ فى ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدى لنا شأن الخلافة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحان منهم الزوال ، وفى باطنه نظر وتحقق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل فى الحكمة وعريق ، وجدير بأن يعد فى علومها وخليق) [٣].

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التى تنتظمها ، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها .

أما المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، فقد عرف التاريخ ببيان موضوعه بقوله : (الإخبار عما حدث فى العالم فى الزمان الماضى) [٤].

كما عرَّفه محمد بن سليمان الكافيجى [٥] المتوفى سنة ٨٧٩ هـ بقوله :

(هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته) [٦].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، ص (٤٩) . (٢) تاريخ الطبرى (١ / ٤ ، ٥).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٣ ، ٤) .

(٤) انظر : علم التاريخ عند المسلمين ، لفرانز روزنثال ، (٢٦).

(٥) انظر : الأعلام للزركلى (٦ / ١٥٠).

(٦) المختصر فى علم التاريخ ، للكتانى محمد جعفر (٣٢٧).

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوى التاريخ بقوله :

(هو التعرف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة، ووفاة ، وصحة وعقل ، وبدن ، ورحلة ، وحج ، وحفظ ، وضبط ، وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة ، وتجديد فرض وخليفة ، ووزير وغزوة وملحمة ، وحرب وفتح بلد ، وبما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء ، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها) (١) إلى أن قال : (والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان فى العلم) (٢) . وقال فى موضع آخر : (أما موضوعه : فالإنسان والزمان) (٣).

فلا يخفى أن تعريف السخاوى لا يبعد كثيراً عن تعريف الكافيجى ، إلا أن السخاوى ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث خاصة فقال : (علم أحوال الرجال وضبط تواريخ ولادتهم ، ووفياتهم).

فهذا الذى سبق – كما مر معنا – هو خلاصة التعريفات بعلم التاريخ عن السلف والتى فحواها الاعتناء بأحوال الأمم ودولهم، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم ، أما فى العصر الحديث فقد أضاف علماء التاريخ المعاصرون ومن لهم ارتباط وثيق بعلم التاريخ واختصاصه .

فقد عرف الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – التاريخ وغايته بقوله : (التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث ، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التى تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحى فى الزمن والمكان) (٤).

ويظهر أن الأستاذ سيداً – رحمه الله – قد ركز على اللب والغاية من دراسة التاريخ ، وتدوين أخباره ، وإلا فالحوداث والأخبار مهمة ولا شك فى ذلك ، بل

---

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، للسخاوى (٧).

(٢ ، ٣) المرجع السابق (٧) .   (٤) فى التاريخ فكرة ومنهاج ، لسيد قطب ، (٣٧).

هى لبنات البناء التى لا يقوم هذا العلم بدونها ، وتعريف الأستاذ سيد قريب جداً من تعريف العلامة ابن خلدون ، لكن يبدو أن تعريف العلامة ابن خلدون أشمل حيث نص على الاعتناء بالأخبار وتحقيقها ، كما أكد على النظر فى العلل والأسباب ، إلا أنه نحى فى تعريفه منحى فلسفيًّا بعيداً عن روح النصوص والآثار فى حين أن الأستاذ سيد قطب كان واضحاً فى إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامى .

فالحاصل بما تقدم من تعريفات : أن التاريخ علم نظرى إنسانى يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل .

أهداف دراسة التاريخ وثمراته :

بادى ذى بدء يجب أن نعلم أن التاريخ فرع من فروع العلم ، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التى تخدم الشريعة الإسلامية سواءً أكان من الناحية التفسيرية للنصوص ، أو معرفة أحوال الرواة ، أو توثيق سيرة النبى ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ، وأئمة الدين بعدهم من تابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين (١) .

ويقرر هذه الحقيقة وينص عليها الإمام المحدث ابن عبد البر النمرى (٢) - رحمه الله - بقوله : (ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤيدين للدين عن نبيهم ﷺ ويعنى بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول) (٣) .

كما لا يخفى أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشريعة وعلى أيدى رجال

---

(١) انظر : الخوارزمى فى كتابه مفاتيح العلوم (٤ ، ٥) ، حيث جعل علم الأخبار من العلوم الملحقة بعلوم الشريعة .

(٢) هو الإمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى القرطبى أبو عمر ، ولد سنة ٣٦٨ هـ ، وساد أهل زمانه فى الحفظ والإتقان ، له كتب كثيرة ، منها : التمهيد ، والاستيعاب فى معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله ، وغيرها . كانت وفاته بمدينة شاطبة بالأندلس ، سنة (٤٦٣هـ). انظر : « تذكرة الحفاظ ٣/١١٢٨ » .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٤٦٦) .

الحديث وصلته بالشريعة وخدمته لها كانت واضحة جلية سواء فى ميدان التربية والسلوك ، أو فى ميدان علم الرجال والجرح والتعديل [١] ؛ ولهذا استعمل السلف الصالح فى دحض حجج الكذابين الوضاعين للأحاديث علم التاريخ .

فقد جاء عنهم : (لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ) [٢] ونص على ذلك الإمام سفيان الثورى - رحمه الله - فقال : (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ) [٣].

ولذلك اعتنى كبار المحدثين أمثال الإمام البخارى ، ومسلم ، وأحمد بن حنبل ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، والترمذى ، بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً كثيرة فى ذلك ، معروفة عند طلبة العلم الشرعى ، فإذا كان علم التاريخ بهذه المنزلة المرموقة ، ويحتل الحيز الكبير من عناية علماء الحديث والأثر ، فينبغى إذاً على دارس التاريخ أن يتحرى الإفادة منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وفق المنهج السليم لدراسة التاريخ الإسلامى المقرر عن أهل العلم .

---

(١) أثر الحديث فى نشأة التاريخ عند المسلمين ، للدكتور / بشار عواد .

(٢ ، ٣) الإعلان بالتوبيخ (٩).

المبحث الأول : فوائد دراسة التاريخ

لا ريب أن علم التاريخ يشغل حيزاً لا بأس به فى نفوس أهل العلم والمكتبة الإسلامية – كما مر معنا – فطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة والمكانة فإنه لا يخفى على دارسه بأن له فوائد جمة ، وثمار حسان ، كما قال الإمام ابن الأثير –رحمه الله – فى تاريخه : (ومن رزقه الله طبعًا سليمًا ، وهداه صراطًا مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة) (١) .

ولقد ازدادت أهمية الاعتناء بعلم التاريخ فى الحقبة الأخيرة من عصرنا الحاضر حتى وصلت أهمية هذا العلم عند أهل زماننا أن استخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة ، بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة فى فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأوروبيين فى مكانة سامية لا يعلوها علم آخر ، لذلك أصبحت نظرتهم للتاريخ نظرة تقديس وإجلال ؛ لأنه يفسر لهم الوجود وتعليل النشأة الإنسانية والطبيعية !!

فإذا كان ذلك كذلك عند الغربيين ، ففى حق المسلم الذى يطلب العلم لخدمة دينه وعقيدته شريعته أوجب وأحق ؛ لذلك فعلى المسلم الصادق مع ربه، المخلص لدينه ودعوته ، المتبع لنبيه ﷺ أن يعتنى بدراسة التاريخ دراسة تخدم دينه ، وتنشر دعوته ، وتربط أمته الحاضرة بسلفها الصالح ، لا أن يأخذه مجرد معلومات ، وحكايات ، وأخبار لا تسمن ولا تغنى من جوع ، مجرد إشباع لرغباته وغريزته النفسية كلا! إن دراسة التاريخ بوجه عام ، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغى أن يكتفى فى دراسته بتحقيق الرغبات والحاجات الدونية ، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية ، ألا وهى إحياء الأمة المسلمة بكتاب الله – عز وجل – وسنة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض

---

(١) الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير ، (١ / ٦) .

والصعود بالأمم ، واجتناب سنن السقوط والهبوط فى الأمم ، ولهذا قال تعالى حاثًا عباده على النظر فى تاريخ الأمم : ﴿ أَفَلَمْ يسيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِى الأَرْضِ ﴾ (غافر: ٨٢) .

فإذا تقرر ذلك صح القول : بأن لدراسة التاريخ ثمرات ، وفوائد جلية ومتعددة ، يجدها دارس التاريخ خلال دراسته للتاريخ ، فمن هذه الثمرات والفوائد التى يجب أن يقف عليها ويتأملها دارس التاريخ ، نذكر منها الآتى :

المطلب الأول : الفوائد التربوية

لقد تقرر فى محكمات الشريعة أن الله – عز وجل – قد خلق الخلق لعبادته وحده سبحانه ، وأناط بالمسلم فى هذه الحياة وظيفة تحقيق حقيقة العبادة له سبحانه بمفهومها الكامل الشامل لكافة جوانب الحياة ، ووجه النشاط البشرى ، بأن يحقق كمال الخضوع والمحبة له – سبحانه وتعالى – وقد شرع له – سبحانه – لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل تربوية ، فمن تلك الوسائل دراسة تاريخ الأمم ، والنظر فى أحوالهم ، واقتباس العبر والعظات من حالهم ومآلهم كما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالاقتداء بركب النبيين الأطهار – عليهم الصلاة والسلام – فقال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ (الأنعام : ٩٠) وكذلك أمر المؤمنين بذلك فقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١) ذلك بأن الاقتداء بالنبيين والصالحين والشهداء والعلماء العاملين والدعاة المخلصين ، فى صبرهم ، وجهادهم ، وتحملهم المشاق فى سبيل نصرة العقيدة الصحيحة ، وإقامة الدين القويم لهو عامل أساسى من عوامل التربية الإسلامية الراشدة ، بل أمرنا – سبحانه – بالنظر والتدبر فى أحوال ومآلات الأمم السالفة الكافرة منها والمؤمنة على حد سواء ، فقال – جل شأنه : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (محمد : ١٠) ولذلك يجب على المسلمين فى هذه العصر الاعتناء

بدراسة التاريخ الإسلامى وبالأخص السيرة النبوية ، وتاريخ الخلفاء الراشدين ، والفتوحات الإسلامية ، وسير العلماء والمجاهدين من سلفنا الصالح ، وعرض هذه الصور على الأمة المعاصرة فى صورة حية متمثلة فى سلوك وأخلاق القادة ، والعلماء ، والمجاهدين من أبناء الحركات الإسلامية المعاصرة ؛ لأن ذلك يبعث فى الأمة روح التدين والالتزام والزهد فى الدنيا الفانية ، والرغبة فى الحياة الباقية ، وحب التضحية والجهاد فى سبيل الدين العظيم ابتغاء مرضاة رب العالمين.

فإذا ما أحسن عرض التاريخ الإسلامى فى أحسن صورة ، فإنه يكون من أنفع الوسائل التربوية فى مجال إحياء الأمم وتربيتها بالأحداث والسلوك ، لأن التربية بالأحداث والسلوك من أهم وسائل التربية القرآنية ، لذلك نجد أن القرآن الكريم عنى بهذا النمط من التربية فى مواضع كثيرة جداً ، كما جاء فى عقب غزوة أحد فى آخر سورة آل عمران من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠)، وكذلك ورد فى السنة المطهرة والسيرة النبوية تقرير لمبدأ التربية بالأحداث والسلوك ، ولذلك شواهد كثيرة جداً .

يقول الدكتور محمد أمين المصرى – رحمه الله – بهذا الصدد : (لدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها فى عقل الدارس وإكسابه عادات خاصة فى التفكير فتنشأ لديه العادة التاريخية فى تناول الحقائق ، والأسلوب التاريخى فى التفكير فيها ؛ لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة والتحقق ووزن قيم الأدلة وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها)[١] .

---

(١) لمحات فى التربية ، للدكتور محمد أمين المصرى (٢٢٨) .

المطلب الثانى : إدراك السنن الربانية

لقد تقرر فيما سبق أن للتاريخ فوائد تربوية جمة ذكرنا منها التربية بالأحداث والسلوك ، والاقتداء ، والآن نتأمل فى فوائد دراسة التاريخ التى منها : التعرف على السنن الربانية وإدراكها فى هذا الكون ، الكتاب المنظور والمقروء ، فمطالعة التاريخ بتدبر تساعد على اكتشاف هذه السنن الربانية ، ومعرفتها وكيفية استمطارها وجلبها ، أو صرفها ، وبهذه الروح وهذه النفسية فى قراءة التاريخ نستطيع أن نحقق الغرض المطلوب منا شرعاً فى امتثال أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى قد أرشدنا إلى التدبر والتفكير والتأمل فى سننه الكونية والبشرية، الخارقة والجارية منها ، وكيفية التعامل معها فى كل الحالات ، فقد جاء فى محكم التنزيل قوله تعالى آمراً عباده بالنظر فى سنن من قبلهم فقال : ﴿ **فَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ (غافر : ٨٢) وقال جَلَّ وعلا : ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر : ٤٣) وقال تبارك وتعالى : ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (غافر : ٨٥) .

وبعد ذلك فلا شك أن من قرأ التاريخ بهذه العقلية الواعية ، فإنه يجده قد حوى بين دفتيه من الحوادث ، والأخبار ، والسنن المتشابهات ، والمواقف المتماثلات ، ما يدفعه إلى كشف سنن الله فى خلقه سواء منها الجارية والخارقة ، وبذلك يستطيع أن يسعى للحصول على سنن التمكين ، والابتعاد عن سنن التدمير ، واقتفاء سنن الصالحين والمجاهدين ، واجتناب سنن المجرمين المفسدين ، كما هو مقرر ـ بأن التاريخ يعيد نفسه ، فمن عرف سنن الله فى خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة فى المواقف التى ترضى الرب تبارك وتعالى ، بخلاف من يجهلها ؛ لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ـ عز وجل ـ فإنه يكون فى حيرة وخوف وقلق لا يعلمه إلا الله !!

ولكن لا يغيب عنا ونحن بصدد الحديث عن السنن الربانية ، بأنها تنقسم

إلى نوعين : نوع يسمى بالسنن الخارقة ، والنوع الثانى يسمى بالسنن الجارية ، وسوف نتناول كلاً منهما بشيء من التفصيل .

النوع الأول : السنن الخارقة :

ويقصد بها التى يجريها الله - سبحانه وتعالى - على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً له في دعوته ضد قومه المستنكرين والمستنكفين عن دعوة الحق سبحانه ، أو تكريماً له وتثبيتاً ، كما فعل تبارك وتعالى حين جعل عصا موسى - عليه السلام - حية تسعى ، فقال : ﴿ **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** ﴾ (طه : ١٩ ، ٢٠) .

أو كما أمر موسى بضرب الصخرة فإذا هي عين جارية !! قال تعالى : ﴿ **وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا** ﴾ (البقرة : ٦٠) ، وكذلك ما حدث على يدى نبينا محمد ﷺ - وأنزل القرآن الكريم وبذلك يتقرر بأن السنن الخارقة هى التى تكون غير مألوفة عند الناس ، وتكون خارجة عن مقدور البشر أن يأتوا بمثلها .

النوع الثانى : السنن الجارية :

وهى تنقسم إلى قسمين : قسم متعلق بالأمور الطبيعية الكونية ، وقسم متعلق بالأمور الشرعية ، فالقسم المتعلق بالأمور الكونية الطبيعية يقصد به سنن الله فى تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر في فلك واحد وفق ناموس محدد قدّره الله لها تقديراً ، قال تعالى : ﴿ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (يس : ٤٠) .

أما القسم المتعلق بالأمور الشرعية ،فيقصد به أوامر الله ونواهيه ، ووعده ووعيده ، وهى ثابتة لا تبدل ،ومطردة غير مقيدة ، كسننه فى نصر أوليائه ، وإهانته لأعدائه ، كما لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى إذا حكم فى الأمور المتمثلة بحكم ما فإن ذلك لا ينقض ، ولا يتبدل ولا يتحول ، فهو - سبحانه وتعالى -لا يفرق بين المتماثلين ، ولا يجمع بين المختلفين ، كما قال تعالى : ﴿ **أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ** ﴾ (القلم : ٣٥) .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - بهذا الصدد : « ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله ، وسنته ، لم يصح الاعتبار بها ؛ لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن »(١) .

ولكن هذه السنن الربانية بجميع أقسامها ، إنما تدرك وتعرف من خلال النظر في التاريخ ومتابعة أخبار الأمم ومصائرهم ، وكيفية قيام حضارتهم وسقوطها ؟ والتمعن في أسباب ذلك كله ؛ لذلك على المسلم الواعي أن يكثر من مطالعة كتب التاريخ قراءة واعية لإدراك . تلك السنن واستخلاص العبر والأمثال منها ، وتأطيرها على هيئة كليات تشتمل على عدد من الجزيئات ومن ثمة ربطها بالواقع المعاصر لتكون نبراسا يستضيء به السالكون في مدارج المجاهدين والمربين، وهكذا يجد القارئ المسلم السنن الربانية التي ذكرت في القرآن يجدها سننا كلية تضم في طياتهاعددا كبيرا من الجزئيات تغطي حوادث واقعية غير منصوص عليها، وهذه الكليات حية فاعلة مطردة ثابتة كثبات الجبال الراسيات على الأرض، لا تقبل التغيير ، ولا النسخ ، ولا النقصان ، إنها سنن الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً !!

وفي ذلك يقول الدكتور عماد الدين خليل : (والسنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الواقع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات) (٢).

ويقول أيضاً : (كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك ، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله)(٣) .

كما لا يخفى على دارسة التاريخ أن السنن الربانية قد تستغرق وقتًا طويلاً

---

(١) جامع الرسائل ، لابن تيمية (٥٥) .

(٢) تفسير التاريخ ، للدكتور / عماد الدين خليل ، (١٠٩) . (٣) المرجع السابق (١٠٩) .

يلكي ترى متحققه ، رأى العين ، في حين أن عمر الفرد محدود ، ولذلك لا مكنه، السنن متحققة، بل قد يرى الإنسان جانباً من السنن الربانية ، ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما يحول بينه وبين عدم إدراك السنن أو التكذيب بها ، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنن الربانية لابد أن تقع ولو طال الزمان ، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد ، بل ربما أطول من أعمار أجيال فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ الذى يثبت أن سنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، كما قال تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٧) .

لذلك ومن خلال دراسة التاريخ دراسة واعية يجب أن يعلم القارئ أن حاضره الذى يعيشه إذا كان فيه ما يتصوره أنه مخالف لسنن الله أنه غير مستثنى من السنة الربانية ، بل هو جزء منها ، ولكن للسنة الربانية أجل ووقت ، وكل شيء خلقناه بقدر ، فالله – سبحانه – قد يؤخر السنة ليبتلى المسلم ؛ ليعظم له أجره ، ويمد الكافر فى غيه ليأخذه أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (الأنعام : ٦) .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية الكريمة : (هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكّن الله لهم فى الأرض ، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه ، أيقومون عليه بعهده وشرطه ، من العبودية له وحده ، والتلقى منه وحده؛ أم يجعلون من أنفسهم طواغيت تدعى حقوق الإلهية وخصائصها؟ ، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون على غير سنة الله ، ولا يتبين لهم فى أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويداً وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفى الكتاب أجله ، ويحق وعد الله ، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية !! فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، ومرة بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم كما وقع لكثير من

الأقوام ، ومرة بالسنن ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين ، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض ، فيعذب بعضهم بعضاً ، ويدمر بعضهم بعضاً ، ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أو عصاه – دورة السُّنَّة ، فالسعيد من رعاها والشقى من غفل عنها ، وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى ، أو الملحد الكافر ممكنًا له فى الأرض غير مأخوذ من الله ، ولكن الناس إنما يستعجلون أنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق ، لأن السنة تستغرق وقتًا طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ) (١) .

وهذا الذى استنبطه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – من هذه الآيات الكريمة قد جاء مصرحا به ومنصوصاً عليه فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٤) فقد فتح الله عليهم أبواب كل شىء عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه ، فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة ، فإذا درّ الرزق عليهم كان باب الاستدراج كمل قال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ (الطارق : ١٧) وكما جاء فى حديث أبى موسى الأشعرى – رضي الله عنه – قال ﷺ : « إن الله عزَّ وجلَّ يملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود : ١٠٢) (٢) .

فلا شك أن هذه الأبواب التى تفتح على الكافرين هى من تمام عدل الله الذى يقضى بأن يعطى كل عامل جزاء عمله : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ (الإسراء : ١٨) فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم فتح لهم ونالوا ثمرة جهدهم ذلك فى الحياة الدنيا ، مع أن هذا الفتح وهذا الرخاء لن يكون مثل فتح الله على المؤمنين ورخائه عليهم ، وطمأنينة قلوبهم إليه ، بل هو

---

(١) فى ظلال القرآن (٢ / ١٠٣٨) .

(٢) متفق على ، واللفظ ، انظر : صحيح البخارى (٤٦٨٦) ،ومسلم (٤ /١٩٩٧ رقم ٢٥٨٣) .

رخاء موبوء كله آفات واختلاط فى كل شىء ، فساد اجتماعى ، وانحدار خلقى، ومعيشة ضنك ، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية فى مقابل المادة التى لا تغنى ولا تسمن من جوع !! ولو تأمل المسلم وعاين بنظرة فاحصة فى أحوال مَنْ حوله من المجتمعات الجاهلية فى عالمنا المعاصر ، لرأى رأى العين تلك الحياة التى يعيشها هذا العالم الشارد عن منهج الله السوى ، حياة الضنك ، ومعيشة النكد ، وطبيعة الغاب رغم تقدمهم المادى كما يزعمون !! ولكنها الجاهلية أينما كانت وحيثما كانت ، إنه الشرود عن منهج الله سبحانه !! إنها سنن الله فى الكون التى لا تحابى أحداً من خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً !!

كما لا يخفى أن ثبات السنن الربانية يقابله ثبات فى طبيعة الإنسان وخلقه ، فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ، كما أن دوافع الإنسان الفطرية ـ وهى منطلق نشاطه ـ لم تزل قائمة كما كانت فى الماضى ، وما أصلح البشر فى الماضى هو الذى يصلحهم فى الحاضر ، ونورد فيما يلى بعض السنن الربانية على سبيل المثال لا الحصر :

١ - سنة سوء عاقبة المكذبين :

لقد تقرر فى محكم نصوص القرآن بأن الذين يكذبون بآيات الله ورسوله ويظلمون الناس بغير حق ، ويسعون فى الأرض فساداً ، وعدهم الله بسوء العاقبة قال تعالى : ﴿ **وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ (الفرقان : ٣٧ – ٣٩) . فما جرى من تحقيق هذه السنة فى الماضى فى أولئك المكذبين ، سيجرى مثله فى الحاضر والمستقبل القريب لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه ، ومن فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الناس وعدله فيهم أن يبقى نعمته المادية والمعنوية عليهم كالأمن ، والاستقرار ، والرزق الوفير ، والصحة ، وما إلى ذلك إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفراً وتكذيبًا ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ (إبراهيم : ٧)

وقال جل شأنه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

٢ - سنة إناطة التغيير البشرى :

وتعتبر هذه من سنن الله - سبحانه - الخالدة التى أناط بالبشرية مسؤولية رقيهم وانحطاطهم ، ومسؤولية اتباعهم للخير أو الشر ، حيث إنهم قد منحوا قدراً من الحرية والاختيار ، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى - عز وجل - الرسل التى جاءتهم بالهداية الربانية التى فيها خير الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين ، قال تعالى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (طه : ١٢٣) فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) .

فإن التغيير يبدأ من النفس سواء بالارتقاء إلى أعلى ، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل ، فهى تعتبر النقط الأساسية فى تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس ، والبشر فى كلتا الحالتين هم المسئولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) لذا يجب مراعاة هذه السنة الربانية فى تغيير النفس البشرية ، والمجتمعات الإنسانية ، ومن تأمل فى هذه الآية الكريمة التى قررت هذه السنة الربانية يجدها قد رتبت حدوث التغيير على مراحل ، فقد جعلت حدوث التغيير من الله -سبحانه - مترتبًا على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب ، وهذا الترتيب يضع البشرية أمام مَفْرِق الطريق ، ويربط فى أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير فى النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم ، قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكًا صحيحًا وكليًّا إلا باتباع المنهج الربانى الذى يربط بين السنن والأحداث التاريخية، ويحدد العلاقة السليمة بينهما ، حيث إن اتباع المنهج الربانى يعطى خير السنن ، ويصرف الصوارف قال تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(البقرة: ٣٨) .

٣ - سنة الأيام سجال بين الناس :

فمن رحمة الله - سبحانه - أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس من شدة ورخاء ، وقوة وضعف ، وعز وذل ، وصحة وسقم ، وغنى وفقر ، امتحانًا لهم حتى يعلم منهم - وهو أعلم بما يفعلون - الشاكرين من الجاحدين ، والصابرين من الجازعين ، والمجاهدين من القاعدين والمنفقين من الممسكين قال تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٠) .

٤ - سنة زوال الأمم بالعلو والطغيان :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر : ٦ - ١٤) .

فتأمل فى هذه الآيات التى تقرر سنة من سنن الله الربانية التى لا تحابى أحداً من خلقه ، إنها سنة زوال الأمم بالترف والفساد ، وزوال الأمم بالتجبر والطغيان وزوال الأمم بالبطر والكبرياء !! قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ (الإسراء : ١٦) أى أمرناهم بالأمر الشرعى من فعل الطاعات واجتناب المعاصى ، فعصوا وفسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار ، فحقَّت عليهم سنة الأخذ والزوال ، والتدمير والتنكيل ، جزاء فسقهم وعصيانهم ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ !!

٥ - سنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف :

قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (الأنبياء : ١١) فإذا ما فشى الظلم وعدم إقامة العدل فى أمة من الأمم ، فقد تحققت فيهم أسباب الهلاك ، وحقت عليهم سنة الله بالهلاك ،

ووقعت عليهم القاصمة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه ، وجعله بين العباد محرماً كما فى الحديث القدسى : « **ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا** » (١).

فإذا اختلت الموازين ، وانعدمت القيم ، وتحكّم الأقوياء فى رقاب الضعفاء وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد ،وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليهم سنة الله التى لا تحابى أحداً من خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً !!

جاء فى الحديث الصحيح قوله ﷺ : « **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد !! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » (٢).

٦ - سنة لكل أمة أجل :-

لا يخفى أن لله سنناً ربانية تقرر بأن انهيار الأمم وزوالها لا يكون إلا بأجل مقدر ، وهذه السنة فى نفس المؤمن مقررة لا خفاء فيها ولا شك ، ولكن ضعيف الإيمان الذى يرى موجبات سنة الله فى أمة من الأمم ، ثم رغم ذلك لا يرى زوال تلك الأمة ! ربما شك فى هذه السنة ، لذلك فقد جاء فى الكتاب العزيز الرد على ما يختلج فى النفس الضعيفة من تساؤلات حيال هذه السنة الربانية ، فقال تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (الأعراف : ٣٤) وقال أيضا : ﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ﴾ (الحجر : ٤ ، ٥) وهذا ما قررناه وأوضحناه فى أول البحث ، من أن سنة الله ـ سبحانه ـ لا تتخلف ولكن عمرها أطول من عمر الأفراد ، ولا تقع إلا بأجل محدود لابد من استيفائه كما نص على ذلك القرآن الكريم : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ .

٧ - سنة نصر الله للمؤمنين :

لقد قفت حكمة الله ـ سبحانه ـ وسنته الجارية على استحقاق المؤمنين لنصره

---

(١) صحيح مسلم (٤ / ١٩٩٦) ، حديث رقم (٢٥٧٧) .

(٢) صحيح البخارى (٣٤٧٥) ، ومسلم (٣ / ٣١٥ رقم ١٦٨٨) .

إذا أتوا بشروط هذه السنة ، ومن هذه الشروط :

ا - **الاستقامة على منهج الله** : قال تعالى : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ (الجن : ١٦) .

ب - **عدم الإشراك به** - سبحانه - قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ (النور : ٥٥) .

جـ - **ذكر الله كثيراً قال تعالى** : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الأنفال : ٤٥) .

وبعد فإذا ما حقق المؤمنون شروط هذه السنة ، فإن نصر الله لهم قريب ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ (غافر : ٥١) وقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ (محمد : ٧) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الروم : ٤٧) .

٨ - **سنة ابتلاء المؤمنين** :

لقد جاء في محكم التنزيل نصوص كثيرة تقرر هذه السنة الثابتة ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ** ﴾ (البقرة : ٢١٤) وكذلك جاءت نصوص السنة النبوية الصحيحة تقرر ذلك ، فعندما سئل ﷺ : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « **الأنبياء ؛ ثم الأمثل فالأمثل ؛ ؛ يبتلي الرجل على حسب دينه ؛ فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة** »[١] .

وهكذا جرت سنة الله في تمحيص المؤمنين وصقلهم وإعدادهم لينالوا

---

(١) رواه الترمذي (٤ / ٦٠١) ، وابن ماجه رقم (٤٠٢٣) ، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في الأحاديث الصحيحة رقم (١٤٣) .

بصبرهم وثباتهم المنزلة العالية عند الله _ سبحانه _ وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى وبما يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ (آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١) وفي هذه الآيات وسبب نزولها فوائد جمة ، ومبادئ قيمة ودروس هامة للجماعة المسلمة ، نذكر منها : تربيتهم على الثبات في المحن ، واتخاذ الشهداء منهم ، وتمحيص الأنفس واختيارها ، وتعريفها بسرائرها ، وبواطن أحوالها ؛ لذلك فإن الابتلاء للمؤمن سنة من سنن الأنبياء ، والصالحين ، والصادقين ، والشهداء ، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب ، فمنهم من قتل ، ومنهم من ألقي في النار ، ومنهم من أخرج من أرضه وعشيرته ، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوف عديدة ، فلما نجحوا وتجاوزوا هذا الابتلاء الرباني ، وثبتوا على الحق المبين ؛ حينئذ تنزل عليهم نصر الله _ سبحانه _ وأبدلهم بعد خوفهم أمنا ، ومكن لهم في الأرض وجعلهم الوارثين .

٩ - سنة التدافع بين الحق والباطل :

قال تعالى في محكم التنزيل : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض** ﴾ (البقرة : ٢٥١) ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾ (الحج : ٤٠) ولا يخفى أن سنة التدافع من أعظم سنن الله الجارية في هذا الكون ؛ إذ بدونها تفسد الأرض وتتدهور أحوال الناس ؛ لذلك كانت ضرورة بذل الجهد البشري في دفع الباطل بالحق هي من سنن الحياة السوية التي لا تكون إلا بها ؛ فإذا ما ثبت أصحاب الحق والفضيلة ؛ وصبروا وصابروا تحقق لهم حينئذ وعد الله بالتمكين ؛ وهزيمة الباطل ودحضه ؛ واندحار أهله .

بيد أن هذا الصراع بين الحق والباطل معركة لا تنتهي حتى يرث الله الأرض

ومن عليها ، إنها معركة الحق الواحد مع الباطل المتعدد الأشكال والألوان والأصناف ، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الله خالق هذه السنن قد جعل لكل شيء قدراً ؛ فقد وهب لهذا الإنسان من القدرات والمواهب والإمكانات والقوى، وإرادة الاستمرار ما يستطيع به – بعد توفيق الله له – من السيطرة والانتصار على الباطل وأعوانه من شياطين الجن والإنس !! قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (الإسراء : ٦٥) وقال : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة : ٣٨) ومن رحمته سبحانه وتعالى بعد أن حكى فى كتابه العزيز قصة أول صراع وقع بين الحق والباطل ، حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى الشيطان أن يسجد لآدم عليه السلام فأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ليواصلا معركة الصراع فى ساحة أخرى ، فقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (البقرة : ٣٦) فمنذ ذلك الصراع والهبوط إلى الأرض يحذرهم من عدوهم الأساسى ، وغوايته ، وإصراره على فتنتهم عن صراط ربهم المستقيم ، فقال تعالى فى محكم التنزيل : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ (الأعراف : ٢٧) وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

وقد تمثلت صنوف إغواء الشيطان لبنى آدم فى صور شتى منها :

☆ عبادة الأصنام والأوثان : فحذر الله عباده من ذلك بقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (يس : ٦٠ ، ٦١) .

☆ الحكم بقوانين الشيطان وإقصاء شريعة الرحمن : فحذر الله عباده من ذلك بقوله : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (المائدة : ٤٩) وقال : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ

يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (المائدة : ٥٠) .

ومنها : التمسك بالأعرف والتقاليد التي تخالف شرع الله : فحذر عباده ذلك بقوله : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الزمر : ٥٥) وعاب عليهم قولهم إذ قالوا : ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ (الأعراف : ٧٠) وقولهم : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) وغير ذلك من أوجه غواية الشيطان لابن آدم .

ومن الجدير بالذكر أنه يجب الوقوف على الحكمة التعليمية لهذه السنة التدافعية بين الحق والباطل ، وما هي حقيقة الصراع المحمود الذي تركز عليه الآيات الكريمة ؟ هل هو الصراع الحتمي الذي بنيت عليه النظرية الديالكتيكية الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي حتى يصل إلى مرحلة تجلي المتفرد – كما يزعم من لا خلاق لهم ؟! أو هو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند ماركس القائل : (تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة البوليتاريا) [١] .

كلا ! ليس هذا التدافع ولا ذاك من تكالب الناس على أعراض الدنيا وشهواتها التافهة سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد ، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات ، بل إنه التدافع الذي يكون لخير البشرية في الدنيا والآخرة ، وذلك لا يتحقق إلا بتحقيق العبودية لله وحده ، وإزالة كل طاغوت يعبد من دون الله ، إنه كما قال تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال : ٣٩) فالصراع المحمود هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض ، ويحرر البشرية من عبادة الطاغوت وظلماته إلى عبادة الله وحده – سبحانه – ونوره .

قال تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء : ٧٦) .

---

(١) انظر : تفسير التاريخ الإسلامي ، (٢٤٤) .

فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الحق أهل الباطل ، وقيام المسلمين بهذا الوأجب ينفي عنهم شرور ذلك الصراع ، وتركهم لهذا الصراع يجلب عليهم شرًّا مستطيراً ، ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا ، كما قال ﷺ :

« **إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** » [(١)] ، والواقع المعاش دليل لا يحتاج إلى كثير من التدبر !!

يقول الدكتور عماد الدين خليل :

(إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها الحركية الكبرى في العالم ، ويمنحها فاعلية دائمة إزاء التجارب والمواقف البشرية ، تتجاوز حدود الزمان والمكان ، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس ، ذلك الموقع الوسط المميز المتفرد الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات أمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر ، وقتالاً بالكلمة ، وكفاحاً مسلحاً : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ (البقرة :١٤٣) [(٢)] .

المطلب الثالث : التعرف على معالم تاريخ الإنسانية

بعد أن ذكرنا فائدتين من فوائد ثمرات التاريخ ، نذكر الفائدة الثالثة ألا وهي : التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ، والتي تعتبر من أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها ويتعرف عليها دارس التاريخ ، من ذلك ، متى بدأ تاريخ الإنسانية ؟ وما هي أطواره التي مر بها ؟ وما هي أبرز المعالم التاريخية ؟ .

لا يخفى أن بداية تاريخ الإنسانية وأطوارها كانت منذ آدم ، كما قررها القرآن الكريم في عدة مواضع ، وكذلك ارتبط هذا التاريخ ارتباطاً أساسيًّا بتاريخ الأنبياء عليهم السلام منذ آدم إلى نوح حتى نبينا محمد – عليهم الصلاة وأتم التسليم – لذلك سوف نتناول أهم معالم التاريخ الإنساني التي يجب أن يعتني

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٣ / ٢٧٤ ، ٢٧٥) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رقم (١١) .

(٢) تفسير التاريخ الإسلامي (٢٤٩) .

بها دارس التاريخ .

أ - المعلم الأول : معرفة تاريخ الأنبياء :

لا ريب أن معرفة تاريخ الأنبياء - عليهم السلام - ودعوتهم وجهادهم وصبرهم وتحملهم لأذى أقوامهم، ومواقف أقوامهم منهم ومن دعوتهم ، ومعرفة مصير الذين آمنوا وصدقوا بدعوة الأنبياء ، ومصير الذين كذبوهم ، لهو المعلم الأساسى فى معرفة تاريخ الإنسانية منذ أن خلق الله سبحانه آدم حتى خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ب - المعلم الثانى : معرفة سيرة النبى ﷺ :

إن التعرف على معالم سيرة خاتم الرسل والنبيين ، وصاحب الشريعة الناسخة لكل الشرائع ، والعامة للثقلين الإنس والجن ، لهو المفتاح الأساسى فى كيفية عبادة الله الحقة ، وفهم تطبيق أحكامه على المكلفين المؤمن منهم والكافر ؛ لذلك يجب معرفة أحواله وأقواله ، وصفاته ، وتقريراته ﷺ والاستفادة من تلك السنن التى أخرجت ذلك الجيل القرآنى الفريد الذى خوطب بقوله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران : ١١) .

جـ - المعلم الثالث : التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين :

لأن معرفة أحوالهم وسيرتهم وتاريخهم ، وتاريخ الجيل الأول خاصة ، والذى يليه ثم الذى يليه من التابعين لهم بإحسان الذين عاشوا فى القرون التى تعتبر من القرون الخيرة ، الذين قاموا بتطبيق الأحكام الشرعية على الوجه المطلوب منهم ، وجاهدوا لنشر الإسلام فى ربوع الأرض مشارقها ومغاربها ، ودونوا القرآن والسنة والآثار ، فقد جاء فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « **عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى** » (١) .

د - المعلم الرابع : التعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة :

فينبغى الاعتناء بسير العلماء والمجاهدين والمصلحين وجهادهم فى سبيل الله .

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٢٠١) ، والترمذى (٥ / ٤٤) ، والإمام أحمد فى مسنده (٤ / ١٢٦) .

وإقامة شريعته - سبحانه - بين أقوامهم ، لأن فى ذلك أسوة حسنة ، ومثال يحتذى به بالنسبة للمسلم المعاصر .

هـ - المعلم الخامس : معرفة أثر الإسلام فى حياة البشرية :

ويتبين ذلك بمعرفة التجارب التى انتهت إليها المجتمعات الجاهلية المتعددة الأشكال والألوان ، وبيان أحوالها الاجتماعية ، وكيف رفعها الإسلام من تلك البراثن الآسنة بمنهجه السوى الصالح المصلح لكل زمان ومكان إلى تلك القمة السامقة عندما انطوت تحت لوائه ، وطبقت شريعته ، قال تعالى ممتنًا على هذه الأمة : ﴿ **هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا من قَبْلُ لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الجمعة : ٢) .

ويتضح هذا المعلم بتتبع أعمال الهدم والبناء التى قام بها الإسلام فى حياة تلك المجتمعات الجاهلية التى حكمها ، وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التى كانت سائدة ؟ وكيف بنى تلك المجتمعات بناء جديداً منطلقاً من العقيدة الإسلامية ، وقائماً على العدل والحق والحرية .

المطلب الرابع
التأكد على جملة من الحقائق الهامة فى حياة البشرية

والجدير بالذكر بعد أن ذكرنا تلك الفوائد أن نسجل الفائدة الرابعة ، والتى هى جديرة بالرصد والتسجيل حسب النسق المهيمن لعرض هذه الحقائق للبشرية وتجنيدها وتدجينها ، وهذه الفائدة تحمل فى طياتها التأكيد على عدة حقائق هامة منها :

١ - أول شىء عرفته البشرية هو توحيد الله :

نقول : إن كل من عرض التاريخ وتأمله ، ودرسه بوعى وبدون اختزال ، يتبين له من الوهلة الأولى ، أن الأصل فى تاريخ البشرية منذ البداية أنها كانت مهتدية بشرع الله - **سبحانه** - وهداه ، ثم بعد ذلك بأمد بعيد طرأ عليها الانحراف والشرك بعدما نسوا الله فأنساهم أنفسهم !! كما جاء عن حبر الأمة ابن

عباس – رضى الله عنهما – أنهُ قال : (كانت بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق ، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) (١).

ثم كلما تاهت فهوم البشرية عن منهج الله وزاغت عقولهم ، وانحرفوا عن مَنهج الله وأصبحوا فى دورات تاريخية متعاقبة من الزيغ والضلال ، يرسل الله إليهم رسولاً ليردهم إلى صراطه المستقيم وعبادته وحده – سبحانه – ويدعوهم إلى توحيده فيقول لهم على لسان رسوله : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (هود : ٥٠) ولا يخفى أن هذه هى الفطرة التى فطر الناس عليها كما قال ﷺ عن ربه : « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » (٢).

٢ – حقيقة أن الله خالق كل شيء :

لا يخفى على من عنده مسكة من عقل أن الله – سبحانه – خالق كل شيء ، وأن الإنسان من خلقه سبحانه وتعالى ، وهو مستخلف فى هذا الكون لتعميره بمنهج خالق كل شيء – سبحانه وتعالى – فكلما تحققت هذه البديهية فى عقل المسلم أتاحت للمختلف أن يأتلف ، وأن لا يشعر بأى عداء بينه وبين هذا الكون البديع، والمسلم بهذه العقلية يشعر بالانسياب والاندماج بين ما يعتقده من عقيدة وبين هذا الكون البديع ، ولكى يضيغ حياته وفق المنهج الربانى ، ينقب فى هذا الكون ، ويرحل فى جنباته ويقيم ، ومن مختلف تضاريسه يصيغ معانيه ويعيد !!

فإذا كان هذا شعور المسلم مع الكون الذى هو من خلق الله – سبحانه – فإن الكافر المتنكر لحقيقة أن الله خالق كل شيء من أسرار هذا الكون الطائع لله –سبحانه – المسبح بحمده ، فإذا ما فتح له شيء من أسرار هذا الكون البديع تراه يتبجح ويتطاول ويتكبر ، ويستعين بأسماء مختلفة بدل الحمد وشكر الله على هذه المعارف ، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات تخدم كفره وتمرده على خالق هذا الكون البديع ، رغم أنه يظل هو الشاذ عن مخلوقات الله صريحاً فيما يقوله

---

(١) راجع تفسير الطبرى (٤ / ٢٧٥) .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه (٤/ ٢١٩٧) ، حديث رقم (٢٨٦٥) .

من كفر ، حيث لا يقول ما ينتظر قوله ، وما يمكن قوله !

٣ - حقيقة أن الإنسان خلق سويًّا :

لقد تقرر فى كتاب الله العزيز أن الإنسان خلق فى أحسن صورة من اللحظة الأولى قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين : ٤) وليس كما يزعم من لا دين لهم أصحاب مدرسة النشوء والارتقاء ، بأن الإنسان كان أصله حيوانًا ثم تطور فأصبح إنساناً !! كلا ورب الكعبة فقد جاء فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، القول الفصل فى هذه الحقيقة فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴾ (الحجر : ٢٨ - ٣٠) وقال تعالى : ﴿ **خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (التغابن : ٣) .

٤ - حقيقة أن الإنسان يحتاج إلى التذكير :

وهذه الحقيقة من البديهيات عند من عرف دين الله سبحانه ؛ لأن المسلم مهما كانت قوة إيمانه فقد يعتريه الضعف ، ويتنكب الطريق فى بعض مراحل حياته ، لذلك جعل الله سبحانه برحمته سبيلاً إلى التذكير فى نفوس المسلمين فبعث لذلك الرسل وأنزل الكتب وسن للمؤمنين التذاكر فيما بينهم فقال : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ (الحديد : ١٦) .

٥ - الصبر على المشاق :

لا يخفى بعد أن ذكرنا الفوائد السالفة لثمرات دراسة التاريخ ، أنه ينبغى أن نسجل الفائدة الخامسة والتى هى من الأهمية بمكان ، فالفائدة تحمل فى طياتها من معالم التربية الإسلامية الكثير ، فكلما ازداد المسلم اطلاعاً على سير الأنبياء عليهم السلام تقوى عنده رابطة الانتماء لذلك السلف الصالح المبارك ، ويتأكد

له أنه يركن ويأوى إلى ركن عريق ضارب بأطنابه فى تاريخ البشرية جميعاً ، فإذا ما استقر ذلك فى نفس المسلم رضى بما أصابه فى سبيل الله ، بل زاده ذلك ثباتًا على الحق وطمأنينة فى النفس .

٦ - القيمة السياسية :

والآن نسجل الفائدة السادسة والتى هى من الأهمية بمكان ، فالفائدة هذه تحمل فى طياتها من معالم وأصول التربية فى السياسة الشرعية ، لأن معرفة التاريخ ودراسته دراسة واعية تكسب صاحبها الخبرة العلمية فى كيفية التعامل مع أصناف الناس فى كل مراحل الحياة ، وتعينه إعانة فعلية فى كيفية سياسة البلاد والعباد ، وترشده إلى حسن التصرف فى الأمور التى يمر بها؛ لذلك اعتنى الخلفاء والحكام والسلاطين والقادة بدراسة التاريخ عناية فائقة؛ فإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على أن التاريخ يعيد نفسه ، وتجارب الأمم قريبة من بعضها .

٧ - الحصانة الفكرية :

ويقصد بالحصانة الفكرية : إتقان البحث المنهجى فى معرفة ما أحدث من البدع والخرافات بعد النبى ﷺ ؛ لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها ، وقد استخدم كثير من العلماء المنهج التاريخى فى كشف الأباطيل والخرافات وبيان المحدثات والبدع فى الشرع ؛ لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون بعدهم دينًا ، ولقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله : « **ما أنا عليه وأصحابى** » (١)

ولعل أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيمية وتلميذاه : الحافظ ابن كثير، والعلامة ابن القيم .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - وهو بصدد مناقشته لقضية المشهد المنسوبة للحسين بمدينة القاهرة فقال : (ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين ، وتابعيهم شىء من المشاهد فى بلاد الإسلام - لا الحجاز ، ولا أحد من أهل

---

(١) انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألبانى رقم (٢٠٣) .

البيت، ولا صالح أصلاً، بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك !! وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بنى العباس وتفرقت الأمة ، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام ، وعلت فيهم كلمة البدع وذلك فى دولة المقتدر) [١].

ويقول أيضًا : (فى أواخر المائة الثالثة **فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية** القداحية بأرض المغرب ،**ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر ، وقريبًا من ذلك** ظهر بنو بويه الأعاجم وكان من كثير منهم زندقة وبدع قوية ، وفى دولتهم قوى بنو عبيد القداح بأرض مصر ، وفى دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى على رضي الله عنه بناحية النجف ، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول : إن قبر على هناك ، وإنما دفن على رضي الله عنه بقصر الإمارة بالكوفة) [٢].

٨ - **ومن فوائد التاريخ** : أن له فضائل أخلاقية قضائية ؛لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفاءها ، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم ، أو تشويه تاريخهم وحركتهم ، وإساءة الظن والقول فيهم، كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية، وانحرافات عقدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها ، بسبب مراكزهم وسلطانهم وإعلامهم مما يجعل معاصريهم يفترون فيكيلون لهم المدح والثناء وينالون منهم التعظيم وتضفى عليهم ألقاب البطولة والحكمة والرأى وحسن السياسة والتدبير !! بيد أن التاريخ بما يحفظه من حقائق يصحح مثل هذه الأمور، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم من الخدمات الحقيقة لا الدعائية ، والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث .

٩ - يعين على فهم الواقع :

لا شك أن من ثمرات دراسة التاريخ أنها تكسب الدارس فهمًا للواقع والحاضر وتمده بالمقدرة على تحليل واقعه ودراسته ؛ لأنه كما قيل فى الأمثلة

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (٣٥ / ١٢٩) .

(٢) رسالة تحت عنوان « رأس الحسين » لابن تيمية (١٦٧ ، ١٦٨) .

العربية : (ما أشبه الليلة بالبارحة) وعند الإنجليز يقولون : (التاريخ يعيد نفسه) !! وهذا ما آشار إليه القرآن الكريم من وحده التصرفات عند تشابه الأقوال والبواعث عند قوم ما ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة : ١١٨) وقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (غافر : ٥) وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣) فهم لم يتوصلوا بتكذيب الرسل فحسب ، لذا صح القول : بأن كثيراً من القضايا المعاصرة لها جذور تاريخية بعيدة ، فلذلك لا بد لنا من معرفة الماضى البعيد وربطه بالحاضر القريب لكى نفهم ما يدور حولنا ونتفادى مشاكل حاضرنا بأقل خسائر ممكنة .

١٠ - معرفة القرون الفاضلة :

لا يخفى أن معرفة القرون الفاضلة التى قال فيها رسول الله ﷺ : « **خير أمتى قرنى، ثم الذين يلونهم** »[١] فمعرفة أهل القرون ومعروفة سماتهم وخصائصهم، وتراجمهم ، وأخبارهم فى طلب العلم والجهاد ، وفى الزهد والعبادة ، وفى كيفية بناء الدولة الإسلامية ، نشر العدل ، ودفع الظلم إلى غير ذلك من أحوالهم ورؤية النماذج الكثيرة الممتازة التى تعد بالآلاف ، والتى قامت بتطبيق شرع الله فى الواقع العملى ، كذلك فإن ثمرة هذه المعرفة تتضح فى جانبين هامين : الجانب الأول : بيان البدع والحوادث ومعرفة وقت ظهورها ليتميز ما هو من الدين مما ليس منه. الجانب الثانى : إعادة الأمل وبعث الهمة لمحاولة تنقية المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من الانحرافات ، والقيام بالتطبيق العملى من جديد فى واقع الحياة .

---

(١) متفق عليه : انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٣ / ١٨١).

الفصل الثانى

أهمية المنهج فى الدراسات التاريخية

لقد تقرر فى علم اللغة العربية بأن مدلول كلمة النهج ، والمنهج ، والمنهاج ، كلها متحدة فى معنى واحد ، وهذه المدلولات اللغوية : تعنى الطريق الواضح البين ، كما نص على ذلك الجوهرى : (يقال : أنهج الطريق ، أى : استبان وصار شيئًا واضحًا بينًا ، ونهجت الطريق . أيضاً إذا سلكته ، وفلان يستنهج سبيل فلان ، أى : يسلك مسلكه) (١).

فإذا كان ذلك معنى كلمة المنهج لغة ، فمعناها اصطلاحاً : هو السبيل الفكرى والخطوات العملية التى يتبعها الباحث فى مساره العلمى بقصد تحصيل علم معين ، وقد كان علماء المسلمين فى القرون الأولى يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد ، ولذلك وضعوا أصولاً وضوابط للبحث فى مختلف العلوم مثل : أصول الحديث (المصطلح) وأصول التفسير ، وأصول الفقه وما إلى ذلك.

أما المنهج ودلالته فى الدراسات التاريخية ، سواء بالكتابة والتأليف أم بالدراسة والتعليم ، وهذه الشروط تتناول الكتاب ذاته والكتب التى يستمد منها علومه ، كما أنها تعنى بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة ، وتعنى كذلك بالأسلوب والمصطلحات التى يستعملها . وهنا لا بد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة كلمة (المنهج) وتحديد المراد بها ، فقد تطلق ويراد بها التصورات والقيم ، والمبادئ التى يلتزمها الباحث فى بحثه أو كلامه ، كما أنها تطلق ويراد بها طريقة معينة فى البحث العلمى لمادة من المواد العلمية؛ لذلك فإن لفظة المنهج وحدها إذا أطلقت تعنى : الطريق أو السبيل ، ولكن يحدد المراد منها ما تضاف إليه ، فإذا قلنا : المنهج الإسلامى فى دراسة التاريخ ، يدل ذلك على

---

(١) الصحاح للجوهرى (١ / ٣٤٦) مادة (نهج) .

التصورات ، والمبادئ والمفاهيم المنبثقة من الإسلام ، أما إذا قلنا : منهج البحث التاريخى ، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية ، فإنه يعنى القواعد والطرق التى اصطلح على وضعها بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات ، والتأكد من صوابها ، فيصبح المنهج بهذا المعنى الأخير : أداة بحث ممكن استخدامها - إلى حد ما - من قبل مجموعة من الباحثين وإن اختلفت مناهج حياتهم ، وعقائدهم ، وتصوراتهم .

لا يخفى أن كلمة المنهج بالمعنى الأول ليست على إطلاقها ، فإنها عند المسلم محكومة بالتصورالإيمانى ، والالتزام العقدى ، ومقوماته ، وتصوراته ، عن الله ، والكون ، والحياة ، والإنسان ، ونشأته ، ووظيفته فى هذا الكون وغاية وجوده ومصيره .

لذلك لا بد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامى وفق القواعد الشرعية والأصول العلمية ، فى منطلقاته ، وتصوراته ، وطريقة بحثه حتى يخدم بكتابته الإسلام بنشر مبادئه الصحيحة فى العقيدة ، وقيمه التربوية والخلقية فى أوساط البشرية التائهة ، وبتلك الأسس يستطيع المسلم أن يزن أعمال المؤرخين والباحثين فى تفسيرهم للتاريخ ، والحوادث ، والمواقف العامة والخاصة !!

وهذا المفهوم العقدى للمنهج والالتزام به فى تلقى العلم ومناهج البحث والدراسة ، هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم، فالباحث المسلم ينطلق فى بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات علمية وشرعية ثابتة.

أما الباحث غير المسلم فإنه لعدم إيمانه بالله - سبحانه - وبرسوله ﷺ يفسر الوجود وحقيقة الربوبية والعبودية لله ، ووظيفة الإنسان ودوره ومصيره ، بالظنون والأوهام ويرجم بالغيب بدون دليل ، ولذلك يكثر بين الباحثين الذين لا يؤمنون بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، الاختلافات الحادة ، ويعيشون دائماً فى اضطربات وحيرة وشك ، وفى صراع نفسى ، وتشتت ذهنىّ لا يصل بهم إلى معرفة الحقائق على حقيقتها !! ولا شك أن كل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على دراساتهم !! ومن أمثال هؤلاء ، أولئك الشاردون عن منهج

الله – سبحانه – ذلك المدعو إيليا أبو ماضى ، الشاعر النصرانى حين قال :

جئت لا أعلم من أين ولكن أتيت
ولقد أبصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقى لست أدرى

إلى أن قال هذا الشارد عن منهج الله :

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديًا لست أدرى
ولماذا ؟ لست أدرى لست أدرى !! (١)

فهو بهذه الأبيات يصور لنا حالة الضياع والقلق ، والحيرة والشرود التى يعيش هو وأمثاله من أبناء عصره الذين لا يؤمنون بالله ربًا ، ولا بالإسلام دينًا ، ولا بمحمد رسولاً !!

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – حاكياً عن تجربة خاضها بنفسه فى هذا المضمار بقوله : (ويختفى شعور كالشعور الذى عشته فى فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا فى ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدى إلى ظله الكريم ، ذلك الشعور الذى خلعته روحى المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه بقول :

وقف الكون حائراً أين يمضى ؟ ولماذا وكيف لو شاء يمضى ؟
عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقنع ليس يرضى

فأنا اليوم – ولله الحمد والمنة – أعرف أنه ليس هناك جهد غبين ، فكل جهدى مجزى عليه ، وليس هناك تعب ضائع ، فكل تعب مثمر ، وأن المصير مرض ، وأنه بين يدى عادل رحيم ، وأنا أشعر اليوم ولله الحمد والمنة ، أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ، لأن روح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده ، والكون يمضى وفق ناموسه الذى اختاره الله له فى طاعة ، وفى رضاً ، وفى تسليم ، وهذا كسب ضخم فى عالم الشعور والتفكير ، كما أنه كسب ضخم فى عالم الجسد والأعصاب، فوق ما هو كسب ضخم فى جمال العمل ، والنشاط ، والتأثر والتأثير (٢).

---

(١) عبد اللطيف شرارة ، إيليا أبو ماضى ، ومختارات من شعره ، (٢١٥).
(٢) فى ظلال القرآن (٦ / ٣٣٥٢).

وإنك لتجد فى أبحاث الأوروبيين عن الحياة والإنسان ضروبًا من التخمين والخبط والقول دون دليل ، فهذا الدكتور (هـ ، جـ، ويلز صاحب كتاب « معالم التاريخ الإنسانية) يخصص الجزء الثانى من كتابه فى البحث عن كيفية تكوين الإنسان ومراحل تطوره !! فيبحث فى القردة وأشباه الإنسان (تالى النياندر) وإنسان العصر الحجرى والعصر الجليدى على أساس أن هذا الإنسان الذى عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر فى تكوينه الجسمى والعقلى، وفى مداركه وعواطفه إلى آخر هذه الأحكام التى لادليل عليها، والحقيقة هى أن أول البشر هو آدم عليه السلام، وأن الله خلقه بيده – تبارك وتعالى – ومن تراب ونفخ فيه من روحه وجعله فى أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة .

ومن المؤسف حقًّا أن يكون هذا المنهج فى البحث الذى يعتمد على الظنون والأوهام ويعرض عن الوحى الربانى ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفائر والهياكل العظمية والجماجم الحيوانية : هو طريق كثير من الباحثين المسلمين الذين كتبوا فيما يسمى بفلسفة التاريخ !!

واعلم رحمك الله أنه لا يكفى فى الدراسات الإسلامية على مختلف أنواعها لكى يصل الباحث فيها إلى الحق والصواب أن يتبع الطرق المنهجية فقط !! بل لابد مع ذلك من توفر شروط نفسية وإيمانية فى الباحث ؛ لأن الباحث المسلم الواعى بدينه ، العارف بمقاصده وأهدافه يتميز عن غيره بأن تصوراته وأهدافه وقناعته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية ، وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب للعدل والصواب قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥) فالكتاب الذى جاءت به الرسل هو الذى يتلقى منه الحق والعدل ، ويقام على منهجه القسط فى الأرض بين الناس ، ولا يكون الحق والقسط فى غير كتب الله ووحيه المنزل على رسله [١] .

لذلك فإن من لوازم المنهج الإسلامى فى كتابة التاريخ : أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامى وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة ، ودراية

(١) راجع : تفسير الآية (٢٥) من سورة الحديد فى ابن كثير .

بعلوم الشريعة ومقاصدها ،إضافة إلى تخصصه التاريخى وتمكنه من ذلك ، وإلا لأصبح التاريخ الإسلامى ألعوبة لمئات المناهج والأهواء !! لأن هذا التاريخ هو فى الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة مستمدة من مصدر صادق وثيق من وحي العليم الخبير القدير الحكيم السميع البصيرالمحيط علمه بما كان وما يكون : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد : ٣) فالالتزام بالمنهج الإسلامى فى الكتابة التاريخية ضرورة علمية ، ومصلحة إنسانية، ووظيفة شرعية !!

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : (إنه لمن الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية وإدراك التصور الإسلامى عن الله والكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وهذه الخصائص لا يوجد عند غير الباحث المسلم الملتزم لإسلامه) (١) .

إنه لمن مصلحة الإنسانية عموماً : أن يتولى كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحقة؛ لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة فى نظرتها للحياة وللإنسانية ، والتى لا تقبل تفرقة بين السلوك العلمي وبين الاعتقاد القلبى ، والباحث المسلم أولى بتفسير التاريخ البشرى كله فضلاً عن تاريخه الإسلامى ، وذلك أنه يملك المنهج السليم الذى يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ ، كما لا يخفى أن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامى فى كتابة التاريخ يوقع الباحث فى أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام ، فهذا محمد عبد الله عنان المؤرخ المصرى كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان (أساطير دينية توجه سير التاريخ) !! ففى أحد فصول كتاب له سماه « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » ، أنكر فى هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة وهى : المهدى ، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام فى آخر الزمان ، ويوم القيامة !! وجعلها من طائفة الأساطير وعرضها عرضاً فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها ، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء وبين

---

(١) فى التاريخ فكرة ومنهاج (٤٦) .

حقائق هذه القضايا العقدية الثابتة بنصوص الشرع وإجماع الأمة سلفًا وخلفًا !!

وبعد ، فلا ريب أن من أولويات القواعد المنهجية وبدهياتها؛ عدم إنكار القضايا العقدية وغيرها من المجمع عليها بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس فى تطبيقها ؛ لأن الانحراف لا يعالج بانحراف آخر ، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه ، وإيضاح الحق وتعرية الباطل وكشفه ، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة فى المهدى - مثلاً - فيدعى لنفسه المهدية لغرض سياسى ، أو دينى ، أو اقتصادى ، كما حدث ذلك فى الواقع التاريخى عندما ادعى العبيديون أن عبيد الله بن ميمون القداح هو المهدى!! وكذلك ادعى محمد بن تومرت المغربى ذلك وغيرهم كثير !! لذلك نقول بأن العلاج الصحيح لفهم تفسير التاريخ ليس بإنكار النصوص الصحيحة والإجماعات الصريحة ، ووصفها بالأساطير ، ورميها باللامعقولية !! كلا، بل يكون بإحقاق الحق وإبطال الباطل ، واتباع الأمانة المنهجية العلمية فى ذلك .

والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة لتمسكها بالفضائل الخلقية ، وأصلية لاستقلالها عن غيرها من المناهج واستمدادها من الأصول الشرعية ورجوعها للمصادر الأصلية ، ومن شأن هذه المنهجية الأصلية والملتزمة أن تقى الباحث -بعون الله - من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته ، وتُقوِّم أحكامه ونتاجه ، حتى وإن وقع فى خطأ مما لا يسلم منه بشر غير معصوم فإنه سرعان ما يرجع عنه عندما يكتشف ذلك ، أو ينبه عليه ، فلا بد لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامى، وتفسير حوادثه ، أن يكون مسلمًا ملتزمًا بعقيدة « ما أنا عليه وأصحابى » عالمًا بشريعة الإسلام وأحكامها .

❀❀❀❀❀

المبحث الأول
مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية

لقد اعتنى علماء المسلمين بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجًا دقيقًا فى نقدها ، وينبغى للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويستفيد منه فى دراساته التاريخية ، والمصادر المهمة فى هذا الشأن ، هى كتب (مصطلح الحديث) أو (أصول علم الحديث) وأسس هذا العلم موجودة فى الكتاب العزيز فى مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (الحجرات : ٦) وفى السنة المطهرة فى مثل قوله ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع منا شيئًا فبلّغه كما سمع ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع » [١] ففى قوله ﷺ : « كما سمع » نص فى دقة التحرى .

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت فى الرواية واحتاطوا فى قبول الأخبار ، فقد جاءت الجدة إلى أبى بكر تلتمس أن تورث ، فقال : ما أجد لك فى كتاب الله شيئًا وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا ، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال : حضرت رسول الله يعيطها السدس ، فقال له : هل معك أحد ؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها [٢] .وكذا روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقف مشابه مع أبى موسى الأشعرى [٣] ومن هنا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة ، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسنين ولادتهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم ، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد ، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام فى عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره ، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الأسانيد أو علل المتون،

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب العلم (٥/ ٣٤) ، وقال : حسن صحيح .
(٢) تذكرة الحفاظ : للذهبى (١/ ٢) .
(٣) المرجع السابق (١ / ٦) .

وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل :كتاب المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى ٣٦٠ هـ[١] وكتاب معرفة علوم الحديث ، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، المعروف بابن البيع ، المتوفى سنة٤٠٥ هـ[٢] وكتاب الكفاية في علم الرواية للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي ، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ[٣] وكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض اليحصبي السبتي ، المتوفى سنة ٥٤٤ هـ ، وكتاب علوم الحديث للحافظ أبي عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي المتوفى سنة ٦٤٣ هـ[٤].

فهذه الكتب وغيرها تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض ، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال الإمام علي بن المديني ، المتوفى سنة ٢٣٤ هـ[٥] وسيد الحفاظ يحيى بن مَعين المزني المتوفى سنة ٢٣٣ هـ[٦] وأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ والبخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وأبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ[٧] وأبي زرعة المتوفى سنة ٢٦٤هـ[٨] حيث تكلموا في الرجال وفي نقد متون الأحاديث وبيان عللها . ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب الإمام البخاري ثلاثة كتب هي : التاريخ الكبير ، والتاريخ الأوسط ، والتاريخ الصغير ، والإمام ابن أبي حاتم دوّن كلام أبيه ، وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل،

---

(١) المرجع السابق (٣ / ٩٠٥) .
(٢) المرجع السابق (٢ / ١٠٣٩).
(٣) المرجع السابق (٣ / ١١٣) .
(٤) المرجع السابق (٤ / ١٣٠٥) .
(٥) المرجع السابق (٤ / ١٤٣) .
(٦) المرجع السابق (٢ / ٤٢٨) .
(٧) المرجع السابق (٢ / ٥٦٧) .

وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين [١] وكذلك ابن حنبل مروى عنه كتاب العلل ، وأيضاً على بن المدينى له كتاب في علل الحديث [٢] ، وقد كتب كل من محمد بن سعد ، وخليفة بن خياط كتاباً فى الطبقات ، كما كتب ابن حبان البستى المتوفى سنة ٣٤٥ [٣] كتابا فى الثقات، وكتاباً فى المجروحين من المحدثين . وأيضاً كتب الخطيب البغدادى كتاباً جامعاً فى أسماء العلماء والرواة الذين نشئوا فى بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية كما كتب ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ [٤] كتاباً مماثلاً سماه تاريخ دمشق .

وهناك كتب تخصصت فى الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم فى الكتب الستة مثل الكمال فى أسماء الرجال لعبدَ الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ هـ [٥] وتهذيب الكمال للحافظ المزى المتوفى سنة ٧٤٢ [٦] ، وتهذيب التهذيب للحافظ الذهبى ، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . وخصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة من أكثرها تداولاً كتاب ميزان الاعتدال فى نقد الرجال للذهبى ، وكتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلانى . فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكرها – لأننا لا نقصد الاستقصاء – لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها ، ومعرفة صحيحها من سقيمها ، أما كتب التاريخ الإسلامى المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق ، ومغازى الواقدى ، وفتوح البلدان للبلاذرى ، وفتوح الشام لابن إسماعيل الأزدى ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط، والأخبار الطوال للدينورى ، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبرى ،

---

(١) كتاب التاريخ ليحيى بن معين ، بتحقيق الدكتور أحمد محمد نور سيف .
(٢) العلل ومعرفة الرجال بتحقيق الدكتور مصطفى الأعظمى .
(٣) تذكرة الحفاظ (٣ / ٩٢٠) .
(٤) المرجع السابق (٤ / ١٣٢٨) .
(٥) المرجع السابق (٤ / ١٣٧٢) .
(٦) الرجع السابق (٤ / ١٤٩٨) .

وجمهرة النسب للكلبى ، ونسب قريش لمصعب الزبيرى .

أو كانت مصادر ثانوية ، فإنها تحوى مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف ، فهى مصادر فى المعلومات التاريخية وليست مصادر فى الأخبار .

المبحث الثانى
مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامى وتفسير حوادثه يعتمد فى أصوله على التصور الإسلامى ، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هى الأساس فى منطلقاته المنهجية ، وفى تفسير حوادثه والحكم عليها ، لذا يمكن القول بأن مصادر كتابة التاريخ الإسلامى فى هذا الجانب هى نفس مصادر الشريعة : القرآن، والسنة والإجماع ،والقياس .

يعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمرى بقوله : (لأن التفسير الإسلامى للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون ، والحياة ، والإنسان ، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى ، وكتبه ، ورسله ، وباليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى . فهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية كما أنه مبنى على دوافع السلوك فى المجتمع الإسلامى الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامى ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمى لأثر الوحى الإلهى فيه) (١) .

لذا ينبغى فى تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك فى المجتمع الذى نشأ وتكوَّن على هدى الشريعة وشكّل حياته وتصوراته وفقًا لها ، وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته فى الدعوة إلى الله ، وفى الجهاد فى سبيل الله ، وفى التعليم، وفى بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية ، وفى علاقات المجتمع الإسلامى مع بعضه ومع

---

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامى للدكتور / أكرم ضياء العمرى (٣) .

غيره من المجتمعات .

ولكى يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامى صحيحا وواقعيًا فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التى شكلت المجتمع وتحكمت فى حركته وبناء تصوراته وثقافته وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهى الشرعية ، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات ؟ وكم منها مائل عنها ؟ لنعرف مدى الأثر الذى أحدثه الإسلام فى حياة المجتمعات الإنسانية ، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التى لحقت بالمجتمع الإنسانى من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله ، وندرك أيضًا فضل الله ورحمته بهذه البشرية ، إذ أخرجهم بهذا من الظلمات إلى النور ومن الجور إلى العدل، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الخوف والقلق إلى طمأنينة الإيمان وأمنه .

قال تعالى : ﴿ **الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ (إبراهيم : ١) .

فالمنهج الإسلامى فى كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج ، ففى مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريريًّا بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلى على ما سواه .

يقول الدكتور أكرم العمرى فى ذلك : (إنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشرى فى العوامل المادية مثل : تبدل وسائل الإنتاج – كما فى الفكر الماركسى – أو التفسيرات المعتمدة عى أثر البيئة الخارجية – من مناخ وجغرافيا واقتصاد – كما فى الفكر المادى الغربى ، بل هو يوضح دور الإنسان ومسؤوليته عن التغيير الاجتماعى والتاريخى فى إطار المشيئة الإلهية) [١] .

لا يخفى أن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامى ، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء

---

(١) المرجع السابق (٣) .

متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث ، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين فى أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم فى العودة إلى المراجع الشرعية ، وبعضها ناتج عن الغبش فى التصور ، وعدم وضوح الرؤية بالغزو الفكرى الأوروبى .

كما أنهم نظراً لا نطلاقهم الخاطئ فى فهم الشريعة وفى معرفة معنى العبودية لله ولوازمها ، تراهم يأخذون فى الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية ، ويبحثون لها عن سند تاريخى قديم بل يحاولون التقريب والملائمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة فى الواقع الجاهلى ، وهذا المسلك قلب للحقائق والواقع ، إذ تكون الجاهلية ، ونظمها كأنها هى الأصل ، والشريعة ينبغى أن تلائمها وتوافقها !!

وهذا الأسلوب التبريرى لما يشرعه الله ناتج كما قلنا : من الانحراف التصورى، وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام ، وذهول عن قاعدة مهمة وهى أن الشريعة الإسلامية لا تستغنى ولا يطلب منها الحلول لمشكلات نشأت فى مجتمع لا يطبق الإسلام .

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامى أسلوب مرفوض ، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أو العلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكى مثلاً !! لأنه لابد أولاً من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشريعة الله وحاكميته وسلطانه ، ثم هى بعد ذلك التسليم والالتزام ، تقوّم عوج الحياة على منهاجها، لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويغ انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة .

ومن هنا يتبن لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية والتلقى منها والالتزام بأحكامها وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة .

المبحث الثالث
سمات المنهج العلمى عند علماء المسلمين

لا ريب أن سمات المنهج العلمى عند علماء المسلمين واضحة وجلية ، لذلك نحاول أن نلخصها فى عدة نقاط حتى يستفيد منها طلبة العلم ، فى بحوثهم العلمية :

(١) استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها .

(٢) حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حسن العرض وتحرير المسائل .

(٣) الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة، ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب والقضاء والقدر ، وردّ كل ما خالفهما .

(٤) الأمانة فى استقصاء الأدلة وإيرادها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقًا للقواعد المقررة مع الاستعانة بأقوال العلماء الثقات .

(٥) بيان المصادر والمراجع التى أخذت عنها مع الضبط المتقن فى نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها .

(٦) الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلاسم والظنون والتحرر من ذلك .

(٧) التجرد من الهوى والميل الذاتيين ، وقد حصل لهم هذا؛ لأنهم ينظرون إلى دلالته دون قرينة صارفة .

(٨) عدم قبول المتناقضات ، وتقديم المبادئ على الرجال، ولذلك لا يسلمون لما ينقل عن المشايخ وهو مخالف للدين ، ويقولون : هو أحد أمرين إما كذب عليهم أو غلط منهم .

(٩) حسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى ومع الأنبياء – عليهم السلام – والعلماء والابتعاد عن التجريح الشخصى والاقتصار فى النقد على بيان الأخطاء .

وبعد ، فهذه هى القواعد العلمية فى البحث التى اتبعها المسلمون فى

كتابتهم ومؤلفاتهم ، وكلها تنطلق من التزامات خلقية ، ومبادئ شرعية ؛ لأن الأمر بالصدق والأمانة ، ومجانبة الهوى ، وترك القول بدون علم ، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية ، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها .

المبحث الرابع
غاية المنهج فى كتابة التاريخ الإسلامى ووسائل تحققه

لا يخفى أن منهج كتابة التاريخ الإسلامى يقوم فى جانبه الفكرى والتصورى على المبادئ والقيم الإسلامية . ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان ، لذلك فإن غايته ووجهته ، مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية فهو يسعى لتكمل الغاية الأساسية من خلق الإنسان ، وهى تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، بإقامة شريعته ، وينبغى أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيمانى .

إنه لابد أن يربط عمله التاريخى بعقيدته ومنهجه؛ لكى يستفيد من الأحداث التاريخية دروساً وتوجيهات مثمرة ؛ لكى يدرك من خلال الوقائع سنن الله وقدره وهيمنته على الثمرات التى يرجوها المسلم من دراسة التاريخ ، فالتزام الباحث بمنهج العقيدة ، يرسم له طريقة التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودراسته وأخذ العظة منه.

وهكذا يتضح لنا : أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية فى تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولى فى منهج كتابة التاريخ عند المسلم ، فهو لا يخالف مبدأ ولا حكماً منها ، ولا ينقاضه لا فى كتابته وتدوينه للتاريخ ولا فى تفسيره للحوادث .

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته ، وأن يلتزم بها فى الارتباط بالعقيدة الإسلامية والانطلاق منها كهدف وغاية فى المنهج التاريخى، كما أن المنهج التاريخى يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها فى الواقع العملى . فالالتزام بينهما وثيق ككل عمل المسلم الذى يلتزم

بعقيدته ويسعى لتطبيقها فى واقع الحياة .

كما أن من غاية المنهج الإسلامى فى دراسة التاريخ : الكشف عن الحقائق التاريخية وإظهارها والقول بالحق فيها وفقاً للمفاهيم والمقاييس الإسلامية ؛ لأن المسلم مأمور بإظهار الحق ، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم؛ لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفائها . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ﴾ (النساء : ١٣٥) .

وإنما عليه أن يعرض ذلك، ولكن فى مجاله وبحجمه الحقيقى دون تضخيم لهذه الأخطاء ، أو تشنيع بها ، وإنما تعرض عرضاً متزنًا موضحاً الظروف والملابسات التى صاحبت ذلك وأدت إليه ، وعليه أن يوضح الموقف الشرعى فى مثل هذه الحالة وفقاً للمقاييس والأحكام الشرعية ، كما أن الخطأ يعتبر مجالاً من مجالات التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلاً . والأسوة فى ذلك طريقة القرآن الكريم فى عرضه للأحداث التاريخية ، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفى ما وقع منهم من أخطاء ، وإنما يذكر ما وقع منهم من خطأ ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه . كما أنه يذكر ما فى الجانب الآخر – الكفار – من خير أو شر ، قال تعالى موضحاً ما وقع من المؤمنين من المخالفة فى غزوة أحد : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) وقال أيضًا سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٥٥) وقال سبحانه : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة : ٤٧) . ففى هذه الآيات السابقة نجد أن الله سبحانه

وتعالى قد ذكر ما وقع من بعض المؤمنين من أخطاء ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك ، ولكنه أيضًا لم يشنع عليهم بهذا الخطأ ، ويخفى الجانب الآخر من محاسنهم ، أو يوقعهم فى اليأس وعدم إمكانية الإصلاح ، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ ووعدهم بالعفو والمغفرة .

قال تعالى مبينًا حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق ، أو إخفاء الباطل : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ٩٧ - ٩٩) .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ (آل عمران : ٧٥) .

وهكذا فالمنهج الإسلامى فى دراسة التاريخ منهج وصفى ومعيارى . فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ويتحقق من صحة الواقع بكافة وسائل النقل وإثبات الحقائق التى يتميز بها منهجه العلمى ، ثم لا يكتفى بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعيارى وفقًا للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية . فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هى الميزان المعيارى ، الذى توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥) .

وباتباع هذا المنهج فى الدراسة تحصل العبرة والتوجيه ، وتتحقق الثمرة من دراسة التاريخ ، وهى تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق مع بيان خطر الانحراف واتباع الباطل وترك العمل بمنهج الله الحق ، ومن الغايات التى يسعى المنهج الإسلامى إلى تحقيقها من دراسة التاريخ : هى استخدام الأحداث التاريخية فى

تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية لتقويم مسيرة الأمة ، والإسهام فى رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها ، وقد قرر القرآن الكريم والسنة النبوية فى عدة مواضع مبدأ استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالاً لتربية الأمة الإسلامية .

وقد جعل الزمن كله ماضيه وحاضره ومستقبله ميداناً لهذا الإعداد وهذه التربية، ففى الماضى عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل ، وبيَّن مواقف تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسلهم الذين أرسلوا لهم ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم ، وبيَّن السمات المشتركة فى تاريخ هذه الأمم وفى مواقفها من أنبياء الله، وعلى ضوء هذا الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها ، وفى الحاضر - وقت نزول القرآن - عرض القرآن كثيراً من أحداث اليرة النبوية ومغازى رسول الله ﷺ ، وبيَّنَ مواقفَ الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف : مؤمن ،وكافر، ومنافق .

وقد استخدم الأحداث التى تقع من هذه الأصناف فى تربية المؤمنين وإعدادهم وفى كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين ، وهى أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا فى وقائعها ، فعقب عليها القرآن كاشفاً عما فى الأحداث والمواقف من الصواب ، وما فيها من الخطأ ، لكى يأخذ المسلمون الدروس كاملة ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم .

ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعى للاستجابة وسرعة التأثير، ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذى عايشت وقائعه أكثر من تأثيرها بشىء آخر ، فيكون استثمارها لهذا التأثير فى التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة ، وفى الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين فى الأرض وجعل لهذا الوعد شرطاً - هو عبادة الله وحده لا شريك له - مما حفز همم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط؛ لتحصل لهم ثمرته فى الحياة الدنيا، وقد تحقق على أيدى الجيل الأول من هذه الأمة لما حققوا الشرط المطلوب فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ومكَّن لهم فيها ، ولا يزال هذا الأمر يتحقق للمؤمنين فى مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه ، بل إن آيات القرآن

وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت من معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا ، وهو الحياة الآخرة ، وما سيكون فيها من الأحداث ، لتوسع نظرة المؤمن للحياة والزمن وللتاريخ ، فتكون معه زاوية الرؤية أوسع والنظر لديه أرحب وأشمل وأقدر فى الاستيعاب والتحليل.

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو الفتن والملاحم ، وأشراط الساعة كثيراً من الاهتمام والإيضاح حتى يكون المسلم على وعى تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية ، وهى أحداث تعطى إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوى ، ولذلك لا تفجؤه مثل هذه الأحداث أو تعميه عن استبانة طريق الحق ؛ لأن الذى يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها . وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة الموقف بخلاف الذى يجهل سبب الأحداث ومصدرها ، فإنه لا يدرك السنن الربانية ، وتفاجئه الأحداث وهو لا يعرف سببها الحقيقى ، فيورثه ذلك حيرة وقلقاً.

ومن أهم الغايات التى يحققها المنهج الإسلامى فى الدراسة التاريخية : بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية ، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها ، وهذه الغاية مهمة جداً فى حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشىء من المفاهيم والتصورات الجاهلية ؛ لأنه كما قيل : وبضدها تتميز الأشياء ، فالتصورات والقيم والمبادئ الجاهلية مضادة للإيمان بالله ، ومن مقتضيات الإيمان بالله : البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها قال تعالى : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ (البقرة : ٢٥٦).

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية) فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها تزيد المؤمن إيماناً وطمأنينة إلى ما عنده من الحق ، والمعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها حصانة ضد الوقوع فى شىء منها ، لكن لا بد أن يسبق هذه الدراسة معرفة تاريخ الجاهلية ونظمها ، ويصاحبها إيمان بالله صحيح ، واعتزاز بشريعة الله، وفقه بالحلال والحرام ، وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء.

المبحث الخامس
وسائل تحقيق المنهج

أما الوسائل التى يتحقق بها المنهج فى الواقع العلمى فهى تقوم على ثلاث ركائز أساسية : وهى التصور الصحيح المستمد من الشريعة فى مصادرها المتعددة، ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه فى واقع حياتهم ودراستهم وتوجيههم وتدريسهم ، وفى أخذهم وعطائهم ، وفى تحملهم للعمل وأدائهم له ، فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب فى الواقع ، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامى فى الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام أو من لا يعرف التصور الصحيح فى الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها ، فالرجال العالمون بالشريعة الصادقون فى علمهم وعملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخمة الخطيرة ، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين بقوله : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) وبقوله تعالى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ** ﴾ (النور : ٣٦ ، ٣٧) .

فالرجال الأمناء المخلصون هم الوسيلة التى تحقق المنهج فى الواقع العملى ، وبعد توفر التصور الإيمانى الصحيح والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به يأتى دور المنهج الإسلامى فى الكتابة التاريخية ، وإذا لم يكن العمل منظماً ومتبعاً فى إعداده المنهج العلمى السليم ، فإنه يفقد المنهجية العلمية السليمة ويفقد العمل كثيراً من مزاياه ، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القارئ تبين المعالم الصحيحة .

وهذه الركائز الثلاث يكمل بعضها بعضاً ، وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض ، فالتصور الصحيح هو القاعدة التى لا يتصور وجود عمل سليم مع فقداتها ، لأنها هى الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها ، فهى المنطلق الأساسى والمركز المحورى لكافة الوسائل والغايات ، وهى فى نفس الوقت وسيلة من الوسائل التى يتحقق بوجودها المنهج الإسلامى ، والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعلمهم التصور الإيمانى فى الواقع العملى والسلوكى وخاصة إذا امتلكوا المنهج العلمى السليم وأجادوا تطبيقه فى دراساتهم ومؤلفاتهم .

⚜⚜⚜⚜⚜

الفصل الثالث
قواعد فى منهج كتابة التاريخ الإسلامى

المبحث الأول
قواعد فى التصور والاعتقاد

١ - الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية :

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامى على مر العصور ووحدة الحضارة الإسلامية فى أطرها ومفاهيمها العامة ، ودارس التاريخ يجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور فيدرس تاريخهم على أنه وحدة نظراً للاشتراك فى المفاهيم والدوافع والمؤثرات التى تساعد على صنع الحدث التاريخى وتشكيله ، والذى يقرأ سيرة الأنبياء عليهم السلام وتاريخهم كما ورد فى القرآن الكريم يجد التوافق التاريخى والاتحاد فى المفاهيم والنظرة للأحداث ، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدرون عن مشكاة واحدة ويتلقون عن رب واحد ويعودون إلى رسالة واحدة فى قواعدها وأصولها ، وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسل نجد فى التوافق فيه هذه المواقف والمفاهيم ، وهذا يعبر عن قوانين ثابتة وسنن لا تتغير فى حركة الكون وجرى التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدره القائم بالحق .

ويجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقيدى وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامى بسماته وخصائصه العامة ، ونبرز التاريخ الجاهلى بسماته العامة على مدار العصور ، وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافى أو العائلى أو الزمنى ، والتى تفتت الوحدة العقيدية والرابطة الإيمانية وتأتى بروابط بديلة من الوطن والقيم والإنسانية، وتلوث التاريخ الإسلامى وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية وتسلكه فى أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية .

المبحث الثانى
الحكم الشرعى فى المخلفات الحضارية

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقة لمخلفات الأمم وآثارها والحكم الشرعى فيها ، فالمسلم الذى يستمد تصوره من الكتاب والسنة ويهتدى بهديهما لا بد له وهو يدرس تواريخ الأمم أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعى يعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل ، فلا يغالى فى تعظيمها تقديرها كما يفعله فريق من الناس ، ولا يغمطها حقًّا هو لها.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذى نتبعه فى دراسة الآثار والوقوف عليها ، وبين لنا الفائدة التى من الممكن أن نستفيدها من الوقوف على آثار السابقين وعّرفنا على القيمة الحقيقية للآثار ، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة ، والتعرف على آثارها لكى يؤتى ثماره لا بد أن يقترن بالعبرة والعظة التى تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه ، فلا يدعها أو يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام ، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله ، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قلبهم ؛ لأن العلم بأمر الله وشرعه والنظر الصحيح والاعتبار المثمر فى أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع .

أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا حياة فيها ، كقولهم : إنهم لا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم فى الأفراح كيت وكيت ، وإنهم كانوا يحرثون بالمحراث الذى نحرث به .... وحصر الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلى غير ذلك . إن هذه الدراسة (الأكاديمية) الجافة لا توقظ فى القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة ، ولا تنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف على سنن الله وآياته فى الأنفس والآفاق، كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآنى فى عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير فى الأرض وننظر

فى سيرنا نظر المستبصر المستفيد ، الباحث عن أسباب الدمار الذى حل بأصحاب تلك الآثار :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾(النمل : ٦٩) . وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾(القصص : ٥٨) .

فالله يطلب منا أن يكون سيرنا فى الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها .

ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية وسماع أخبارهم سماع العظة والعبرة ومشاهدة الآثار قدرة الله وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين ، والتعرف على القيم الحقيقية التى تطيب بها الحياة وتعمر ، كل ذلك هو سبب النجاة والفوز عند الله .

قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج : ٤٥ ، ٤٦) .

وهذا التأمل فى آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج علمى فى واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه ، وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال : ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾(السجدة : ٢٦) .

كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر فى آثار السابقين فى مقام الوعظ البليغ وجعله حجة الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى : ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾(إبراهيم : ٤٤ – ٤٧) .

وفيما يلى نسوق بعض الآيات التى يتبين منها منهج القرآن وطريقته فى عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله ، ولفت أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالمشاهد الباقية من مخلفات القوم وآثارهم .

قال تعالى واصفًا ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمرانى : ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ (الروم : ٩) وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف : ٧٤) .

وقال عن قوم هود عليه السلام : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩) وقال عن قوم فرعون : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾ (الدخان : ٢٥– ٢٧) .

ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات ويسيروا على الطريق المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قومًا آخرين وبعضها بقيت خاوية خربة لتكون آية للمعتبرين . قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٠) .

وهذه بعض الآيات التى تدلنا على الشرط فى دراسة الآثار والمنهج الذى ينبغى أن يتبع فى الدراسة ويوضح لنا القيمة المستفادة منها هى العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته وأن هذه السنة من سنن الله الثابتة فى كل من يعرض عن شرعه ويتبع هواه .

❦❦❦❦❦

المبحث الثالث
الفهم الصحيح للقضاء والقدر

ومن القواعد المهمة فى منهج كتابة التاريخ الإسلامى الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر ، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند كثير المسلمين المتأخرين فمنهم من أنكر ذلك وتنقص المؤمنين به ، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مذل . وكلا الموقفين انحراف ومجانب للصواب فالإيمان بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان وما هو كائن أمر لازم ولا إيمان لمن لم يؤمن به إذ هو أحد أركان الإيمان : « **تؤمن بالقدر خيره وشره** »(١).

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله : ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾(الصافات : ٩٦) فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت فى اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض لما ثبت فى الحديث الصحيح :

« **إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة** »(٢) .

وفى الحديث الآخر : « **إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات فيكتب علمه وأجله ورزقه وشقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح ...** »(٣).

فهذه الحقائق لا بد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة الحوادث التاريخية لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب فى كتاب الإيمان – باب وصف جبريل للنبى ﷺ الإسلام والإيمان رقم (٨) .

(٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت (٤ / ٢٢٥) رقم (٤٧٠٠) .

(٣) متفق عليه : انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢ / ٢٠٧) .

التاريخية فمثلاً انتصار المسلمين على الروم فى معركة اليرموك . ولو أردنا أن نبحث عن الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة رغم أن القوتين غير متكافئتين لا فى عدد الجيش ولا فى نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته .

فعدد الروم سبعة أضعاف عدد المسلمين ، وجيش الروم جيش نظامى مدرب وجيد التسليح بينما الجيش الإسلامى قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاتل بعيداً عن مركز خلافته . ومع ذلك حصل له الانتصار ، فلو بحثنا فى الأسباب المادية المنظورة بحثًا عقليًّا مجرداً لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة مما يضطرنا إلى رد هذه الأخبار الواردة بهذه المعلومات ، أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع وهى أن الأمر ليس أسبابًا لا بد أن تتبعها نتائجها إنما هناك قدر ومشيئة وخالق يدبر ، يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

وأن الأسباب وحدها لا تؤدى إلى نتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه ، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ولا نستغربها ، فالمسلم الذى يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات ، بل يدرك أنه ربما تكتمل الأسباب المادية فى عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك ذلك لا تأتى النتائج .

وبهذا يتضح لنا أنه لكى يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحاً مستكملاً لعناصره لا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنها لا تعنى ترك التكاليف الشرعية ، وترك الأخذ بالأسباب المقدورة والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة وبذل الجهد فى تحصيلها ، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجاً بالقدر ؛ لأنه لا حجة فى ذلك ، فما يقع من الأقدار هو فى الحقيقة أمر غيبى بالنسبة لنا ، ولذلك قال العلماء : (القدر سر الله فى خلقه) (١) . وقد نُهى المسلمون عن الجدال فى القدر ، وورد فى الحديث : « إذا ذكر القدر فأمسكوا » (٢) .

---

(١) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامى (ص ٢٠٠) .

(٢) ذكره أبو نعيم فى حلية الأولياء (٤ / ١٠٨) وقد صححه الشيخ الألبانى رحمه الله ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٣٤) .

(فالتكاسل وترك العمل ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع الصلة بالمسبب والفاعل الحقيقى) و(بسبب الانحراف فى مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين فى أخطاء شنيعة فى تقديره للدولة الأموية والحكم عليها حيث قالوا : إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء وقالت : إن أعمالها لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكراً للقدر إذ لو أراد الله غير ذلك لكان) (ومن أمثال ذلك أحمد أمين فى كتاب "ضحى الإسلام" وشاكر مصطفى فى كتابه" دولة بنى العباس " ، والدكتور عفت الشرقاوى فى كتابه "أدب التاريخ عند العرب") .

وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا القول دون أن يوردوا عليه دليلاً ، وهذا يرينا مدى التشويه الذى يلحق تفسير حوادث التاريخ الإسلامى عندما توضع فى منظور غير إسلامى وعندما تنحرف المفاهيم والتصورات ، وهذا الفهم الذى ذهبوا إليه والحكم الذى حكموا به مبنى على الجهل بمفهوم القضاء والقدر ، وتوهم أن بينه وبين التكاليف الشرعية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله معارضة ، وليس الأمر كذلك كما أوضحنا ، كما أن الوقائع التاريخية الثابتة تكذب هذا الادعاء فقد قتل كل من غيلان الدمشقى ، ومعبد الجهنى، الذين أنكرا القدر فى ظل الدولة الأموية كما قتل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان إمام الجبرية بأمر من الخلفاء الأمويين .

المبحث الرابع
الإيمان بالغيب

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامى الإيمان بالغيب وهو أحد أركان الإيمان ، كما أنه أخص صفات المؤمنين بالله ، قال تعالى فى أول سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة : ١ – ٣) .

ودارس التاريخ الإسلامى إن لم يكن مؤمناً وصحيح التصور فى ذلك فإنه لا يستطيع أن يعطى تقييماً علمياً وواقعياً لأحداث التاريخ الإسلامى وحركته الجهادية ؛ لأن المسلم المجاهد عندما يقاتل فى سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذى يقاتل الكفار وأنه لا يقاتلهم بكثرة عدد الجنود ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادى وحده ، وإنما بما ينزله الله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل ، وغير ذلك من الوسائل المتطورة وغير المتطورة، فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث فى معركة بدر وغيرها من المعارك ، وأحياناً بما يجريه الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التى فرقت الأحزاب عن المدينة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٩) .

وقال ﷺ : « **نصرت بالرعب وأهلكت عادٌ بالدَّبور** »[١].

وأحياناً بما يجريه الله على أيدى بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه فى قصة سارية بن زُنَيْم قال ابن حجر : إن سارية له صحبة[٢].

وقد روى هذه الحادثة ابن جرير الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ٢٣ هـ عن فتح (فسا وداوا بجرد) وقال : وكان عمر رأى المسلمين فى المنام وأنهم

---

(١) متفق عليه ، انظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى (٢ / ٥٢٠) ، ومسلم (٢ / ٦٦١٧) .
(٢) الإصابة لابن حجر (٣٣ / ٥ – ٧) .

بصحراء وأن العدو سيحيط بهم إن أقاموا بها، فنادى فى الناس الصلاة جامعة فأخبر الناس بما رأى ثم نادى : (يا سارية الجبل الجبل) وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم فما كان من سارية إلا أن أجمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل ففتح الله لهم وهزم عدوهم (١) .

وقال ابن كثير : إنها رويت بإسناد جيد حسن (٢) .

وكما فى كتابة البطاقة إلى نهر النيل (٣) عندما توقف فيضان الماء وكان له سنة عند القبط وهى تقديم جارية بكر (عروس النيل) تلقى فيه فيجرى .

ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو بن العاص : إن هذا الأمر لا يكون فى الإسلام ؛ لأنه يهدم ما قبله ، وكتب الخبر إلى عمر بن الخطاب فقال فى هذه البطاقة : (من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر) .

أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجرى ، وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فلما ألقاها عمرو فاض النيل ستةعشر ذراعاً فى ليلة واحدة .

وكما حدث لعقبة بن نافع الفهرى الذى بنى مدينة القيروان، روى ابن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب قال: حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد أن عقبة بن نافع غزا إفريقية ، فأتى وادى القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادى ، فقال : ياأهل الوادى اظعنوا فإنا نازلون ، قال ذلك ثلاث مرات ، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة ، وهم قيام ينظرون إليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيئاً ، فنزلوا الوادى عند ذلك (٤) .

وكما حدث فى خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم وجمالهم

---

(١) الطبرى (٤ / ١٧٨) . (٢) ابن كثير : البداية والنهاية (٧ / ١٣١) .

(٣) مناقب عمر بن الخطاب : لابن الجوزى (ص ١٧٣) ، وابن كثير : البداية والنهاية (٧ / ١٠٠) .

(٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب (ص ٢٦٥) ، وتاريخ خليفة بن خياط (ص ٢١٠) .

وأرجلهم بقيادة العلاء بن الحضرمي وكأنهم يمشون على الرمل فلم يغرق لهم دابة ولا إنسان وقد سجل الشاعر عفيف بن المنذر [١] هذا الحدث بقوله :

ألم تـر أن الله ذلل بحـره ... وأنزل بالكفـار الجلائـل
دعونا الذى شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل [٢]

وأيضاً حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد بن أبى وقاص نهر دجلة وهى ترمى بالزبد مسودة من كثرة الماء وعمقه .

ودخلوا النهر أفواجاً حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم وخرجوا منه أفواجاً ولم يغرق منهم أحد [٣].

فالذى لا يؤمن بالغيب وأن لله جنوداً كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث ولا فهمها الفهم الصحيح ، بل تراه إذا جاءه خبر من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية أو يتعسف فى تأويله ليخرجه عن دلالته المقصودة ، وذلك تهرباً من إثبات المعجزات للأنبياء عليهم السلام والكرامات للمؤمنين الصالحين ، وهؤلاء أصحاب المدرسة العقلية [٤] الذين أقاموا العقل مقام النص الشرعى ، بل جعلوا العقل حاكماً على النص فيأولون النص ليوافق عقولهم ، وقد تلقف المستشرقون فى العصر الحديث أفكار هذه المدرسة ونشروها وعظموا من شأنها لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات ، وقد جاراهم فى هذا كثير من الكتاب المسلمين فى ظل ظروف وتأثيرات معينة حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامى من أمثال الأفغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وجدى ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وحسين هيكل .

فضلاً عن الكتاب(الليبراليين) الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء

---

(١) الإصابة لا بن حجر (٥ / ١٣٠) .
(٢) تاريخ الرسل والملوك ، لابن جرير (٣ / ٣١٠) ، البداية والنهاية (٦٦ / ٣٢٩) .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية (٧ / ٦٤ - ٦٦) .
(٤) منهج كتابة التاريخ الإسلامى (٢٠٦).

بعثاتهم إلى الدول الأوروبية فلم يعد الإسلام فى حسهم إلا مجرد تراث حضارى أو تعبد شخصى لا علاقة له بحياة الناس ولا علمهم ولا أنظمتهم ولذلك لم يراعوا الالتزام به فى دراساتهم وأبحاثهم .

بل لقد أثار الكثير منهم شبهات وافتراءات لا أساس لها فى الفكر الإسلامى الصحيح ، وهذه الطائفة (الليبراليون) كان لهم دور فى إدارة وتوجيه التعليم فى العالم الإسلامى ورسم خططه ومناهجه ، وقلدوا فى ذلك المناهج والدراسات العلمانية فى العالم الأوروبى غربية وشرقية ، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر (مع الأسف) فى التأليف عن التاريخ الإسلامى وصياغته بما يتناسب مع الأفكار العلمانية والقومية والاشتراكية والماركسية حتى يوجد لها سنداً تاريخيًّا .

لذلك لا تخلو مؤلفات مثل هؤلاء سواء فى السيرة النبوية أو صدر الإسلام أو العصور الإسلامية المتأخرة من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة ، فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين فكيف يكون الحال بالدراسات التى أصدرها أعداء الإسلام من طوائف الكفر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامى ؟ إننا مهما افترضنا فيهم من نزاهة علمية وهى غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه، فإن هناك عنصراً مفقوداً وهو توفر الإيمان بالغيب وهو عنصر بالغ الأهمية فى تفسير التاريخ الإسلامى (١) .

✤✤✤✤✤

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامى (٢٠٨).

المبحث الخامس
معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة ،تعرف لذوى القدر منزلتهم ولذوى الفضل فضلهم، فتعطى كلاً حقه بالقسط والعدل ،وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر التى كلما جاءت أمة لعنت أختها، وكلما جاء جيل إما أن يجعل المسؤولية على الجيل السابق ويتابعه على غير هدى ولا بصيرة ، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة : ١٧٠) وقال تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٣) أو يحط من قدر الجيل السابق ، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادى لم يحصل لذلك الجيل . والموقف فى كلا الأمرين ظلم للجيل السابق وإن بدا فى الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم ، لأنه تقدير فى غير محله ، وعلى غير مستند من الحق والعدل .

أما هذه الأمة الإسلامية التى شرفت بحمل رسالة الله تعالى ، وببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فإن الله قد رسم منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر : ١٠) .

لذلك لا بد من معرفة حق أصحاب رسول الله وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولى فى تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية دون غلو أو تفريط، فإن الذى أعطاهم هذا التميز والمنزلة النصوص الشرعية إذ ليس الأمر اجتهاداً منا أو افتراء على الحق فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض دون مستند من الشرع حكماً شرعيًا لقوله ﷺ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » [(١)] .

(١) رواه مسلم رقم (١٧١٨) .

المبحث السادس
التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام

وهذه القاعدة جليلة عظيمة ، فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهماً فى علم الشريعة يعرف أن البشر يخطئون مهما كانوا محسوبين على الإسلام ، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقى من مصدرها الحق- الكتاب والسنة - لا من عمل الناس وسيرتهم- ما لم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع - ولا حجة فى عمل أحد ولا قوله إذا كان مخالفاً لنصوص الشرع ولهذا قال الإمام مالك :(ليس أحد بعد النبى ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبى ﷺ) وكثير من الناس يخطئ فى هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث فى التاريخ الإسلامى هو تطبيق لمبادئ الإسلام أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التى قام بها المسلمون فى ظل الحكم الإسلامى، واعتبر ذلك الحدث حجة أو مسوغاً للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت فى المجتمع الإسلامى ، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية ، أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ فى المفهوم الإسلامى كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله .

ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعاً من الأفعال والتنظيمات هى مناقضة تماماً للأحكام الشرعية دون أن يوضحوا أن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهى الشرعية .

والأمثلة على ذلك كثيرة مثل ما يكتبون عن فن بناء القباب على القبور ، ويعرضون كثيراً من المخالفات الشرعية على كونها تقدماً حضاريًا ، ومن نتائج الحضارة الإسلامية ويفاخرون بها غيرهم ، وهذا فى الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام ، والمفترض فى الباحث أن يصطحب قيم الإسلام وموازينه ، لأن البشر يخطئون ويصيبون ، ويستقيمون على الطريقة فترة وينحرفون فترات ، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعى ، أما أحكام الإسلام وموازينه فهى ثابتة لا

تتبدل ولا تتغير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام : ١١٥) .

والذى ينبغى التنبه له أنه فى مجال إصدار الأحكام التاريخية على الأشخاص والأحداث أن لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين فى الحدث التاريخى الذى نعالجه مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب ، على حساب تشويه المنهج الإسلامى وهذا لا يعنى أننا نسىء الأدب ولا نلتمس العذر لمن كان له عذر ؛ بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب .

وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير ، والمحذور هو التعصب وتبرير والخطأ وإظهاره بمظهر الصواب (لأن تبرئة الأشخاص لا تساوى تشويه المنهج) [١] .

فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر ، وصيانته أولى وأحرى ، فالحق لا يعرف بالرجال ولا بكثرة من قاله إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة ، فالجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [٢] والمنهج لا بد أن يبقى مصوناً ومحافظاً عليه من التشويه والتحريف .

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن (١ / ٥٣٣) .

(٢) انظر : إغاثة اللهفان (١ / ٧٠) .

المبحث السابع
الإيمان بالسنن الربانية

دراسة التاريخ بوعى وإدراك تساعد الدارس على معرفة السنن الربانية وتكشفها له مما يجعله يستفيد من دراسته ، ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السنن . وسبق أن ذكرنا أن من ثمرات دراسة التاريخ : التعرف على السنن الربانية، والذى يهمنا فى هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي وذلك أن لله سبحانه وتعالى سنناً ثابتة فى حركة الإنسان فى هذا الكون، وهذه السنن كما عرّفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر، والعدل والظلم، وقضايا السلوك الاجتماعى والأخلاقى للمجتمعات البشرية ، والذى يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم، فهو الذى عرفنا بالخير وبالشر وحدد دلالة ذلك ، وعرفنا الإيمان بالله وبالشرك وبالحق وبالباطل والعدل والظلم ، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان : ١٣) .

وإن الظالم لا بد أن ينال جزاءه ، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليلاً على محبة الله له وإنما يكون من باب الاستدراج قال تعالى : ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(آل عمران : ١٧٨) ، وقال تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾(الطارق : ١٧) ثم العاقبة ستكون للمؤمنين ، وأن ما يصيبهم فى الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص وهذا سنة من السنن الربانية .

قال تعالى : ﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (العنكبوت : ١ – ٢) .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن

قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة : ٢١٤) .

وإن النصر الحقيقى لا يكون إلا من عند الله : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران : ١٢٦) وأنه للمؤمنين متى وفوا بشرط الإيمان ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم : ٤٧) وقال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (المجادلة : ٢١) ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (غافر : ١٥) . وإن الأيام دول بين الناس قال تعالى : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٠) وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٦) .

وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلي مدارك الهلاك وضنك الحياة المادية منها والنفسي قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه : ١٢٤) .

وما أشارت إليه الآيات من معيشة الضنك فى الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله ، واقع ملموس مشاهد ، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكًا ماديًّا فى رزقهم أو ضنكًا نفسيًّا شعوريًّا ، أو همًّا وقلقًا ؛ لأن المعاصي تكون شؤمًا على أصحابها وفسادًا في الأرض قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم : ٤١) وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد « وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه »(١) .

وإن الجهاد سنة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ

---

(١) المسند (٥ / ٢٧٧) ، وابن ماجه (٢ / ١٣٣٤) .

اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) . فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال .

فهذه أمثلة من السنن الربانية التى ذكرها القرآن ، ولا يدركها إلا من قرأ القرآن وآمن به وصدقه ، ثم إذا بحث الإنسان فى الواقع التاريخى للحياة البشرية يجد مصداق ذلك فيزداد إيماناً على إيمانه ، ومعرفة وعلما بواقعه التاريخى الحاضر ، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به البشرية من أمراض وانحرافات ، حتى تتفادى الوقوع فى الانحراف عن السنة الربانية وتصيب من خيرها .

وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامى والإيمان بالسنن الربانية فى الكون كما دل عليها القرآن وكشفتها التجارب التاريخية ، وهذه السنن مرتبة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله فى حياة الناس[١] .

---

(١) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامى (ص ٢٣٥) .

الفصل الرابع
قواعد فى المصادر

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أى بحث تاريخى ، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر ؛ لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى ، فلا يغنى فيه الخيار والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية ، كما يفعل الأديب والقاص والشاعر والعالم الفيزيائى .

وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتنى بها غاية الاعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة كدرجة الثبوت والثقة فى المصدر كالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمنى .

فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك، وتقدم رواية من هو ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته ، وهنا مجموعة من القواعد التى يلزم الباحث فى التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامى على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره فى المصادر واستقاء امعلومات التاريخية ونقدها (١) .

---

(١) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامى ، (ص ٢٣٦) .

المبحث الأول
اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل المصادر

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد تكفل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) والقرآن قطعى الثبوت ، آية آية وكلمة كلمة .

ويأتى بعد القرآن فى قوة الثبوت : الحديثُ النبوىُّ الشريف فإن النبى ﷺ كما أخبر الله عنه لا ينطق عن الهوى ، وقد حفظ الصحابة – رضى الله عنهم – أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقريراته وأدوها إلى من بعدهم كما سمعوها .

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمى وأوثقه فى تدوين السنة وفى نقد الرجال والمرويات ، وفى الكتاب والسنة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم ، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية .

كما أنه قد جاء فى الكتاب والسنة إشارات إلى الأحداث المستقبلية سواء كان وقوعها فى الحياة الدنيا أو الآخرة ، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها ومثل أحداث اليوم الآخر ، فقد أخبر ﷺ بما تؤول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق ، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد ، كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدى الساعة ، وهى أشراط الساعة ، التى اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها فى مصنفاتهم بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة .

والذين لا يعتمدون القرآن والسنة فى مصادر دراساتهم وأبحاثهم ، فإنهم يحرمون هذه الفوائد من النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب ، فإنهم لا يستطيعون وصف العلاج

الحقيقى للأمراض الاجتماعية والخلقية التى تصيب المجتمعات فتؤثر فى تطور الأحداث وتوجيهها فإن فاقد الشىء لا يعطيه ، ولا يملك علاج مثل الأمراض والأدواء إلا الشارع الحكيم ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع .

لذا فإنه لابد من اعتماد المصادر الشرعية فى كل دراسة تعالج وضعًا من الأوضاع الاجتماعية وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكيًا واجتماعيًّا وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرات دراسته .

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين :

١ - **الأعتبار الأول** : لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار وذلك لصدق مصدرها ، وعلمه وهيمنته كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمى ، فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب العلم القطعى فى كل آية وكل كلمة بل وكل حرف . وصحيح السنة وصلنا بمنهج علمى دقيق هو أرقى ماتستطيعه الطاقة البشرية .

٢ - **والاعتبار الثانى** : هو لما تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، مما يهيئ للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة فى حركة البشرية وارتباط ذلك بالهدى والضلال والكفر والإيمان سلبًا وإيجاباً ، والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التى على ضوئها تُفَسر أحداث التاريخ ويحكم عليها .

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السنن والروابط التى تربط الأحداث أو ما يسمونه (فلسفة التاريخ) غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة .

فالمسيح فى نظرهم هو ابن الله ، وأنه قدَّم نفسه قرباناً تكفيراً عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم، أما بقية التفاسير للتاريخ فإنها تغفل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام ، وأثر رسالاتهم فى تاريخ البشرية ، ولا تعطى أية أهمية لما جاؤوا به من الهدى والنور والدعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ الشرك والأنداد ، وإقامة الحكم بين الناس بالقسط .

يقول أحد الكتاب المعاصرين مبيناً خطر الدراسات التى لا تعتمد المصادر الشرعية وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها : (المستشرقون سبقوا المسلمين فى دراساتهم ذات الطابع الحديث ، وكانوا أساتذة لكثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق فى الدراسات الإسلامية -هكذا - وطرق البحث فيها .

وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين ، عادوا فكتبوا وتقرأ ما كتبوا فتلمس أن كتاباتهم تجافى روح الإسلام فى كثير من الأحيان ، وسبب ذلك ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية ، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المستشرقين أنفسهم ، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرؤون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلموا للكاتب المسلم ولا يحذرون منه) [١].

فكل دراسة للتاريخ الإسلامى لا تعتمد المصادر الشرعية لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامى؛ لأن التاريخ الإسلامى جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أتيحت الفرصة لعدد غير قليل - **من الذين لم ينقلوا قدراً كافياً من علوم الشريعة** - للكتابة فى التاريخ الإسلامى ، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية وتحمل كثيراً من لوثة الانحراف الفكرى والغزو الثقافى وتمثل الفهم المشوه للشريعة ، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار ، وذلك راجع إلى قلة البضاعة فى الدراسة الشرعية ، وللمنهج الذى تلقوا به دراسة التاريخ

إن الواجب يقضى بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه يجب عليه دراسة القرآن الكريم ، ومعرفة أسباب النزول وأصول التفسير

---

(١) أحمد شلبى التاريخ والحضارة الإسلامية (١/ ٥٨).

وأصول الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية ، وعقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق المخالفة لها لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامى وخاصة فى مجال التحليل والمنظور التاريخى والمنهجية العلمية .

المبحث الثانى
عدم التسليم لكل ما ورد فى الكتب المنزلة قبل القرآن

قال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (النساء : ٤٦) وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) وقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (المائدة : ١٥) . وقال : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ (المائدة : ٤١) فى هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم والواقع يثبت هذا التحريف ، فإن الإناجيل التى بين أيدينا قد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأزمان متطاولة واختلافاتها كثيرة ، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسدة والشرك بالله ، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالى ، فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بهذه الشريعة الخاتمة .

أما أخبارها وقصصها فهى مترددة بين الصواب والخطأ ؛ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » (١) .

---

(١) رواه البخارى ، انظر : فتح البارى (٨ / ١٧٠ و ١٣ / ٣٣٣) .

المبحث الثالث
معرفة شروط المؤرخ المقبول

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية فى ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا فى القليل النادر ، مثل ما جاء مرويًا عن طريق علماء الحديث ، كأخبار السيرة النبوية وخلافة الراشدين ، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة ، إنما غالبها محمول عن الإخباريين منقطع الأسانيد ، ويكثر فيها المجاهيل بل إن بعضهم يروى بدون إسناد ، أو حتى تبيين المصادر التى حمل عنها المؤرخ ، ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامى إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم نجد أنه قد حفظ وخدم ودوِّن فى وثائق ، وتناقله الخلف عن السلف ، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر ، وبالروايات المشهورة ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا فى تفاصيل الحوادث ، وهذا الوضوح التاريخى لا يوجد فى تاريخ أمة من الأمم كما هو فى التاريخ الإسلامى . والشروط المطلوبة فى المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان :

شروط تتعلق به ذاته وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه .

أما الشروط المتعلقة بذاته فهى :

١ – العدالة ، والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من الفسق وخوارم المروءة [١] .

٢ – القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات وذلك بمعرفة الرواة وما قيل فيهم من جرح أو تعديل ، ومعرفة الأصول المنهجية فى النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينها .

٣ – العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها .

٤ – مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التى تختلف .

---

(١) أحمد شاكر : الباعث الحثيث (٩٢) .

٥ – الضبط لما يراه أو يسمعه .

٦ – تجنب الغرض والهوى . وهذا أمر يعز وجوده إلا فى القلة النادرة .

٧ – حسن التصور للموضوع الذى يكتب ، وذلك أن يفهم الموضوع الذى يبحثه فهماً جيداً ويحيط به من كافة جوانبه .

٨ – أن يكون جيد العبارة عفيف اللسان عن المنكر من القول .

وبخصوص الشروط التى تتعلق بما يرويه المؤرخ فقد ذكر السبكى [١] فى طبقات الشافعية قاعدة فى المؤرخين ، وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلى :

١ – اعتماد اللفظ دون المعنى وذلك أن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعنى ، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف فى ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء فى نقد الرواة [٢] وعبر عنها من عند نفسه .

٢ – أن يسمى المؤرخ المصدر الذى نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف .

٣ – أن يكون نقله مضبوطاً .

٤ – زاد السخاوى شرطا آخر وهو (التحرى فيما يراه من الوقائع التى كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة رضى الله عنهم ، لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم ، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة سيما المتخالفين فى المناظرات والمباحثات) [٣] .

وهذا الشرط مهم للغاية ، وعدم مراعاته كان السبب فى وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات فى كتابة التاريخ الإسلامى ، وكان ما دُوِّنَ من مثل هذه الأخبار عونًا للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامى حتى أخفوا معالمه الأساسية ، وأظهروه فى صورة قائمة شوهاء لا تزيد على كونها صراعاً على السلطة وتكالبًا على الشهوات ، وفسروا التاريخ الإسلامى كما يحلو لهم تفسيراً ماديًّا أو قوميًّا أو علمانيًّا .

---

(١) هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى ، ولد سنة (٧٢٧ هـ) جد فى الطلب وتولى التدريس وله مؤلفات كثيرة ، توفى سنة ٧٧١ هـ . انظر : البدر الطالع ، للشوكانى (١ / ٤١٠) .

(٢) انظر : الذهبى : ميزان الاعتدال (٣ / ٥٠٧) فى ترجمة ابن حبان .

(٣) السخاوى : الإعلان بالتوبيخ (٦٤ ، ٦٥).

المبحث الرابع
معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التي تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التي ضلت الطريق ، وفارقت الصراط المستقيم إما بدعوى تأويل غير سائغ ، أو استجابة لشهوة وهوى ، أو عن زندقة وكفر .

وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكي تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٠) في (مقالات الإسلاميين) وأبي الحسين الملطي الشافعي (ت ٣٧٧) في (التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع) ، وأبي محمد بن حزم (ت ٤٥٦) في كتابه (الفصل في الملل والنحل) ومثل أبي الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨) في كتابه (الملل والنحل) .

كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم ، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدون الأخبار وصاغها وفقًا لمعتقده الديني ومذهبه السياسي فأبرز مثالب خصومه وأخفى كثيراً من جهودهم وحسناتهم ، ولأجل هذا فإنه لا بد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على ترجمة مؤلف ما يرجع إليه من المصادر فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسي والمذهبي؛ لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التي يوردها ذلك المؤرخ بما تكون لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى وبما عند الثقات العدول المسلمين .

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية :

١ ـ فما كان متعلقًا بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته فإن علماء أصول الحديث قد قرروا فى كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين (١) :

القسم الأول :فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض الذين يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة ، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعيلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة والحلولية والثنوية ، فهؤلاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة (٢) .

أما القسم الثانى :من المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة ، فمن كان منهم معروفاً بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته ، وهذا شرط فى كل راو مبتدع أو غير مبتدع ، ومن كان مشهوراً بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيداً لبدعته ، واحتجوا لهذا بإخراج البخارى فى صحيحه لعمران بن حطان الخارجى مادح عبد الرحمن بن ملجم – قاتل على بن أبى طالب رضي الله عنه – فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته ، ولكن لما عرف بالورع وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه (٣) .

٢ ـ ما كان متعلقاً بالأخبار عن أهل السنة سواء فى التاريخ العام أم فى التراجم الشخصية لهذا لا ينظر فيه إلى تعصب الراوى من عدمه ، فمن لا حت عليه أمارات التعصب أسقط خبره ؛ لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة كما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلاً فى ذاته فيسبر خبره، ويقارن بغيره من الأخبار وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامى .

---

(١) ذهب إلى ذلك ابن الصلاح والنووى ، والذهبى ، والعراقى ، وابن حجر ، وغيرهم من المتقدمين من علماء الجرح والتعديل مثل محمد بن سيرين ، وعبد الله بن المبارك ، ومالك بن أنس كما فى الكفاية للخطيب (١٩٤) يردون رواية كل مبتدع .

(٢) راجع الذهبى : ميزان الاعتدال (١ / ٤) فى ترجمة أبان بن تغلب فقد فصل فى ذلك وبين بياناً شافياً .

(٣) انظر : الحافظ ابن كثير : اختصار علوم الحديث (١٠٠) ، والسيوطى فى التدريب (١ / ٣٢٤ ، ٣٢٩) .

٣ - والزاوية الثالثة فى النظر هى روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذهبهم وهذا كالإقرار منهم فهو حجة عليهم ، خاصة حكايةأقوالهم ومذاهبهم فهم أعرف ببعضهم بعضاً وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية وكما قيل فى المثل : (من فمك أدينك) .

المبحث الخامس
معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

فإذا كان الموضوع متعلقًا بديننا من شرح أو تفسير ، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية ، أو على علم من علوم الإسلام ، أو نظام من النظم الإسلامية ،أو دراسة لسيرة النبى ﷺ ، فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه ، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم فى هذا المجال ؛ لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شىء من دين الله؛ ولأن من شروط البحث فى هذه القضايا : الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر .

فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط ، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم ؟ إن القول فى الأحكام الشرعية وفى النظم الإسلامية وفى تقدير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة ، أما غيره فلا اعتبار لقوله ولا لخلافه لو خالف .

المبحث السادس
قواعد فى أسلوب العرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التى يعرض بواسطتها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتنى به ، ويراعى المستوى العلمى والوسط الاجتماعى الذى يكتب له، بحيث يكون واضحاً ومؤدياً للأهداف العلمية التى قصدها من بحثه .

وبما أن دراسة التاريخ فى حس المسلم مرتبطة بعقيدته ، والتاريخ أداة من أدواته فى الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته، فإنه يتحتم عليه ملاحظة بعض القواعد فى أسلوب الكتاب وطريقة العرض والتى نوردها فيما يلى :

المطلب الأول
جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسى فى عرضه

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعى للحادثة التاريخية مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت فى مصادرها الصحيحة .

وعليه أن يتابع العقيدة فى الحوادث والوقائع وتوجيهها لها ، وعليه أن يعتنى بعرض النتائج المترتبة على الالتزام بالعقيدة من حصول النصر والتمكين ، وتدفق الخيرات وانتشار الأمن والطمأنينة فى النفوس وانقطاع سبل الفساد ، وإيضاح عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقيدى ، والتقصير فى ذلك ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سبأ : ١٥ – ١٧) .

فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل المثل : (تفرقوا أيدى سبا) وهذه

سنة الله فى كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله .

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى العقيدة وتمسكت بها حصل لها السعادة والتمكين فى الأرض ، وكلما بعدت أصيبت بالأمراض الاجتماعية والخلقية وفشا الظلم والجور وسلط عليها الأعداء.

فالتركيز على محور العقيدة والتذكير بها فى كل مناسبة ، وربط الحوادث بها وبمقتضياتها هو أسلوب القرآن وطريقته فى عرضه لتاريخ الأنبياء عليهم السلام ، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله ، ونبذ الشرك والمشركين، وبيان تناقضهم ويجعل القصص ونتائجها مرتبطة بذلك .

المطلب الثانى
التركيز فى العرض على الأهداف والغايات

المؤمن له فى الحياة هدف وغاية عليا يسعى دائماً لتحقيقها وهى: عبادة الله وحده ، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث فإنه ينظر إلى هذه الدراسة على أنها وسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا ، فلا ينفق كل جهده فى الوسيلة ويترك الغاية ، ولذلك ينبغى أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية فى حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث ، والرؤية الشاملة له ، وعن الاعتبار الذى يترك فى النفس أثراً ، وإنفاق الوقت والجهد فى البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على الباحث بفائدة ليست من هدف المسلم ولا غايته فى الحياة إلا أن يكون البحث فى التفصيلات متعلق به مقصد شرعى فلا بأس حينئذ من البحث عنه ومحاولة إثباته .

وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا فى عدد أصحاب الكهف قال تعالى : ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ (الكهف : ٢٢).

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص من ورائه : أن الناس دائماً يتعلقون بالأمور الجانبية التى لا فائدة ترجى من وراء معرفتها ، ويختلفون فى

ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة ، وهى أخذ العبرة من وراء سياق القصة ، وإنه ليستوى فى أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر ، فالعبرة فى أمرهم حاصلة بالعدد القليل والكثير ، ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية ،فالذى يجب على المسلم التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها فى كل مناسبة (١) .

المطلب الثالث
أن يكون العرض موحيًا بتحبيب الخير وتبغيض الشر

المؤرخ المسلم ليس ناقلاً لما قيل وما حدث فى الزمن الماضى فقط ، إنما هو صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية ، وميزانه فى معرفة الخير والشر ليس عرف الناس ولا ما تواضع عليه أهل زمن أو قررته هيئة من الهيئات أو زعيم من الزعماء إنما ميزانه هو شرع الله ، ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة أو تاريخ شخصية من الشخصيات أو دولة من الدول وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق ، وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر والمراجع ويثبت غاية التثبيت ، ثم عليه أن لا يظهر الباطل بمظهر الحق ، ولا يظهر الخير بمظهر الشر ، إنما يسمى الأشياء بمسمياتها الشرعية فالحق حق مهما كان فاعله ، والباطل باطل مهما كان قائله ، والميزان هو شرع الله فإذا رأى غدرة أو ظلمًا أو إهانة لأحد أو تعديا لحدود الله فإنه لا بد أن ينبه على أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله ، وإذا رأى عدلاً وإحساناً وجهاداً فى سبيل الله وأمراً بالمعروف ونهياً عن النكر أشاد به ومدح صاحبه ليكون قدوة فى هذا الفعل الطيب .

وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته .

---

(١) حول تفسير الآية راجع : ابن كثير (٥ / ١٤٤) ، سيد قطب (٥ / ٢٢٦٥) فى الظلال .

المطلب الرابع
إبراز دور الأنبياء وأثره في تاريخ البشرية

الأنبياء عليهم السلام يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق فى هذا الوجود بما علَّمهم الله وأنبأهم به الوحى ، وقد جاءوا بعقيدة واحدة هى إفراد الله بالعبادة والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله .

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، وهو الدين الذى لا يقبل الله سواه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (آل عمران : ١٩) وقال : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

دور الأنبياء وأتباعهم يمثل فى تاريخ البشرية كله خطًا مستقلاً ومترابطًا بعضه مع بعض من آدم إلى محمد ﷺ ، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف أصولها ، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزبًا واحداً فى مقابل أمة الإسلام، ودعوة الحق وحزب الرحمن وأتباع الرسل والأنبياء ، والتاريخ البشرى كله منذ خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض وكلفه بالخلافة فيها، وأنزل عليه الهدى ، يمثل صراعاً بين الحق والباطل ، وبين أتباع الهدى وأتباع الضلال فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه ، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ أرائهم وأهواء طواغيتهم، وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وينفذوا منهج الله نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار وتفيض فيها الخيرات ، وذلك لأن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون ، قال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ (الأحقاف : ٣) . وقال تعالى : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ (الجن : ١٦) .

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم ــ ولا أظلم من الشرك بالله ــ وتمتلي بالمصائب ، وقد وضَّح

الشيخ أبو الحسن الندوى هذا المعنى فى كتابه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وكذلك الأستاذ / سيد قطب رحمه الله فى كتابه « خصائص التصور الإسلامى » فى فصل : تيه وركام حتى إن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين ، قال تعالى : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾ (الدخان : ٢٩) ، بل إن قطع دابر الظالمين من النعم التى تستوجب شكر الله وحمده : ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنعام : ٤٥) .

وقال ﷺ : « **إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب** » [١] فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا المقت والسخط .

ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذى قام به رسول الله ﷺ وخلفه عليه أتباعه ، وأن يتبع آثاره فى الحياة البشرية فى عمارة الأرض ، وفى أخلاق الناس وفى آدابهم وثقافتهم ونظمهم وفى آثار دعاة الإصلاح وخططهم ، فإن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثراً ، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ١٥١) وقال : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (آل عمران : ١٦٤) وفى آيات سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ** ﴾ (الجمعة : ٢) فهو الذى زكى أخلاقهم وعلمهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون ورفعهم من الضلال المبين – الذى كانوا فيه قبل بعثته – إلى الهدى والنور والصراط المستقيم .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنة (٤ / ٢١٩٧) .

المطلب الخامس
تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية

لقد كان من تأثير الغزو الفكرى الأوروبى للمسلمين: أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم .حتى كادت المصطلحات الإسلامية أن تختفى ، ووقع فى ذلك كثير من الكتَّاب الذين كتبوا فى التاريخ الإسلامى مع أن كثيراً منهم لا يُتَّهمون بدين ولا فى صدق نية ، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلمانى الوافد ، الذى لم يسلم منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية ، فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامى ليس فى مجال التاريخ الإسلامى وحده ، وإنما فى أغلب كتب الثقافة الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نوع له بريق ومعانى مضللة مثل: الوحدة العالمية ، الإخاء الإنسانى ، السعى لخدمة البشرية ، السلام الدولى ، التعاون العالمى ، المساواة ، الحرية ، زمالة الأديان ، التقارب بين المؤمنين بالله فى مواجهة الإلحاد والشيوعية .... إلخ .

تلك العبارات الموهمة غير محدودة الدلالة ، والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنانة ويأخذه بريقها يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعى ويسأل نفسه :ما هى أصول الوحدة التى ندعو إليها بمثل هذه العبارات ؟ وما ركائزها ؟ وعلى أى أساس نقيم هذه الوحدة العالمية ؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة ، على أى منهاج تقام؟ وما هو الميزان الذى يحدد دلالة هذه الألفاظ؟ ، وما ضوابط ذلك ؟ ثم التقارب بين الأديان وهذه الزمالة والتعاون ضد الإلحاد على أى منهج يقوم؟ .

إن هناك منهجاً ربانياً واحداً ومئات من المفاهيم والمناهج الجاهلية ، فهل المقصود إقامة البشرية على المنهج الربانى والعبودية لله وحده وتحكيم شريعته ؟ أم المقصود إقامة خليط من هذه المناهج ذات المفاهيم المتضادة ؟ يجب أن يكون واضحاً . فتصور المسلم وعقيدته أنه لا التقاء بين الحق والباطل ، ولا بين الهدى والضلال، ولا بين الإسلام والكفر ، وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه ، وتعددت

طرقه ، وتباينت درجاته فإنه ملة واحدة ، سواء صدر من نصارى أو من يهود أو من مشركين أو وثنيين أو شيوعيين . وليعلم أن منهج الرسل عليهم السلام فى إقامة الدين الحق لم يقم على شىء من هذا الخليط ، إنما قام على البراء من المشركين وإقامة الحنيفية السمحة ملة الإسلام .

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوروبية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكتاب المسلمين ، وهى ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعى والظروف التاريخية والثقافية التى لبست نشوء هذا المصطلح أو ذاك ، مثال ذلك الديمقراطية ، والاشتراكية ، والدكتاتورية ، والإمبراطورية واليمين والشمال واليسار ، والمحافظين ، والليبرالى ، والإمبريالى والأحرار ، والأرستقراطية ..... إلخ .

فمثلاً :الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل كمرادف أو بديل لمصطلح الشورى فى المفهوم الإسلامى؛ لأن الشورى فى الإسلام مقيدة بالنصوص الشرعية بينما الديمقراطية تعنى فى أبسط معانيها (حكم الشعب للشعب بالشعب) أى أن الشعب هو مصدر التشريع ، وفى مثال آخر: مصطلح الاشتركية لا يمكن أن يكون بديلاً لمعنى التكافل الإسلامى؛ لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقى مع أهداف المذهب الاقتصادى الاشتراكى فى طريق ومنهج .
وقد تابعنا المستعمرين – مع الأسف –حتى فى التوزيع الجغرافى والتوزيع التاريخى الذى استخدموه وتلقينا مصطلحاتهم، وأنه لا ارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا ، فمثلاً فى التوزيع الجغرافى يقولون: الشرق الأدنى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأقصى .

وذلك أن المستعمر الأوروبى اعتبر نفسه فى مركز الأرض فأطلق هذا التوزيع لموقعه ، وكذلك التوزيع التاريخى مثل: العصور القديمة، والعصور الوسطى والعصور الحديثة . وهذا التوزيع مر بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوروبا مما يجعل لكل فترة من هذه الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة تبعاً للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التى عاشتها أوروبا فى كل حقبة من

هذه الحقب ، بينما التاريخ الإسلامى بما فيه تاريخ الأنبياء يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظم السائدة والتى لا تتبدل تبعاً لتبدل الزمان والدول والحكام ؛ لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل ، ولذلك كان القصد من التوزيع إلى عصور لغرض التأليف والدراسة، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوروبى ولا متابعته عليه؛ لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره ، ومما يبعث فى النفس أسى وحسرة : أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة فى التاريخ ينبهرون من تقدمها فيضيفون عليها روح التقدم والحضارة ويثنون عليها ثناءً كثيراً ويفخرون بمنجزاتها وآثارها ، وتجدهم كذلك يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول الكافرة المعاصرة كقولهم : العالم المتحضر ، والعالم المتقدم ، والدول العظمى ، فى حين يسمون البلدان الإسلامية بالبلدان النامية ، والعالم المتخلف ، أو دول العالم الثالث .

وهذا الانبهار والإعجاب لفقدانهم للميزان القرآنى لمعنى التقدم والحضارة ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التى وجدت فى هذه الدول ، ومن نسيانهم للسنة الربانية التى دل عليها قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ** ﴾ (الأنعام : ٤٤) ، ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء والحب فى الله والبغض فى الله أوثق عرى الإيمان .

المطلب السادس
الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء

ومما يلزم ملاحظته فى عرضه : أن لا يستعمل أسلوب التعميم وإنما تكون عباراته محدودة الدلالة ، واضحة المعنى ، وأن لا يطلق حكماً عامًّا على أهل بلد أو على أهل زمان أو على جنس من الأجناس، أو ينفى حدوث واقعة معينة ، قبل حصول الاستقراء التام ، فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه وموقف أهل المدينة من ذلك لا يصح أن نقول : إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته أو رغبوا فى قتله ، أو نقول – كما تقول الطائفة المخذولة من

الروافض: الصحابة أجمعوا على قتله !! وأنى لهم مثل ذلك !!

بل نقول : إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه ، كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة ، ولكنه رضي الله عنه منعهم من ذلك وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار ، لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله ، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله ، وفرح بالشهادة وتأول حديث رسول الله ﷺ فى تبشيره بالجنة على بلوى ستصيبه (١) بهذا الأمر الذى وقع له فى حصار الثوار .

ومثل ذلك : أن نأتى على مجتمع من المجتمعات، أو عصر من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى مائة من الشعراء الماجنين فنقول : إن ذلك عصر مجون وتهتك وخلاعة !! فمن المعروف أن كل مجتمع يحوى عناصر مختلفة من الصالحين والطالحين ، والحكم يكون للغالب منهما ، كما أنه لا يجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف فنقول مثلاً : إن أسرة بنى أمية أسرة ظالمة ، أو نقول : إن فرقة المرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقون؛ لأن كل طائفة لا تخلو من بعض الخيرين أو العوام أو المجتهدين المتأولين ، غير أن الحكم يكون للغالب .

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير (٧ / ١٨١ – ١٨٣) وانظر : فتح البارى شرح صحيح البخارى (٧ / ٥٣٠).

الفصل الخامس
نبذة عن بعض مشاهير مؤرخى المسلمين

المبحث الأول
الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبرى

المطلب الأول : ترجمته

هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملى الطبرى البغدادى [١] ، ولد سنة ٢٢٤ هـ ، حفظ القرآن فى بلدة آمل بطبرستان ثم رحل فى طلب العلم سنة ٢٣٦ هـ ، فلم يزل طالبًا للعلم مولعًا به إلى أن مات[٢] وقد أكثر الترحال ، ولقى نبلاء الرجال ، ثم استقر به المقام فى بغداد حتى توفى سنة ٣١٠ هـ ، وصفه الخطيب البغدادى بقوله : (كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظًا لكتاب الله ، عارفًا بالقراءات، بصيراً بالمعانى ، فقيهاً فى أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها صحيحها سقيمها وناسخها ومنسوخها ، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم)[٣] .

ويقول فيه الناقد الذهبى : (كان من أفراد الدهر علماً وذكاء وكثرة تصانيف قلّ أن ترى العيون مثله)[٤] .

وقال أيضاً : (كان ثقة صادقًا حافظًا رأساً فى التفسير إماماً فى الفقه والإجماع والاختلاف ، علامة فى التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك)[٥] .

وكان رحمه الله عف النفس كريماً ، وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء

---

(١) تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى (٢ / ١٦٢) . (٢) لسان الميزان : لابن حجر (١٠٢) .
(٣) تاريخ بغداد (٢ / ١٦٣) . (٤) سير أعلام النبلاء (١٤ / ٢٦٧) .
(٥) المرجع السابق (١٤ / ٢٧١ – ٢٧٥) .

والوزارء [١] فلم يقبل صلاتهم وهداياهم ولا ما عرضوا عليه من المناصب ، ورضى بالكفاف من العيش ، وزهد فى الدنيا ورغب عنها، وقنع بما كان يرد عليه من حصّة من ضيعة يسيرة خلفها والده بطبرستان [٢] ، وقصر حياته على طلب العلم وكان حصوراً لا يعرف النساء [٣] ؛ لذلك كثرت تصانيفه وطال نفسه فيها فكتابه جامع البيان من أطول التفاسير وأشملها ، حتى قال فى وصفه والثناء عليه أبو حامد الإسفراييني (لو سافر رجل إلى الصين حتى يُحصِّل تفسيرَمحمد ابن جرير لم يكن كثيراً) [٤] .

وكتابه تاريخ الرسل والملوك من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة وكذلك يصف العلماء كتابه (تهذيب الآثار) [٥] بأنه لم يصنف مثله ولا يستطيع أحد ذلك !!

المطلب الثانى : عقيدته

محمد بن جرير الطبرى من كبار علماء الأمة ومجتهديها حسن المذهب والاعتقاد ، ثقة فى علمه ، وقد نقل الذهبى جملاً من كتابه (التبصير فى معالم الدين) لكى يدلل على سلامة عقيدته ثم عقب ذلك بقوله : (تفسير هذا الإمام مشحون فى آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها ، لا على النفى والتأويل أنها لا تشبه صفات المخلوقين أبداً) [٦] .

وقال فى موضع آخر : (كان ابن جرير من رجال الكمال وشُنِّعَ عليه بيسير تشيُّع ، وما رأينا إلا الخير ، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسحَ الرجلين فى الوضوء ولم نر ذلك فى كتبه) [٧] .

وللإمام الطبرى رسالة فى بيان عقيدته [٨] يقرر فيها صحة خلافة الخلفاء الراشدين وأن ترتيبهم فى الفضل هو حسب ترتيبهم فى الخلافة [٩] وهذا هو مذهب أهل السنة .

---

(١) انظر : المرجع السابق (١٤ / ٢٧١ - ٢٧٥) ، ولسان الميزان (٥ / ١٠٢ ، ١٠٣) .
(٢) المرجع السابق : (١٤ / ٢٧٤) . (٣) لسان الميزان (٥ / ١٠٢) .
(٤) المرجع السابق (١٤ / ٢٧٢) . (٥) البداية والنهاية (١١ / ١٤٥) .
(٦) الذهبى - المصدر السابق (١٤ / ٢٨٠) . (٧) المرجع السابق (١٤ / ٢٧٧) .
(٨) طبعت فى بومباى على الحجر سنة ١٣١١ هـ ، وحققها عبد الله بن حميد فى مكة سنة ١٣٩٤ هـ .
(٩) المجموعة العلمية السعودية (٩ ، ١٠) .

المطلب الثالث : منهجه فى الكتابة التاريخية

صنف الإمام أبو جعفر الطبرى كتاباً حافلاً فى التاريخ البشرى وهو من كبار علماء الشريعة وأئمة الفقهاء، متضلعاً فى كثير من العلوم مثل التفسير والقراءات والعربية ومذاهب الفقهاء والسير والأخبار لذلك كان كتابه (تاريخ الرسل والملوك) مبنى على هذه الثقافة الواسعة .

وقد بدأ أبو جعفر كتابه بمقدمة عن الكون - الزمان والليل والنهار والسماوات والأرض والشمس والقمر - وعن إبليس وما كان فيه من نعمة وكيف أنه كفر وأفسد ، وعن خلق آدم وما صار عليه حتى أهبط إلى الأرض [١] .

ثم بدأ بتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وما كان فى عهده وعهد أبنائه من أحداث ، وجعل تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية ، وقد أعطى معلومات واسعة عن التاريخ الفارسى ، وعقد مقابلة بين تاريخ مدة أيامهم وأيام بنى إسرائيل [٢] .

أما تاريخ الروم فلم يذكر منه إلا ما كان له علاقة بأرض النبوات - العراق والشام والجزيرة العربية - فهو يذكر قصة الإسكندر ومن ملك أرض الشام منذ رفع عيسى عليه السلام إلى عهد النبى ﷺ .

أما تاريخ العرب : فقد ذكره مفرقاً من خلال تاريخ الأنبياء مثل هود وصالح عليهما السلام، ومثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومثل سليمان بن داود ، من خلال تاريخ الملوك والجبابرة [٣] من الفرس والروم وأعطى معلومات عن قريش ومن جاورها عند ذكره ولادة رسول الله ﷺ ونشأته حتى بعثته وهجرته .
ومصادر الطبرى فيما ذكر من تاريخ الرسل والملوك والأمم قبل البعثة النبوية هى القرآن الكريم وأقوال علماء التفسير التى يرويها عنهم بالأسانيد وأقوال من سماهم أهل العلم بأخبار الماضين وأمورالأمم السالفين .

---

(١) تاريخ الطبرى (١ / ٩ - ١٢٦) ط : دار المعارف بمصر . (٢) المرجع السابق (١ / ٥٧١) .
(٣) المرجع السابق (١ / ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٦٠٩ ، ٦٣٢) .

وتاريخ الطبرى يمثل قمة التأليف التاريخى عند المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى ، من حيث الشمول الزمانى والمكانى ، وإطالة النفس فى بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبها ، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية ، وذلك بنسبة الأقوال إلى أصحابها مع استقامة النظرة التاريخية، وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة فى دقة وأمانة بعيداً عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية .

ومن مميزات تاريخ الطبرى : أنه رتبه على السنين بحيث يتمكن الباحث من ملاحظة الأطوار التى مرت بها الأمة الإسلامية فى بنائها الحضارى ومعرفة حالات الضعف والقوة التى مرت بها ، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد فى سبيل الله والالتزام بشريعته ، فكلما كانت الأمة ملتزمة بشريعة الله مجاهدة فى سبيله كانت قوية مهيبة ، وكل ما وقع بها الانحراف وصرف الجهاد فى سبيل الله إلى الصراع الداخلى والحفاظ على كراسى الحكم ضعفت وأصابها الهوان .

المطلب الرابع : نظرته للتاريخ

الإمام الطبرى من كبار علماء الإسلام ونظرته للتاريخ - أو ما يسمى اليوم بفلسفة وتعليل الحوادث التاريخية - تنبثق من اعتقاده وتصوره الإيمانى ، فهو مؤمن بالله وبأمره ونهيه ، وبعدله وبقضائه وقدره ، وبأن له سنناً ماضية لا تبديل لها،ومؤمن بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار ، وأنه مكلف بوظيفة العبودية لله والخلافة فى الأرض ، وعمارتها بشرع الله ومنهجه ، وبأن الله يثيب الطائع المستجيب، ويعاقب العاصى الناكث؛ ولذلك كانت أحكامه التاريخية على الحوادث تنبثق من هذه النظرة المؤمنة بالله المتمسكة بشرعه وأحكامه ، كما أن تدوينه لتاريخه على حسب سنى الملوك والرسل - الذين بأيديهم مهمة التوجيه وسلطة التنفيذ - هو من أجل أن يساعد على توضيح العبرة للمعتبرين، ولكى يجلى للبشرية واقعهم الذى كان صفحة وراء صفحة، ويريهم كيفية تحقيق سنن الله عليهم ، ومن نصرة المؤمنين المنفذين لشرعه من الرسل وأتباعهم ، وهلاك الظالمين المحادين لله ولرسوله ، يقول الطبرى فى مقدمة كتابه موضحاً هذه المعانى :

(وأنا ذاكـر فى كـتـابى هذا من ملوك كل زمـان من لـدن ابتـداء ربنا جل جـلاله خلقهم إلى حال فنائهم ، ممن انتهى إلينا خبره ، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه من رسول مرسل، أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف ، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمة فى العاجل نعمًا، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً ، ومن آخر ذلك له منهم وجعله لهم ذخراً، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه من نعمة وعجل له نقمة ومن كفر منهم نعمة فمتعة بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه ، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم فى كتابى هذا بذكر زمانه وجعل ما كان من حوادث الأمور فى عصره وأيامه) [١] .

لقد كرم الله سبحانه وتعالى خلقه بالإسلام؛ حتى يتحرر الناس من هيمنة التصورات الفاسدة ، العقائد المنحرفة والمناهج الباطلة ، والقيم الحقيرة والأخلاق الرديئة، وحتى تنجو البشرية من الفساد والتخبط ومن الظلم والاستبداد .

فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ، ونعمة الله المتحققة به، إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها . . . إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية – السابقة للإسلام واللاحقة – عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة حقيقية ، رحمة للقلب والعقل ورحمة بالحياة والأحياء ، ورحمة بما فيها من جمال وبساطة ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ،وتجاوب ومع الفطرة مباشر عميق [٢] وصدق الله العظيم : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الملك : ٢٢) .

❀❀❀❀❀

---

(١) تاريخ الطبرى (١/ ٦) .

(٢) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته (٣٩) .

المبحث الثانى : خليفة بن خياط

المطلب الأول : ترجمته

هو خليفة بن خياط العُصْفُرى التميمى أبو عمرو البصرى الملقب بشَبَاب . وقد نشأ خليفة فى وسط علمى حيث كان والده من أهل الحديث ؛ إلا أنه اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسيرة وأيام الناس، قال عنه الذهبى – رحمه الله : (حدث عنه البخارى بسبعة أحاديث أو أزيد فى صحيحه) وقال: (كان صدوقًا نسابة عالماً بالسيرة والأيام والرجال ، وثقه بعضهم ، ولينه بعضهم بلا حجة ومات سنة أربعين ومائتين) [١] .

المطلب الثانى : منهجه

كتب ابن خياط كتابين فى التاريخ : أحدهما : فى الطبقات، والآخر: فى التاريخ العام وهو معتبر من رجال الحديث ورواته ، ومعلوم دقة التزامه بالإسناد خاصة فى العصر الذى عاش فيه خليفة ، وقد فرق ابن خياط فى منهجه فى الكتابين ، ففى كتاب الطبقات أهمل الإسناد واكتفى بتقديم قائمة مصادره فى أول الكتاب ، بينما التزم الإسناد فى كتاب التاريخ ، وإن كانت أسانيده ليست كلها من قبيل الصحيح، وإنما فيها إرسال وانقطاع وإعضال، وفى رجاله المجهولون والضعفاء الذين لا يحتج بروايتهم عند أهل الحديث .

وقد ركَّز خليفة بن خياط اهتمامه بعلم الحديث ورغبته فى خدمته ، فنجده يذكر فى نهاية كل سنة وفيات العلماء والمشهورين ، واستعمل الإسناد الجمعى بكثرة ، وأورد معلومات تاريخية بدون إسناد وخاصة قوائم أسماء الموظفين والعاملين فى الإدارة الذين يذكرهم بعد نهاية حكم كل خليفة .

كما أنه قدم معلومات موجزة لكنها وافية عن الفتح الإسلامى فى عصر الراشدين والعصر الأموى ، وهو لا يعنى بالتفصيلات كثيراً ولا يتتبع أسباب الحوادث ولا نتائجها، وإنما يكتفى بعرض الحادثة ذاتها .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٤٧٢ – ٤٧٤) .

ويعد كتاب التاريخ لخليفة بن خياط من أقدم ما وصلنا من الكتب التاريخية المرتبة على النظام الحولي، وعلى الرغم من إيجازه فيه إلا أن القارئ يستطيع من خلاله أن يرصد حركة الأمة الإسلامية والاتجاهات التي سارت فيها ، خاصة نشاط الفتوح والجهاد في سبيل الله وبسالة المجاهد المسلم وحرصه على إدخال الناس في الدين الحق ، وكيف يكون هذا الكيان الكبير والدولة الإسلامية بمجتمعها المترابط ورقعتها الواسعة .

كما أنه لا يخلو من رصد للحركة الفكرية والاتجاهات الدخيلة سواء أكان ذلك إيجابيًّا أو سلبيًّا ، وهو يقدم معلومات موثقة بعبارات موجزة واضحة في دقة وأمانة علمية دون محاباة لأحد أو تأثر بنظرة حزبية ، وكتابته التاريخية بعيدة عن الحشو والمبالغة وعن أسلوب القصص والأيام (١) .

قلت :ومن حق الأجيال القادمة والحاضرة أن تعرف من الذين جاؤوا بهذا الدين العظيم إلى بلادنا جملة وتفصيلاً، وكيف تربوا وما هي دوافعهم الحقيقية في هذا الفتح العظيم ، ولقد لا حظت أن الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية عموماً وفي الشمال الإفريقي خصوصاً أنهم لم يعطوا لقادة الفتح حقهم من التعريف بهم وبيان عقيدتهم ومبادئهم وحضارتهم التي حملوها معهم من جزيرة العرب الصحراء القاحلة قبل الإسلام ، بل وجدت من يحاول تلطيخ القادة وجيوش الفتح الإسلامي ، وجعل لذلك الفتح المبارك دوافع اقتصادية ونزعة توسعية واستعباداً للآخرين، ولم يكن لهم فيما قالوه أدلة ولا براهين ولا حجج قاطعة ، بل حجتهم فيما قالوا أهواء ومتابعة لوحي الشيطان ، حرصوا على إخفاء الحقائق الساطعة والأنوار البهية الواضحة ، والقدوات المباركة من قادة وجنود ودعاة وفقهاء وعلماء ، واجتهدوا في توسيع النقاط السوداء في تاريخنا وجعلوه تاريخاً دموياً ، ونزاعاً سياسيًّا على الملك والسيطرة والزعامة . ونسأل الله العلي الكبير أن يبارك في هذا الجهد المتواضع لتنوير الأجيال وإقامة الحجة على أعوان الشيطان، قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾ (الرعد : ١٧) .

---

(١) راجع : كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي ، للعلياني (٤٣٢ - ٤٣٦) .



الباب الثانى

الشمال الإفريقى قبل الفتح الإسلامى

الباب الثانى
الشمال الإفريقى قبل الفتح الإسلامى

لا يخفى أن من الضرورة بمكان ونحن نتكلم عن تاريخ ليبيا أن نتناول الشمال الإفريقى على الجملة بشىء من التعريف به اسمًا ، وتضاريساً ، وسكاناً ، وديانة بحيث تكتمل صورته فى ذهن القارئ ويتصور أجناس الناس ، وماكانوا عليه من ديانة ، وأوضاعهم السياسية والحربية والاجتماعية تصوراً كاملاً حتى يستطيع استخلاص العبر والدروس من ذلك ؛ لأن الحكم فرع عن تصوره ، وبذلك يتحقق المقصود من كتابة هذا الكتاب .

الفصل الأول : سكـــانه
المبحث الأول : أصل كلمة إفريقيا ومدلولها .

جاء فى كتاب (قادة فتح المغرب العربى) قوله : (أطلق الفنيقيون لفظ أفرى (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (Utlca) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة ، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط ، ومن ثم سميت هذه المنطقة (أفريكا) أى بلاد الأفرى، واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة ، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان فى أفريقية، فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية، والجزء الشرقى من تونس الحالية ، والمنطقة الداخلية التى تمتد حتى (فزان) ، أما بقية إفريقية الرومانية فسمى الجزء المقابل منها للجزائر الحالية : نوميديا ، ويلى ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية ، فإفريقية تشمل كل ما دخل فى طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة ، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ : إفريقية ، فأرادوا به فى أول الأمر كل ما يلى مصر

غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسى وهذا هو مفهوم إفريقية العام الذى يكاد يعادل مفهوم المغرب .

أما مفهوم إفريقية الخاص فهو : يعنى الأجزاء الشرقية من المغرب التى تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية ، أى البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) فى ولاية (قسنطينة) وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب) [١] .

☆ أصل كلمة المغرب ومدلولها :

جاء فى نفس المصدر قوله : (بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل من الأقاليم الواقعة غرب مصر والتى تشمل القارة الإفريقية، وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة ، وطرابلس ، وفزان) ، وتونس ، والجزائر ، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان ، وأخيراً المغرب الذى كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية ، ويمتد طبيعيًّا نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر والمغرب عند الكتاب الأوائل، ويبدأ مما يلى إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط ، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفى إفريقية والمغرب ، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية ، والمغرب الأقصى ، هو بلاد مراكش (المغرب) والمغرب الأوسط هو بلاد الجزائر الحالية ، وخط التقسيم بين المغربين : الأقصى والأوسط هو مجرى وداى ملوية أو ما بين تلمسان و (تازا) أما المغرب الأدنى ، فهو بلاد القيروان أو ما يسمى اليوم بتونس) [٢] .

---

(١) قادة فتح المغرب العربى ، محمود شيت خطاب ، الجزء الأول (١٣ ، ١٤) .

(٢) المرجع السابق (١٤ ، ١٥) .

المبحث الثاني : العنصر البشرى

المطلب الأول : العنصر البربرى

قال صاحب كتاب قادة فتح المغرب العربى : (البربر سكان المغرب الأصليون ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسى ، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ فى الشمال الإفريقى ، ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (Barbari) مع تغيير معناه ، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين .

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة : (بربر) فأوردوا فى ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها إلى قسمين : أولهما : تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً ، لأن لغة القوم فى رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التى لا تفهم ، فقيل لهم : (ما أكثر بربرتكم) ! كما يقال : بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة .أما ثانيهما ، فتفسير كلمة : (البربر) على حسب عادة العرب فى تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم فى علم الأنساب ، إذ قيل : شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين ، وهو برّ بن قيس عيلان ، ولكن ابن حزم يقول عن ذلك : (.... وهذا باطل لا شك فيه ، وما علم النسابون لقيس ابناً اسمه : برأصلاً ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر ، إلا فى تكاذيب مؤرخى اليمن) .

ولم يأت القرن الرابع الهجرى حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية وأصبحت مثل أنساب العرب ، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التى تقسم العرب إلى قسمين كبيرين ينحدران من قحطان وعدنان -نموذجاً - فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرتنس ، والبتر ، وقالوا : إن الجماعة الأولى : أبناء برنس بن بربر ، وإن الجماعة الثانية :أبناء مادغيس بن بربر الذى لقب بالأبتر) [1] .

---

(١) المرجع السابق (١٥ ، ١٦) .

وقال أيضاً عن البرانس: البرانس : من قبائلهم المشهورة عشرة : ازداجة ، مصمودة ، أوربة ، عجيسة ، كتامة ، صنهاجة ، أوريغة ، ويضاف إليهم حسب رأى البعض لمطة ، وهكسورة ، وجزولة (كزولة) .

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة ، فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة ، وقبيلة مكيلة تنحدر من هوارة ، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة (١) .

وقال أيضاً عن البتر : البتر : من قبائلهم المشهورة أربعة : أدسة ونفوسة وضريسة ونبولوا الأكبر ، وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة ، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نفزاوة ولواته ، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (وطاطة) وينحدر من (وطاطة) قبيلة (تيرغاش) ومن (تيرغاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة) .. إلخ (٢) .

والذى يلاحظ أنه رغم انقسام البربر إلى : برانس وبتر وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة فإن القرابة موجودة بين الجماعتين ، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما ، فالنسابون يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة فى البرانس ، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم) وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواوة التى تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية .

وابن خلدون يحذو حذو من ينفى انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم والحق أن للنسابين العرب والبربر العذر فى جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية ، بل وفى إلحاق البربر بالأصل العربى فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العرب والبربر ، وهذا أمر وليد البيئة؛ لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب على أهلها الطابع الصحراوى، وهى أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة فى الاجتماع والعمران؛ لذلك ينقسم البربر إلى طائفتين متباينتين ، وهما طائفة البربر لحضر (سكان المدر أى البيوت) وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أى سكان الخيام) ، وسكان الحضر منهم

---

(١) المرجع السابق (١٦) . (٢) المرجع السابق (١٦ ، ١٧) .

يسكنون النواحى الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة ، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحارى والواحات التى تلى ذلك جنوباً وشرقاً .

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية ، إذ إن البربر المستقرين ينزلون النواحى الخصبة بجبال(أوراس) أى جنوب وسط الجزائر الحالية ، وجنوب المغرب ، وبعض أجزاء تونس الغربية ، وطبيعى أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين ، واللاتين ، وحضارات البحر الأبيض المتوسط ، فاشتغلوا بالزراعة والصناعة ، وظهر فيهم نفر أخذوا بأسباب الحضارة اللاتينية مثل(يوبا) أمير(نوميديا) الذى درس وتربى فى روما ،(ويوجرتا) عدو الرومان اللدود ، و (ماكسن) الذى لعب دوراً سياسيًّا هاماً فى الحرب ما بين روما وقرطاجنة .

أما البربر الظواعن ، فهم بدو يعيشون على الرعى ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحى العمران ، فكان هذا الاختلاف فى الأحوال الاجتماعية ، سبباً فى نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين ، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم ، فاضطر هؤلا ء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من شرهم ، والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين ، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلى واضح ،وكان له أبعد الأثر فى مستقبل البلاد السياسى ، إذ حال دون اتحاد أهلها ، وسهل غزوها ومكن الفاتح(الفتح لا يكون إلا بدعوة الحق) الأجنبى من أن يستعين بفريق على فريق ، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكائف متناسق . أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى ، فاستعانوا بفريق على فريق، فأمكنهم ذلك من البلاد ، وثبت قدمهم فيها ، أما البييزنطيون ، فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال ، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً . (١) .

---

(١) المرجع السابق (١٨) .

المطلب الثانى : العنصر الإفريقى

تطلق كلمة - الأفارقة - فى بعض الكتب ويراد بها العنصر ذى البشرة السوداء على سكان القارة الإفريقية الأصليين ، بيد أن فى بعض الكتب المعاصرة إذا ما أطلقت هذه الكلمة يراد بها سكان القارة الإفريقية بحدودها الجغرافية الحالية ، وتشمل ذوى البشرة السوداء والبيضاء كسكان الشمال الإفريقى (المغرب العربى) .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب فى تعريفه للعنصر الإفريقى : (مع أن هذه التسمية نسبة إلى إفريقية ، إلا أنه يفهم أن الأفارقة فختلفون عن البربر والروم .

وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة دخلوا فى خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا فى المسيحية . ورغم أن كثيراً من هؤلاء الأفارقة دخلوا فى الإسلام ، فإن الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية ، أو لهجة محلية) (١) .

المطلب الثالث : العنصر اليهودى

لا يخفى أن تواجد هذا العنصر فى العصور الأولى كان ضئيلاً جدًّا ، وسبب تواجده فى منطقة الشمال الإفريقى كان لعدة أسباب منها : سبب سياسى : وهو حب السيطرة وتوسع نفوذهم فى أرجاء المعمورة . وسبب اقتصادى : حيث كان الشمال الإفريقى ينعم بخيرات البر والبحر . كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كانت وراء مجىء العنصر اليهودى للمنطقة ، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة عن طريق الفنيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب أيام الرومان .

يقرر ذلك الأستاذ محمود شيت خطاب بقوله : (وجد العرب - المسلمون أيام الفتح جماعات من يهود فى إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من يهود إلى المغرب على أيام الرومان ، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر) (٢) .

---

(١) المرجع السابق (جـ ١ / ١٨) . (٢) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠) .

المطلب الرابع : العنصر السودانى

إن كلمة السودان إذا ما أطلقت يراد بها سكان ما وراء البحر الأحمر من القارة الإفريقية ، جنوب المغرب العربى ، ويدخل فى ذلك دخولاً أوليًّا السودان ، وأثيوبيا ، وأرتيريا ، والصومال ، وجبيوتى . حيث يعتبر سبب تواجد هذا العنصر فى الشمال الإفريقى سببًا طبيعيًّا ، لأن أراضى الشمال والجنوب مترابطة ترابطاً إلى أبعد الحدود ، لدرجة تسهل بينهما عملية التنقل والتجارة والإقامة والتزاوج . لذلك تجد فى سكان الشمال الإفريقى ذوى الألوان السوداء الإفريقية .

يقول الأستاذ محمود بهذا الصدد : (إن بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية ، ونلاحظ أن كتّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب ، والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة وصل بين المغرب والسودان فكان من الطبيعى أن تكون بالتالى منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود) (١) .

المطلب الخامس : العنصر الرومى والفرنجى

يقصد بهذا العنصر : العنصر الأوروبى ، خاصة سكان فرنسا ومن حولها ، أصحاب الوجوه الحمراء ، والشعور الصفراء ، والعيون الزرقاء ، فتواجد هذا العنصر فى الشمال الإفريقى كان طبيعيًّا حيث إنهم – الروم والفرنج – حكموا هذا الإقليم ،وأقيمت لهم إمبراطوريات لفترة من الزمان لا يستهان بها ؛ لذلك حدث الاختلاط بينهم وبين سكان الشمال الإفريقى بصور عدة منها : التزاوج ، والإقامة الدائمة حيث بقى منهم فى الشمال الإفريقى بصورة دائمة ، لذلك تجد فى بعض سكان الشمال الإفريقى الشبه الأوروبى من ناحية الملامح الظاهرة واضحة جداً .

يقول الأستاذ شيت فى ذلك : (رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠) .

– البيزنط – لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما ، إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر حقيقة ، وأنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين ، إلا أن الامتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف أو الجوار فى الخدمة العسكرية، فى بعض الأحيان ، وفيما بين الحكم الرومانى والحكم البيزنطى وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى، ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة وأنهم لجؤوا إلى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل ، ومن الطبيعى أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر، والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر ، بدلاً من القول : بأن النموذج للرجل البربرى هو الرجل الأشقر وكلمة الفرنج ، يقصد بها الفرنسيس ، قال ابن خلدون : (وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة ، وتسميها العامة بالإفرنسيس ، نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة . . . إلخ) [١] .

❀❀❀❀❀

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠) .

الفصل الثانى : ديانتـــــــه

المبحث الأول : الديانة المجوسية

والديانة المجوسية تدور على قاعدتين اثنتين كما هى مقررة عند أصحاب هذا المعتقد : إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية : بيان سبب خلاص النور من الظلمة ، وجعلوا الامتزاج مبدأ ، والخلاص معاداً ، وكانت هذه الديانة الوثنية أكثر انتشاراً فى بلاد الهند والعجم من الرومان والفرنجة ، أما تواجدها فى فترة من الزمان قبل ظهور اليهودية والمسيحية فى الشمال الإفريقى نظراً لعدّم وجود دين سماوى فى تلك الفترة ثم تواجد الرومان المجوس وغيرهم فى المنطقة ، مع تأثر أهل البلاد بمن غلب عليهم ومسك بزمام أمرهم .

يقول الأستاذ محمود شيت عن ديانة سكان الشمال الإفريقى : (كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية) [١] .

المبحث الثانى : الديانة اليهودية

إن الديانة اليهودية هى ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام والمعروفين بالأسباط من بنى إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً بالتوراة ، فحرفوها، وأشركوا مع الله غيره فى العبادة ، ونسبوا له الابن تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وقالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا : يد الله مغلولة ، وكفروا بالملائكة والنبيين ،وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام انحرافاً كاملاً ، وكان من مواطن انتشار هذه الديانة المحرفة : بلاد الشام وأوروبا ، أما الشمال الإفريقى فكان نصيبه النذر اليسير ، حيث وصلته هذه الديانة المحرفة عن طريق الفنيقيين على هيئة جماعات صغيرة ضعيفة ، وانتهت بمجرد دخول المسيحية عن طريق الروم الذين أقاموا مملكة وإمبراطورية ضخمة فى الشمال

---

(١) المرجع السابق (١ / ١٩ ، ٢٠) .

الإفريقى استمرت فترة من الزمان لا يستهان بها .

يقول الأستاذ شيت :

(وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود إفريقية ، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين ، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر) [١] .

المبحث الثالث : الديانة المسيحية

إن المسيحية تطلق على الدين المنزل من عند الله على نبيه عيسى عليه السلام وكتابها الإنجيل ، إلا أن أتباعها حرفوا الإنجيل وعقيدته الصحيحة حتى أصبحت عقائدهم خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية ، والفلسفة اليونانية ، والتحريفات اليهودية ، فهم الذين يعتقدون عقيدة التثليث بزعمهم أن الله له ثلاث حالات –الأقانيم – فالإله الأب ، والإله الابن ، والإله الروح القدس. قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (المائدة : ٧٣) وكان لديانة المسيحية حينئذ إمبراطورية كبيرة فى روما ومصر استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من الأراضى ، فكان من بين تلك الأراضى أرض شمال إفريقية ، حيث وجدت النصرانية إليها سبيلاً عن طريق الكنائس ورهبانها الذين قاموا بإجراء اتصالات مكثفة مع أهالى الشمال الإفريقى ، فحققوا نجاحاً عجز عن تحقيقه حكام البلاد وقادة الجند ، إلا أن انتشارها كان محصوراً فى المدن التى أقاموا فيها فيما بعد ، أما بالنسبة لا نتشارها فى مناطق البدو فكان محدوداً للغاية .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد : (دخلت المسيحية المحرفة إلى المغرب عن طريق مصر ، وعن طريق الروم ، خلال القرن الثانى الميلادى ،

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٩ ، ٢٠) .

فاعتنقها كثير من البربر ، وانتشر الرهبان بين البربر ، فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان فى العصر الرومانى (١٤٦ إلى ٤٣٥ ق . م) ، وبين الأهلين ، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم ، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد) (١).

ولكن لما أحست الإمبراطورية الرومانية بجدوى أعمال الكنائس واتصالات الرهبان بالأهالى، قامت باتخاذ إجراءات لازمة نحو الحفاظ على وحدتها السياسيةإلا أن الأيام الإمبراطور (دسيوس) الذى طلب من جميع رعاياه البراءة من الديانة المسيحية المانوية ، وحث رعاياه بإعلان تمسكهم بالديانة الوثنية المتمثلة فى عبادة الأباطرة وآلهة روما الوثنية !! ومن هنا كانت بداية نهاية الديانة المسيحية عند البعض وبلعن بعضهم البعض ، حينذاك وجد سكان الشمال الإفريقى فرصة للتمرد على الإمبراطورية الرومانية ، وأعلنوه ثورة سياسية دينية ضد الرومان .

يقول الأستاذ خطاب بهذا الصدد حينئذ : (رفع البربر علم الثورة على الرومان ثورة سياسية فى الواقع دينية فى الظاهر ، وعبثًا حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الوندال وعلى الدوناتية ، ولم يلبث الوندال أن قبلوا خلفاء للرومان على إفريقية فأنشئوا يضطهدون الدوناتنيين وأعداءهم معاً ، وفرضوا على الناس مذهبهم الآريوسى - الذى يقول بطبيعة المسيح البشرية - واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها ، وبهذا تفرق المسيحيين فى إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزباً، فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون ، وضعف أثرها فى الداخل) (٢).

وهكذا كانت بداية الصراع ونهايته، إلا أن هناك نقطة جديرة بالذكر فى هذا المقام ، وهى عندما اضطربت الأمور ، وارتد الناس عن النصرانية ، وانتشرت المذاهب المتباينة بين سكان الشمال الإفريقى قام القائد جوستنيان بإحياء فكرة

---

(١) المرجع السابق (١ / ٣٩ ، ٤٠) .
(٢) المرجع السابق (١/ ٤١) .

النصرانية من جديد، عن طريق إعادة بناء الكنائس وترميمها ، وإرسال الدعاة إلى القبائل البربرية لنشر الفكرة النصرانية المنحرفة ، وتقوية الروابط الدينية بينهم .

يقول الأستاذ خطاب في ذلك : (اهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة المسيحية إلى إفريقية ، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها ، وشجع البعثات التبشيرية ، فأخذت المسيحية تنشط من جديد ، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف حول تلمسان) [١] .

ولكن دور الكنيسة الإفريقية في العصر البيزنطي ونشاطها النصراني انتهى بمجرد تلبس بعض قساوستها بالمعاصي والذنوب ، وتدهور أخلاق القائمين على هذه الدعوة ، مع وجود عامل آخر لا يقل أهمية عن الذي قبله ، وهو خصومة المذهب الدوناتي الحادة للكنيسة ، مما جل الناس يفرون من ظلم الكنيسة وطقوسها !!

وفي هذه الفترة الحرجة نشطت الكنيسة الغربية وأخذت على عاتقها أمر العباد والبلاد ، وكان ذلك بزعامة وقيادة جريجوري الأكبر ، الذي انتهز الفرصة في تفرق أمر المسيحية في إفريقية ، ليتدخل في شئون إفريقية عن طريق الكنيسة الإفريقية من خلال قساوسته ومن ثم السيطرة على زمام أمورة البلاد والعباد .

جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) بهذا الصدد : (بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد ، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنيسي ، واقترف القساوسة ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد ، وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة ، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد ، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون ، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين .

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤١) .

كانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة علمية عظيمة فى ذلك الزمن بفضل جهود جويجورى الأكبر ، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة، فوجد جريجورى فى تفرق أمر المسيحية فى إفريقية فرصة طيبة يتدخل ببها فى شؤون كنيسة إفريقية؛ ليكسب رعاياهم إلى صفه ، فاستعان بقساوسة ذوى قدرة وشهرة فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجورى يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد ، وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص فى نشره ، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف) [١].

وفى أواخر العصر البيزنطى بعد موت هرقل الكبير سنة (٦١٠ م)وخلفه أخوه جريجوريوس كانت حينذاك الانقسامات الدينية قد اشتدت فى إمبراطورية البيزنط ، فأراد هرقل أن يجنب بلاده تلك الفوضى الفكرية، فطلب من رجال الدين فى دولته أن يصدروا مذهباً وسطاً يرضى كل الطوائف الدينية !! فكان صدى هذا المذهب فى أوساط دولته أن أثار سخطهم جميعاً حتى أصر أساقفتهم ورهبانهم على بقائهم على مذاهبهم القديمة ، بل وصل الأمر بهم إلى إعداد العدة لمواجهة الدولة ، ولكن هرقل عاجلته المنية فمات وتولى بعده قسطنطين الثالث – الذى كان يعتنق المذهب الأرثوذكسى . فأذاق الرهبان الرافضين العودة إلى أحضان الكنيسة سوء العذاب .

يقول الأستاذ محمود شيت مصوراً تلك الحقبة من الزمان :

« فى ذلك الحين ، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت فى بيزنطة وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه ، وكان الروم وقد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً ، تتصارع وتحترب ، وتهبط بالدولة إلى درك عميق ، وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى ، فأخذ يتصل بكبار رجال الدين فى دولته يستطلع رأيهم ، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها ، فلم يكد المجلس الدينى الذى عقده فى سنة (٦٣١م)يصدر

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤٢) .

المذهب الجديد ، حتى ثار الناس كلهم عليه ، وأنكروه جميعاً ... فلم يجد هرقل بدأً من أن يصطنع الشدة فى إرغام الناس على اتباعه ، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً ، وشقى به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد « قيرس » الذى ندبه هرقل لتطبيق هذا المذهب فى مصر » (١) .

وقال أيضاً : « ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية ، وكان عدواً للمذهب الذى ابتدعه هرقل ، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل إلى علمه، حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة إلى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجية ، وبهذا انقلب الحال ، ونزل الاضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم » (٢) .

وهكذا أصبحت حالة المسيحية فى الشمال الإفريقى مذاهب شتى ، وجماعات منشقة ، وأفكار غثى ، وصراعات حادة بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية ، والرومانية الكاثولكية ، التى كانت عاملاً أساسيا فى انقراض النصرانية ، حيث ساعدت هذه العوامل أهالى المنطقة أن يقفوا ضدها ويتمردوا عليها ، وأن يبحثوا عن بديل يلبى فطرتهم التى ركزها الله عز وجل فى نفوس كل البشر ، فكانت هذه مقدمة لما بعدها حيث تهيأت نفوسهم لقبول الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، قال تعالى :﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الروم : ٣٠) وقال تعالى :﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤٤ ، ٤٥) .

(٢) أهم المراجع فى الفصلين الماضيين التى رجعت إليها : قادة فتح بلاد المغرب – محمود شيت خطاب، فتح العرب للمغرب ، د . حسين مؤنس ، تاريخ المغرب العربى، لسعد زغلول ، المسالك والممالك لأبى إسحاق الفارسى ، مقدمة ابن خلدون ، جمهرة أنساب العرب، لابن حزم . تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، طاهر الزاوى .

الفصل الثالث : حدوده

يجدر بنا ونحن بصدد ذكر الشمال الإفريقى أن نهتم بتعريف حدوده الجغرافية من وإلى ، بحيث تتضح معالمه الحدودية القديمة والجديدة للقارئ ، ويتصور المنطقة تصوراً صحيحاً شاملاً .

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط فى تعريفه لحد إفريقية بأن : « إفريقية بكسر الهمزة – وهو المشهور – وقيل بفتحها ، والنسبة إليها إفريقى ، وقد اختلف الجغرافيون فى تحديد هذه البلاد على أقوال ، أهمها :

١ – قيل : هى الأرض الواقعة بين برقة وطنجة ، وعلى هذا فهى تشمل المغرب والجزائر ، وتونس ، والجزء الأكبر من ليبيا .

٢ – وقيل : هى ما بين برقة وتاهرت ، أى الجزائر ، وتونس ، والجزء الأكبر من ليبيا .

٣ – وقيل : حدها من طرابلس إلى بجاية ، أى أنها تشمل تونس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا .

٤ – وقيل : إنها بين طرابلس وقسنطينة ، أى : ما يقارب حدود البلاد التونسية حالياً .

٥ – وقيل : هى مدينة القيروان [1] .

لا يخفى أن كل هذه التعريفات تدور حول تحديد المعالم الحدودية لإفريقية ، أما الشمال الإفريقى فمعالمه واضحة حيث إنه يشمل الدول الخمس المعروفة الآن بدول المغرب العربى وهى : ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وموريتانيا .

وينص على ذلك الدكتور سعد زغلول بقوله : « بلاد المغرب مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر ، والتى تشمل القارة الإفريقية ، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان ، وأخيراً والمغرب – الذى كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية – ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر » [2] .

---

(١) انظر : مدرسة الحديث فى القيروان ، من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجرى ، للأستاذ / الحسين بن محمد شواط ، (١ / ٣١ ، ٣٢) .

(٢) تاريخ المغرب العربى من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال ، ص (٦١) .



الباب الثالث

ليبيا قبل الفتح الإسلامي

الباب الثالث
ليبيا قبل الفتح الإسلامى

لقد تحدثنا فى الباب الثانى عن الشمال الإفريقى على الجملة بشىء من الإيجاز ، بيد أننا سوف نتناول فى هذا الباب ليبيا ومعالمها الجغرافية ، وعناهرها البشرية وديانتها الرسمية قبل الفتح الإسلامى بشىء من التفصيل بعدما أجملنا .

الفصل الأول معالم ليبيا
المبحث الأول : أصل التسمية

لقد تقرر فى علم الآثار أن نسبة لفظة « ليبو » أو « لوبيا » أو « ريبوا » كان يطلقها أهل مصر على القبائل التى تسكن غرب وادى النيل ، أما اليونانيون فكانوا يطقون اسم « ليبى » على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين .

ذكر الأستاذ طاهر الزاوى فى تحديد أصل تسمية المنطقة بليبيا :« وقد عدد المقريزى فى خططه كور مصر ، فذكر من كور الجوف الغربى : كورة الإسكندرية، وكورة مريوط ، وكورة لوبيا ومراقية ... وذكر فى تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة ... » ونقل عن القضاعى ما نصه : « الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية ، وفى آخر أرض مراقية تلقى أرض إنطابلس وهى برقة » (١) .

ويقول جون رايت فى ذلك :« لقد وجد فى النقوش المصرية للألف الثانى قبل الميلاد وصف للقبائل التى عاشت فى صحراء غرب وادى النيل بأنها « ليبو » أو « ريبو » وبعد قرون من ذلك الوقت أطلق اليونانيون اسم « ليبى » على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين » (٢) .

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوى ، ص (١٤ ، ١٥) .
(٢) تاريخ ليبيا ، لجون رايت ، ص (١٣) .

وبذلك يتقرر أن اسم ليبيا اسماً رسمياً منذ القدم ، قد أطلقه اليونانيون على مدينة قورين – شحات – ثم بعد ذلك عمم على سكان برقة وطرابلس ، وكل من كان يقطن غرب منطقة النيل إلى بداية إفريقية – تونس الحالية – .

المبحث الثانى : ليبيا فى علم الآثار

إن جزءاً كبيراً من تدوين التاريخ البشرى يعتمد على علم الآثار ومحفوظاته الأثرية والفنية ، والمخطوطات القديمة ، فكان نصيب ليبيا من ذلك العلم النصيب الوافر ، حيث وجدت الآلاف من الصور المنحوتة على الصخور فى أكثر من عشرين موقعاً ، وكانت تحمل فى طياتها الأمور الغريبة والعجيبة عن معالم ليبيا البشرية ، والفنية ، والاجتماعية ، والمناخية ، والطبيعية ، التى تحتاج من أهل الفن أن ينظروا فيها نظرة تأمل، وتدبر حتى يستطيعوا أن يقرؤوا ما بين السطور ، وما تحت الصور ويربطوا الغائب بالشاهد من تاريخ المنطقة .

لقد نص المؤرخ الإنجليزى جون رايت فى كتابه : أنه قد تم العثور على صخور فنية فى ليبيا وعلى : « هذه الصخور الفنية القديمة وجد العلماء آلاف الصور فى أكثر من عشرين موقعاً ، معظمها فى فزان ، وفى زاوية براك ، ومرزق ، وسبها، وجبال تبستى ، وفى موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان ، وفى أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً ، وكان أول من لاحظ أهمية هذه الرسوم الصخرية هو البحاثة الألمانى (هنريش بارت) سنة ١٨٥٠ م ، غير أنها لم تدرس بالتفصيل إلا فى السنوات الثلاثين الماضية ، وبقى الكثير من الرسوم التى تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها .

اعتاد فنانو ما قبل التاريخ رسم الحيوانات التى كانوا يصطادونها على سطح الصخور الناعمة، ورسموا كذلك مناظر لرجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة ، ومما يلفت النظر انقراض واختفاء الحيوانات من ليبيا ، بل من إفريقيا الاستوائية على مسافة مئات الأميال جنوبى ليبيا .

وقد غطى فنانو الصيد القدماء سطوح الصخر الناعمة برسوم واضحة للفيلة

والزرافى ، والتماسيح ، ووحيد القرن ، وفرس النهر والحيوانات الأخرى التى عاشت زمناً فى تلك المنطقة التى أصبحت بعد ذلك من أكبر صحارى العالم ، وليست هذه الصحراء الليبية قديمة للغاية ، فمنذ عشرة آلاف سنة ، كان معظم شمال إفريقية مركزاً مثاليًّا للإنسان البدائى ، بالنسبة للصيد وجمع الطعام ، حيث كانت ترتع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية التى ترعى السافانا والحشائش، ولا بد أن الماء كان متوفراً لأفراس النهر ، وقد وجدت بقايا متحجرة فى أماكن بالصحراء لم يعد فيها نبات هذه الأيام (١) .

المبحث الثالث
حدود ليبيا

إن أبرز معالم حدود ليبيا الجغرافية ثلاث جهات : برقة من الناحية الشرقية وطرابلس من الناحية الغربية ، وفزان من الناحية الجنوبية ، أما جهة شمال البلاد طول ساحلها فهى مطلة على حوض البحر الأبيض المتويط ، حيث يصح القول بأن معالم الحدود الجغرافية لليبيا ابتدأت بحدود غرب مدينة مطروح شرقاً ، وحدود غرب رأس أجدير غرباً ، وحدود جنوب شرق غدامس غرباً ، وحدود جنوب غرب جبل العوينات شرقاً .

---

(١) المرجع السابق ص (١٣ ، ١٤) .

الفصل الثانى
سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامى

المبحث الأول : العنصر البربرى

إن ليبيا تقع على شريط ساحل طويل ممتد إلى أقصى الحدود شرقاً وغرباً مما جعلها محطة البشر على مختلف وأجناسهم ، إلا أن الجنس البربرى يعتبر من أقدم الأجناس التى عاشت فى هذا الساحل الطويل ، وهذا ما قرره صاحب كتاب تاريخ ليبيا .

يقول الأستاذ طاهر الزاوى وهو بصدد حديثه عن سكان ليبيا القدماء : « أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ فى الشمال الإفريقى »(١) .

وكلمة بربر إذا ما أطلقت تشمل كل من يتكلم لغة أو لهجة معقدة لا تفهم إلا عند بنى جنسه ، ويدخل فى هذا الإطلاق أمة اليونان ، وأمة الرومان ، وأمة السودان .

يقول الأستاذ طاهر الزاوى : « وكلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات فى أربعة عهود مختلفة ، فأطلقت فى عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت ، وأطلقت فى عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم ، وأطلقت فى عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما ، وأطلقها العرب فى عهدهم على الأمة التى تسكن الساحل الإفريقى ؛ لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة »(٢) .

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوى ، ص (١٩ ، ٢٠) .

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوى ، ص (١٩ ، ٢٠) .

المبحث الثاني: العنصر القرمنتي

لقد عاش هذا العصر فيما بين (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) فى الصحارى الليبية خاصة فى مدينة فزان ، على رعى المواشى ذات القرون الطويلة ، والتجارة مع دول ما وراء البحر ومصر ، مما جعله يتأثر بالحالة الدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية السائدة حينذاك خاصة مصر ، ويعتبر هذا العنصر أول من قام بنقل الحصان والعربة من مصر إلى ليبيا .

يقول جون رايت بهذا الصدد : « كان لمصر تأثير اقتصادى ، واجتماعى معتبر على قبائل الصحراء البدائية ، ووجدت تجارة نشطة بين وادى النيل والغرب والجنوب الغربى ، حيث يبدو أن الناس كانوا يعتنقون الديانة المصرية القديمة ويزاولون طقوس الدفن ، ثم كان انتقال الحصان إلى ليبيا عن طريق مصر ، وجاءت معه العربة ، بعد سنة ألف قبل الميلاد ، استعملت بعض قبائل ليبيا وهم « القرمنيون » العربة والحصان لغزو قبائل صحراوية أخرى ، ولبناء إمبراطورية فى فزان وحولها ، وفى متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذه العربات .. » ولا يعرف شىء عن أصل القرمنتيين الذين كانوا يرعون المواشى ذات القرون الطويلة فى فزان القديمة ، ويحتمل أن يكونوا قد انتقلوا من الساحل نحو الجنوب ، وربما كانوا هم الذين أحضروا الحصان والعربة من مصر ، وربما أحضروا أيضاً أعمال الحديد لليبيا ، ومع مرور الزمن أصبح القرمنتيون يتحكمون فى طرق التجارة القادمة من ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء إلى إفريقيا الوسطى ، كما سيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد عن ألف عام وكان الفنيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم ، ثم حاربوهم وأصبحوا فيما بعد حلفاء لهم ، وقد استطاع القرمنتيون بعرباتهم وأسلحتهم المتقدمة وتنظيمهم الواضح ، التغلب على قبائل صحراوية أخرى كانت غير منظمة ولا تركب شيئاً فى قتالها ، وتستخدم أسلحة بدائية جداً » [١] .

---

(١) تاريخ ليبيا ، ص (١٦ ، ١٧) .

ولا يخفى أن آثار العنصر القرمنتى ، ومظاهر حضارته ، ومملكته ، لا زالت موجودة حتى وقتنا هذا فى منطقة وادى الأجال من الجهة الجنوبية لليبيا ، والتى تعتبر عاصمة القرمنتيين آنذاك ، حيث مكنهم موقعهم الاستراتيجى أن يتحكموا فى التجارة الواردة والصادرة إلى وسط إفريقية ، ويصبحوا بذلك مركزاً هاماً للنقل والتجارة .

وهذا ما قرره المؤرخ رايت بقوله : « كانت البضائع تنقل من منطقة طرابلس إلى وسط إفريقيا عن طريق ممرين تجاريين عظيمين يلتقيان على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب من غدامس ثم تواصلان السير كطريق واحد إلى نهر النيجر ، وكان لمدن صبراتة، وأدوية، ولبد ة مزية على بقية المدن القرطاجية؛ لأنها تقع إلى الجنوب على مسافة ١٠٠ ميل على الأقل ، وبذلك تكون أقرب مركز إلى أسواق إفريقيا الداخلية وكان المسافرون الذين يريدون اختصار طريق من النيجر إلى البحر المتوسط يسلكون طريقاً تمر بغدامس وصبراتة ، أما القرمنتيون فكانوا يسلكون عدة طرق بالعربات من فزان إلى النيجر ، يحملون بضائع البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا ويرجعون بالذهب والفضة والحديد والأحجار الثمينة ، ويحضرون من الصحراء نفسها منتجاتها ، كريش النعام والتمور وغير ذلك من السلع ، وكان القرطاجنيون يدفعون لرجال القوافل أجورهم من العملة ، ينفقونها فى المدن ، أو من الأطعمة والشراب والملابس ، وكان القرمنتيون يحكمون من عاصمتهم فى جرمة منطقة محدودة من الصحراء ، ولكنهم كتجار يسيطرون على جميع البلاد من الأطلنطى إلى نهر النيل ، ومن حدود السودان إلى سواحل البحر المتوسط » (١) .

---

(١) المرجع السابق (١٦ ، ١٧) .

المبحث الثالث : العنصر الفنيقى

لقد اختلف المؤرخون فى أصل الفنيقيين ، منهم من ذهب إلى أصلهم عربى وينحدرون من أصل سامى كان يسكن فلسطين وسواحل الشام ، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ طاهر الزاوى ، ومنهم من قال : إن أصلهم كنعانى هاجروا إلى الشام، وسكنت أمة منهم اليونان ، وهذا ما نصره الأستاذ محمود شيت خطاب .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى مقرراً ما ذهب إليه : « الفنيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامى شتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية ، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام ، ومن أشهر مدنهم صيدا، وصور ، وطرابلس الشام ، وبيروت ، وكانوا يترددون على الشمال الإفريقى منذ القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، وأنشؤوا على ساحله محطات تجارية كبيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التى تروج فيها ، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى فى شئون حياتهم ، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاؤوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية » (١) .

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب ناصراً ما ذهب إليه : « الفنيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين ، وفى سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين ، وسكنت أمة منهم فى القطر الذى سماه اليونان فينقيا .

وتقع فينقيا فى شواطئ أرض الشام فى المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط ، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً ، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً ، وهى تمتد من جزيرة « أرواد » شمالاً إلى مدينة عكا جنوباً ، وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة : الفنيقيين نسبة إلى الكلمة اليونانية فينكس ، معناها عندهم ، النخل واللون الأحمر ؛ لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر ، وكانوا يصورون النخل على نقودهم وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من « ٣١٧٠ سنة » وأحسنت إلى الإنسانية، ومنها

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ، ص (٣٠).

تعلمت الإنسانية القراءة والكتابة » [١] .

كما وأن تاريخ العنصر الفنيقى من خلال تطوره ينقسم إلى مرحلتين : ومنها مرحلة تأسيس مدينة صيدا سنة (١٥٠٠ – ١٢٠٩ ق.م) والتى كانت آنذاك أعظم مدن الفنيقيين ، ومرحلة تأسيس مدينة صور سنة (١٣٣١ – ١٢٠٩ ق.م) والتى تزعمت فيها مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : **وينقسم تاريخ الفنيقيين إلى عصرين : العصر الأول : عصر صيدا ، والعصر الثانى : عصر صور .**

أولا : عصر صيدا : ويمتد من سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد ، وفى هذا العصر أسس الفنيقيون عدة مدن فى فنيقيا ، وكانت أعظم مدنهم هى مدينة صيدا ، وكانت عاصمتهم ، ولهذا سمى هذا العصر بعصر صيدا ، وقد دامت هذه المدينة نحو (٢٣٠) سنة .

ثانيا ، عصر صور : وهو يمتد من سنة (١٣٣١) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد ، وفى هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية ، وصارت صور من أعظم مدن العالم ، وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذى كان لهم فى العصر الأول فى أقصر وقت ، وقد قوى اتصال أهل صور بأهل الشمال الإفريقى ، وكونوا فى موريتانيا ونوميديا وزوجيتان (**تونس** حالياً) مدناً كثيرة [٢] .

ففى هاتين المرحلتين من مراحل تاريخ الفنيقيين قامت لهم حضارة مدنية تعتبر آنذاك تقدماً عالى المستوى ، يدل على اهتمامهم بجوانب تحصيل العلوم والتقنية وتطوير المهن الحرفية ، والصناعية والحربية ، وتوطيد سرعة الاتصالات العالمية ، ولعل آثارهم الباقية فى صبراته ،ولبدة ، وبعض ضواحى طرابلس تشهد لذلك .

يقو الأستاذ شيت خطاب مشيداً بحضارة الفنيقيين : « قد أجمع المؤرخون على أن الفنيقيين كانوا أول من ركب البحر ، وأول من صنع السفن البحرية ، وكانوا فى تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية ، فكانوا ينظمون

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢) .	(٢) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١١) .

قوافل تسير فى البر إلى الهند ، وبابل ، وآشور ، وبلاد فارس ، لتبيع مصنوعاتهم فى تلك الأقطار ، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب إلى شواطئ البحر ، تعرض المصنوعات الفنيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط ، وصاروا يرسلون إلى شواطئ الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فنيقية تجارية ، لتكون مركز الاتصال بينهم وبين تلك الأمم كما أسسوا فى إقليم طرابلس الغرب مدينة « بزسيوم » وأطلقوا على تلك الجهة كلمة « بزاسين » ومعنى ذلك فى لغتهم : الأرض الكثيرة المياه ، وهم الذين أنشؤوا فى تونس إقليم « زوجيتان » وسموا تلك الجهة بهذا الاسم .

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون ما يشاءون ولا ينازعهم فيه أحد إلى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد ، فى هذا العصر ظهر فى البحر سفن أمم جديدة ، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفنيقيين ، وكان من أعظم هذه الأمم :الإغريق ، التى صارت تحارب سفن الفنيقيين وتضايقهم فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لفنيقيا مستعمرات كثيرة فى البحر الأوسط ، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب ، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفنيقيين بالمغاربة وأحدثوا فى شمال إفريقية مدناً كثيرة [١] .

ويقول فى موضع آخر : « وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذى كان لهم فى العصر الأول فى أقصر وقت ، وقد قوى اتصال أهل صور بأهل إفريقيا وكونوا موريتانيا ، ونوميديا ، وزوجيتان (تونس حالياً) ومدناً كثيرة ،وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التى كانت تسير فى البحر الأبيض المتوسط ، وظل الفنيقيون متمتعين بسيادة البحر الأبيض المتوسط إلى سنة (٣٣١) قبل الميلاد ، ففى هذه السنة احتل الإسكندر المقدونى مدينة صور وخرب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم ، وبهذا الحادث انتهى مجد الفنيقيين وعظمتهم ، وورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيون ، وقد عاش أهل

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٤ - ٢٦) .

صور متمتعين بالعز (٨٧٨) سنة ، وعاشت الأمة الفنيقية أكثر من (٣١٧٠) سنة [١].

سبحان الله ! فقد أصبحت تلك الأمم والحضارات أثراً بعد عين ، وها نحن نسطر فى تاريخها وحضارتها كأن لم تكن ، وهذا كما لا يخفى تحقيق لسنن الله الثابتة ، التى تقرر أن الله سبحانه يمهل الأمم الكافرة ويعطيها شيئاً من التمكين الدنيوى والقوى الظاهرة ، إذا أخذت بالأسباب والسنن الكونية قال تعالى : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء: ٢٠) .

ولكن يأخذها أخذ عزيز مقتدر؛ لكفرها وشرها وتمردها على منهج الله القويم وهكذا كان حال الأمة الفنيقية المشركة الكافرة بربها ، فقد وصلت إلى قمة الحضارة المدنية – كما مرَّ معنا – حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها ، إلا أنها كانت تعبد الأصنام الأحياء منها والأموات ، حتى أصبحت هذه الأوثان والأصنام والهياكل معلمًا من معالم حضارتها !! فكان من أبرز معالم تمردها عن منهج الله وكفرها بخالقها تلك الأصنام المسماة بأصنام هرقل المحيطة بجبل طارق ، والتى كانوا يتقربون إليها بالأضاحى ، والنذور ، والدعاء ، والخوف ، والرجاء !! فلما فعلوا أتاها أمر ربنا فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الفتح : ٢٣) .

المبحث الرابع : العنصر القرطاجنى

إن العنصر القرطاجنى امتداد طبيعى للعنصر الفنيقى ، إذ تعتبر الصلة بينهما بمثابة صلة الأب بابنه ، وكان سبب وصولهم إلى شمال إفريقية اعتناء الأجداد الفنيقيين بإنشاء المدن وتطويرها خاصة فى الشمال الإفريقى ، فقد أسسوا مدينة

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٦) .

قرطاجنة (تونس) سنة (٨٤٠ ق.م) وكان فى عهد الأمير (ديدون) أو (أليسا) حيث قدمت هذه الأميرة وجماعتها ، واستقرت فى قرطاجنة التى كان يبلغ تعداد سكانها حوالى مليون نسمة ، وبذلك أسست أكبر إمبراطورية حينئذ إذ كانت تملك شواطئ الشمال الإفريقى ، وأغلب أراضى إسبانيا ، وأكثر جزائر البحر الأبيض المتوسط ، وكان نظام هذه الإمبراطورية السياسى يدار على نمط النظام الجمهورى المعاصر فى مدنها الثلاث الرئيسية - قرطاجنة إفريقية وهذه أعظمها ، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق ،وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس ، حيث كان هناك مجلساً مكوناً من مائة عضو من أهل الحل والعقد ، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة .

يقول الأستاذ طاهر الزاوى : « وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهورى ، وكان يدير شئون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار ، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة ، وديانتهم الوثنية ، وأكبر آلهتهم بعل » (١).

وبعد ست سنوات من استقرار الإمبراطورية القرطاجنية فى الشمال الإفريقى بدأت الإمبراطورية بإرسال حملات عسكرية على قبائل البربر التى كانت تسكن المنطقة من حدود برقة الشرقية ، إلى ساحل أوروبا الجنوبية حتى جبل طارق الذى كان يسمى آنذاك أعمدة هرقل ، وكان الغرض من هذه الحملات إخضاع هذه القبائل لسلطان الإمبراطورية ونفوذها .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وفى سنة ٤٨٠ ق.م) صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التى كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم ، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبى إلى جبل طارق الذى كان يُسمى إذ ذاك أعمدة هرقل » (٢).

وفى بدايات سنة (٢٦٤ ق.م) قامت صراعات عنيفة بين إمبراطورية الرومان التى كانت تقطن سواحل أوروبا الجنوبية ، وإمبراطورية القرطاجنيين ،

---

(١) قادة الفتح العربى فى ليبيا ، ص (٣١) .
(٢) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٧).

دامت أكثر من مائة عام انتهت بتغلب الإمبراطورية الرومانية على القرطاجنيين ، حيث انتقلت بعد ذلك زعامة الشمال الإفريقي بأسره إلى الإمبراطورية الرومانية الواقعة جنوب أوروبا .

يقول الأستاذ شيت خطاب في ذلك :

« (في سنة ٢٦٤ ق.م) اشتبكت في صراع عنيف مع الرومان دام أكثر من مائة سنة وأخيراً تغلب عليها الرومان سنة (١٤٦ ق.م) وقضوا عليها القضاء النهائي ومحو آثارها من الوجود ، فتحولت زعامة الدنيا من شمال إفريقية إلى جنوب أوروبا » [١] .

وهكذا تحققت فيها سنة الله – سبحانه – في أخذه للأمم الكافرة الظالمة ، التي تبغي في الأرض بغير الحق ، فقد سلط عليهم الرومان فمزقوهم شر ممزق .

قال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (الأنعام : ١٢٩) .

المبحث الخامس : العنصر الروماني

فبعد الحروب الطويلة التي دامت حوالي مائة عام بين الإمبراطورية القرطاجنية والإمبراطورية الرومانية ، ومن هذه الحروب ثلاث حروب هامة ، الأولى كانت سنة (٢٦٤ ق.م) وانتهت بانهزام القوات الرومانية في إفريقية وانهزام القوات القرطاجنية في صقلية ، والثانية : كانت سنة (٢١٨ ق.م) وانتهت سنة ٢٠٢ ق.م والتي انتصر فيها القائد العسكري هنبعل القرطاجني على القوات الرومانية في إيطاليا ، ثم أعاد الرومان الكرة عليه في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م ففر إلى الشام ومات في أنطاكية ، والثالثة كانت سنة ١٤٩ ق.م وانتهت ١٤٦ ق.م بانتصار الرومان على القوات القرطاجنية ، مما أتاح الفرصة للقبائل البربرية بقيادة « ماكسن » للانضمام إلى القوات الرومانية هرباً من قسوة

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٧) .

القرطاجنيين واستبدادهم .

يقول الأستاذ محمود شيت مقرراً ذلك لقد : « أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة فى العالم بعد قضائها على قرطاجنة ، فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنيين فى المدة ما بين سنة (٢٦٤) إلى (١٤٦) ق.م فالحرب الأولى : ابتدأت من سنة (٢٦٤) ق.م وانتهت سنة (٢٤١) ق.م انهزم فيها الجيش الرومانى فى إفريقية ، وانهزم الجيش القرطاجنى فى صقلية .

والحرب الثانية : ابتدت سنة (٢١٨) ق.م . وانتهت سنة (٢٠٢) ق.م ، انتصر فيها (هنبعل) القائد القرطاجني فى إيطاليا فى معركة (كان) وقتل فيها من الرومان ما يربو على السبعين ألفاً ، وكانت سنة (٢١٦) ق.م ، وكان (عنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين ، وكاد يقضى فى هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء ، وانتصر عليه الرومان فى معركة (زاما) سنة (٢٠٢ ق.م) ففر إلى الشام ومات فى أنطاكية .

الحرب الثالثة : ابتدأت سنة (١٤٩ ق.م) رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين ، واستمات القرطاجنيون فى الدفاع عن عاصمتهم فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن) البربرى فملك الرومان قرطاجنة وخربوها ، وأحرقوها بالنار ، فأصبحت أثراً بعد عين ، وكان ذلك سنة (١٤٦ ق.م) [١].

وبتلك المعارك الثلاثة التى تعتبر الفيصل فى الحروب التى نشبت بين الرومان والقرطاجنيين والتى زال فيها ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة واستولى الرومان على سواحل ليبيا ، وتونس ، والجزائر ، أما سواحل المغرب الأقصى فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقيام أهلها بمقاومة مسلحة بقيادة (تاكفراس) لمدة تسع سنوات تقريباً ، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء على ناحية المغرب الأقصى سنة (٤٢ بعد الميلاد) ، وجعلوا عاصمته مدينة (تينجيس ،

---

(١) قادة فتح المغرب العربى (١/ ٢٢) .

طنجة الحالية) ثم أقاموا عدة مدن عصرية وربطوا بينها بطرق معبدة تشبه الطرق الحديثة ، وأنشؤوا على مداخلها ومخارجها أبراجاً وقلاعاً تصد الغارات التى يقوم بها المناوئون للإمبراطورية الرومانية .

ولكن ما لبثت الإمبراطورية الرومانية بعد أن أعادت الحياة العمرانية فى البلاد حتى قام الحاكم العام الرومانى (بونيفاس) بتمرد على سلطان الإمبراطورية الرومانية ، وأعلن عصيانه على سلطة روما التى كانت فى حالة حصار وتعانى سكرات الموت !! ولكن لم يكن لهذا الحاكم قوى عسكرية محلية يستطيع أن يقاوم بها ضربات سلطة روما ، فلجأ إلى أعداء الرومان الذين كانت لهم مملكة ودولة قوية فى إسبانيا يستعين بها للقضاء على سلطة روما ، وكان هذا العدو لسلطة روما هما، واستجاب الوندال بقيادة (جينسريك) فلبوا مباشرة نداء الحاكم الرومانى ودخلوا إلى المغرب بجيش مدجج بالأسلحة تعداده نحو ثمانين ألف جندى ، وانضم إليهم أكثر أهل المنطقة الكارهين لاحتلال الرومانى .

وبذلك كانت القاصمة للحاكم العام الرومانى الذى رأى أن الوندال انتهزوا الفرصة بدخولهم للمنطقة وجعلوها تابعة لهم . وأقاموا فيها دولتهم وأصبحت قرطاجنة عاصمة لدولة الوندال بقيادة (جينسريك) ، وهنا أدرك الحاكم العام الرومانى (بونيفاس) خطأه فى استعانته بالوندال ، وكانت هذه نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الشمال الإفريقى .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد : « قد ظل المغرب خاضعاً للرومان إلى سنة (٤٢٩) ميلادية ، ففى هذه السنة أعلن الحاكم العام الرومانى (بونيفاس) العصيان على حكومة روما ، التى كانت ضعيفة فى ذلك العصر ، وقد استعان الرومان على حرب دولته ، وهم « الوندال » الذين كانوا يحتلون فى ذلك الوقت جنوب إسبانيا ، فأسرع ملك الوندال وهو « جينسريك » إلى بلاد المغرب ومعه « ثمانون ألف جندى » . وانضم إليهم كثير من المغاربة، لأنهم يكرهون الاحتلال الرومانى لبلادهم ، ولكن « بونيفاس » أدرك أنه أخطأ عندما

رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم ،فصار يحاربهم إلى أن انتصروا عليه ، فاحتلوا شواطئ المغرب ، وتونس ، والجزائر ، وجعلوا عاصمتهم مدينة « قرطاجنة »

وغادر « بونيفاس » بلاد المغرب سنة (٤٣١ م) ، وبقيت فيها بعض الجيوش التى أرسلتهم إليها الإمبراطورية الشرقية لإعانة روما سنة (٤٣٥م)، وفى هذه السنة خرج آخر جندى للرومان من المغرب ، وبذلك انتهى عصر الرومان الذى دام (٣٩٣) سنة [١].

المبحث السادس : عنصر الوندال

لقد تقرر فى كتب التاريخ أن عنصر الوندال يرجع أصله إلى الجرمانيين الذين يطلق عليهم اسم الألمان فى عصرنا الحاضر ، وكان سبب تواجدهم فى إسبانيا بعد الاستيلاء على فرنسا فى القرن الرابع الميلادى عدة عوامل منها : التوسع، وبسط النفوذ ، وتأمين جوانب المعيشة ، ومحاولة الوصول إلى الشمال الإفريقى كعمق استراتيجى لمملكتهم فى جنوب إسبانيا .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « الوندال هم من الأصل الجرمانى –الألمان – زحفوا فى القرن الرابع الميلادى على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة ، ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا ، وتستولى على أراضيها ، وكان من جملة القبائل التى هاجمت الإمبراطورية الرومانية قبائل الوندال ، وبعد أن احتلوا فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا فى جنوبها فى إقليم الأندلس ، وإليهم ينسب هذا الإقليم ، فقد كان يُسمى فاندولوسيا نسبة إليهم » [٢].

وفى فترة تمرد الحاكم العام الرومانى بونيفاس – كما مر معنا – على الإمبراطورية الرومانية فى روما ، وطلب الاستعانة من الوندال بقيادة جينسريك

---

(١) قادة فتح المغرب (١/ ٣٢) .   (٢) المرجع السابق (١ / ٣٣).

فكان الوندال فى ذلك الوقت يملكون القوى العسكرية الرهيبة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية وتعداد هائل من القوى البشرية مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام الرومانى الاستعانة بهم ، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستيلاء –لا الاستعانة – لصالح المملكة الوندالية ، وكان لهم ما خططوا ونفذوا ، حتى أصبحوا فيما بعد تخشاهم الدولتان الشرقية والغربية .

يقول الأستاذ شيت خطاب بهذا الصدد :« لقد مكث جينسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية ، فلما مات سنة (٤٧٧) ميلادية تولى ابنه « هنريك » وكان قاسياً على الكاثوليك ، فقبض سنة (٤٨٣) على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم فى الصحراء ، واغتصب أموالهم وكنائسهم ، وفى سنة (٥٢٣)م تولى على الوندال (هلدريك) ، وكان ضعيف الإرادة منحل العزيمة فخلعوه وولوا مكانه « جليمير » فاستنجد « هلدريك » المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لا سترجاع ملكه ، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية ، فهاجم « بيليساريوس » القائد الرومانى قرطاجنة سنة (٥٤٤) ميلادية وأسر ملك الوندال « جليمير » واسترد جميع الأملاك التى كانت تابعة للوندال وأعادها إلى بيزنطة « القسطنطينية » وزالت دولة الوندال بعد أن ملكت نحو مائة سنة » [١] .

المطلب الأول
عودة الرومان إلى الشمال الإفريقى بقيادة بيزنطة

فلما أزاح ملك الوندال « جليمير » الملك السابق المخلوع ضعيف العزم والإرادة « هلدريك » استغاث هذا المخلوع بالإمبراطورية الرومانية واستنجد بقيصر القسطنطينية جوستنيان لاسترجاع ملكه ، فوقعت المملكة الوندالية فى الشَّرَك نفسه الذى وقعت فيه القوات الرومانية بقيادة بونيفاس – كما مر معنا .

فلما وصل هذا النداء لجوستنيان انتهز الفرصة الثمينة ، فأعلن الحرب على الوندال وأرسل على الفور قواته المدججة بالأسلحة الفتاكة بقيادة قائده الماهر

(١) قادة فتح المغرب العربى (١/ ٣٤) .

(بيليساريوس) إلى قرطاجنة وكان ذلك سنة ٥٣٤ م ، فأسر ملك جليمير، واستولى على كل المناطق الخاضعة لمملكة الوندال ، وأعاد كل أملاك الوندال إلى مملكة بيزنطة « القسطنطينية » وزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة .

يقول الأستاذ طاهر الزاوى فى ذلك : « ولما خلع (هلدريق) استنجد بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه،كانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما ، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال ، وهاجم بيليساريوس القائد الرومى قرطاجنة سنة ٥٢٤ م ، وأسر ملك الوندال « جليمير » واسترد جميع البلاد التى كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة » [١] .

وفى هذه الحقبة من الزمان أسس الرومان فى الشمال الإفريقى حضارة مدنية راقية ، فقد أقاموا العمران المتطور ، والصهاريج الضخمة ، والسواقى الشاهقة ، والسددود المنيعة ، وأصلحوا البنية التحتية والفوقية للبلاد على الجملة ، حتى أحس أهالى المنطقة بهذا الاعتناء الخاص بهم من طرف الرومان فطفق الأهالى ينتحلون كل مقومات الحياة الرومانية لدرجة الاندماج الكامل ، ويتركون عاداتهم البربرية ، حتى وصل بجند الإمبراطورية الرومانية أن تنتخب سفاروس القائد البربرى لعرش الإمبراطورية سنة ١٩٣ م

يقول الأستاذ طاهر الزاوى : « ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل فى الروم بسنة تقليد الضعيف للقوى ، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد ، ونسى بعضهم قوميتهم وعاداتهم ، وأصبحوا رومان فى كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم ، وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب فى الدولة ، فإن سبتيم سيفاروس – وهو بربرى الأصل – انتخبه الجند إمبراطوراً لعرش الروم سنة ١٩٣ م » [٢] . ولكن تفشى

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا (ص ٣٥ ، ٣٦).

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا (ص ٣٥ ، ٣٦).

الانحلال الاجتماعى ، وكثرة الدسائس والمؤامرات والخصومات ، والمذاهب الدينية والسياسية أوهن من تعلق نفوس الناس بالإمبراطورية البيزنطية ، مع وجود عامل مهم ألا وهو اشتداد ساعد الفرس فى القرن السادس ، ومع اشتداد هذه العوامل أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفرض الأموال الطائلة على الأهالى للاستعداد لمقابلة الفرس ، واستخدمت القوة والاضطهاد فى نزع هذه الأموال ، وأسكنت أصوات الناقمين منهم ، مما حدا بالأهالى أن يقفوا موقف المعادى فكانت بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية .

يقول الأستاذ محمود شيت : « ولقد كان للانحلال الاجتماعى أثر بالغ على انحلال الدولة ، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت ، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات ، وكانت النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال فى تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى تدهور سريع ، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التى تتصل بهذه الألوان من العبث ، فنخرت عظام الدولة الواهنة ، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور ، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام ،وكلما انتصر فى القصر حزب ارتفعت له فى نواحى الدولة أعلام ، بعضها أنصار ،وبعضها مذاهب مختلفة فى الدين والسياسة ، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه فى العقيدة والرأى و ندمائه فى المباهج والشراب .

وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها ، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع ، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً ، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر ، وأخذوا يستعدون للمضى إلى شمال إفريقيا ، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقى فى كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم ، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل ، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها ، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالى فأنشات تعتصر دماء من بقى لها من الرعايا ، حتى كادت توردهم موارد التلف ، بدؤوا يحتجون ويعترضون ،

فلجأ الحكام إلى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم ، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين ، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط فى مسائل الدين ، حتى خيل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة ، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم ، وأبى المحكوم أن يجيب وأن يطيع ، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء ، واشتعلت بعض نواحى الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها » [١] .

ولكن رغم هذا الكبت ، وزيادة ضيق الأهالى بالرومان ، وعجز المملكة البيزنطية عن متابعة الأحداث وتذليل الصعاب للأهالى ، إلا أن – المملكة البيزنطية – ظلت تسيطر على مقاليد الأمور فى الشمال الإفريقى على الجملة حتى سنة ٦٤٧ م ، ثم كان بعد ذلك عام الفتح الذى دحر فيه الكفر وأهله ، ودخل الناس فيه فى دين الله أفواجاً .

المبحث السابع : العنصر الإغريقى

ويقصد بالعنصر الإغريقى سكان جزيرة اليونان الحالية ، فهذا العنصر اشتهر منذ القدم بالهجرة من موطنه الأصلى بحثاً عن الرزق والأمان ، وطلباً للاستقرار والاطمئنان ، وقد وقع اختياره من أول وهلة على منطقة برقة الواقعة جنوب شمال موطنه الأصلى ، وحيث تعتبر أقرب الأماكن إليه وأشبهها طقساً ومناخاً وبيئة بموطنه الأصلى .

فقد قام هذا العنصر بإرسال مجموعات استكشافية إلى عدة مدن واستقر أمرهم بعد عملية الاستكشاف على اختيار مدينة قورينا « شحات حالياً » التى تقع على هضبة ترتفع على سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدماً ، قرب نبع دائم ، وكان ذلك سنة (٦٣١ ق.م) وأصبح (أرسطو كليس)أول ملك لها ، ثم

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٣٦) .

تولى ابنه أرسيلوس بعده ، ثم باتوس الذى شهدت فترة حكمه توسعاً فى مملكته وزيادة قدوم المهاجرين اليونان ، مما أخاف القبائل الأصلية أن يطردوا من هذه المنطقة نظراً لزيادة عدد الوافدين من اليونان فاستنجدوا بأهل مصر لطلب العون على طرد اليونانيين ، فاستجاب فراعنة مصر لنداء هذه القبائل الليبية وكان ذلك سنة (٥٧٠ ق.م).

يذكر جون رايت فى كتابه ليبيا : « بعث اليونانيون مجموعات استكشافية ولم ينجحوا فى الاستقرار فى الأماكن التى اتخذوها فى بداية أمرهم فى جزيرة « بلاثيا » وبتشجيع من كاهنة دلفى تحول اليونانيون إلى « أزريس » ولكنهم بعد ست سنوات لبوا دعوة رجال القبائل المحلية لمشاهدة مكان أفضل لاستقرارهم ، وكان هذا المكان هو مدينة « شحات » فيما بعد ، ذات المطر الغزير ، وهناك وعلى بعد عشرة أميال من البحر ، وعلى هضبة ترتفع عن سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدماً ، قرب نبع دائم ، أقيمت مدينة شحات « قورينا » سنة (٦٣١) قبل الميلاد ، وأصبح (أرسطو كليس) الذى سمى (باتوس) الأول ملكاً لها ، وتلاه فى الحكم ابنه (أرسيلوس) الأول ، حيث حكم ستة عشر عاماً ، ثم باتوس الثانى الذى شهد حكمه قدوم المهاجرين من جنوب اليونان وجزر إيجة ، وقد أزعج القبائل الليبية المجاورة توسع المستعمرة؛ لأن الليبيين كانوا يرغبون فى أن يشاركوا الأجانب خيرات أرضهم لا أن يطردوا منها ، وتدهورت العلاقات مع اليونانيين بعد أن كانت ودية فى البداية والتفت الليبيون إلى مصر يطلبون العون، ولبى نداءهم الفرعون إبريس (أوهابرة) فى سنة ٥٧٠ ق.م حيث سار نحو برقة يقود جيشاً كبيراً ،ولكن اليونانيين كسبوا حرباً مفاجئة وقتل إبريس ، وجاء وريثه فى الملك فقام بتحسين العلاقات مع برقة بأن تزوج ابنة (باتوس) [١] ، وذلك بعد الصراعات والنزاعات التى بين القوم ، وأخذت طريقها بين الملأ فى ذاتها حيناً ، والشعب والملأ حينا آخر ، وقد قتل أرسيلوس الثانى بعد أن أجبر على الخروج من قورينا إلى مدينة فى الجبل الأخضر شرق ليبيا وهناك تم اغتياله ، وفى

---

(١) تاريخ ليبيا (٢٩ ، ٣٠) .

عام (٥٢٥ ق . م) احتل الفرس مصر ، فطلبت المملكة فرتينا أم الملك أرسيلوس النجدة ، فتقدم الفرس لغزو برقة وهاجموا مدينة المرج ، ثم ما لبثت أن استسلمت ، وواصلوا مسيرهم إلى مدينة بنغازى .

يقول جون رايت لقد : « كان حكم أرسيلوس بداية لنزاعات داخلية دائمة ، انتهت بخلافة ابنه « أرسيلوس » الثالث ، فبعد أن اضطر « أرسيلوس » الثانى للهرب من البلد كون جيشاً وهزم « قورينا » ثم أجبر على الرحيل مرة أخرى،والتجأ إلى المرج ولكنه اغتيل هناك ، وفى عام ٥٢٥ ق.م احتل الفرس مصر ، وطلبت منهم النجدة الملكة « فرتينا » أم الملك أرسيلوس الثالث ، للانتقام لمقتل ولدها – فتقدم الفرس لغزو برقة – وتركوا قورينا دون أن يلحقوا بها أذى ، ولكنهم هاجموا المرج التى استسلمت بعد حصار طويل سنة ٥١٥ ق.م وسار الغزاة غرباً إلى الموقع الذى توجد فيه بنغازى اليوم ، ولكنهم فى طريق عودتهم إلى مصر فقدوا كثيراً من رجالهم على أيدى رجال القبائل ، وماتت الملكة « فرتينا » فيما بعد » (١) .

وخلال هذه الفترة من الزمان استعادت برقة استقلالها، أُسست مدينة « يوسبر ايدس » سنة ٥١٥ ق.م ، ثم أنشئت بعد ذلك عدة مدن يونانية أخرى على طول الساحل ، منها مدينة توركا – العقورية – مدينة تولمايتا – الدرسية حالياً – ومدينة أبولونيا – مرسى سوسة – وفى عام ٥١٥ – ٤٧٠ ق.م ، تولى عرش شحات كل من الملك باتوس الرابع ، أرسيلوس ، والتعيس ، ولكن رغم النزاعات الحادة والصراعات القوية بين مدن برقة إلا أنهم توحدوا فى وجه قرطاجنة التى لم تعترف أبداً بحقوق الإغريق التجارية فى الشمال الإفريقى .

لذلك اهتم الإغريق بالزراعة إلى جانب التجارة، حيث جلبوا الحبوب الجديدة واعتنوا باستصلاح الأراضى التى كانت تغل ثلاثة مواسم فى سنة واحدة كما يقول « هيرودوت » فما أن أهل بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت

---

(١) المرجع السابق (٣٥ ، ٣٦).

شحات واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجارياً ومعماريا ومناخاً وموقعاً جغرافياً ، بل أصبحت محطة فكرية هامة جداً آنذاك ، فقد ساعد أفلاطون بذاته فى كتابه قانون قورينا ، وقد درس أفلاطون مع فيلسوف قورينا « إيراتشين » وعاش فيها الرياضى المشهور « تيودور » وكانت بها مدرسة للفلسفة ، وربما كان أرسيطيبوس القورينى هو الذى أنشأها ، كما أن قورينا كانت مركزاً طبيًّا شهيراً لصفاء هوائها ونقائه ، وجودة طقسها ، وجمال طبيعتها .

يقول جون رايت : « قد ازدهرت منطقة برقة بصفة عامة تحت حكم البطالمة الذين قاموا ببناء أسوار دفاعية للمدن الخمس :أبولونيا ، وبرنسية ، وشحات ، وتوسيرا ، وطوليد – طلميثة – والتى كونت اتحاداً فيما بينها ، وفى ذلك الوقت بنيت بعض المستوطنات اليهودية بالمنطقة ، وفى سنة ١٦٠ ق.م حدث نزاع فى مصر بين حكامها الثلاثة بومبى الثالث ويوجريتس وأخيه فيلومتر ، والتجأ الأخير فطلب مساعدة الرومان الذين تدخلوا وأعطوا أخا يوجريتس حكم برقة ، وهذا بدوره حكم عشرين عاماً ، وأوصى بانتقال البلد إلى حكم الرومان بعد موته عام ٦٩ ق.م .

وعاشت منطقة برقة فترة عشرين عاماً فوضى أهلية قبل أن تنتقل إلى حكم الرومان الصارم ، حيث عين مجلس الشيوخ الرومانى حاكماً لها اسمه « كورنيليوس مرسيلينوس » سنة ٧٤ ق.م ، وخلال الحروب الأهلية الرومانية التى انفجرت ، بعد ذلك بقليل استغل أتباع « بومبى » مدينتى قورينا وبرنسية كقواعد للانطلاق منها عبر « سرتيكا » للالتحاق بجيش بومبى الرئيسى فى تونس ، وقد استقر الوضع فى العالم الرومانى بعد معركة « أكتيوم » سنة ٣١ ق.م ، والتى كانت فاصلة لدرجة أن أهالى برقة استمروا لمدة ثلاثة قرون يؤرخون بها ، وقد وحد الرومان برقة مع جزر « كريت » كمقاطعة واحدة لمدة ٣٠٠ سنة » .

وهكذا انتهت تلك الدول التى عمرت فى الأرض أعواماً عديدة ، وأزمنة مديدة شيدوا فيها الصروح الكبيرة ، وأقاموا فيها القصور المنيعة ، وعتوا فى الأرض فساداً ، وصالوا واستطالوا على رقاب الناس بغير منهج الله القويم ، ولكن

ذهبوا وتركوا كل ذلك فما بقى من تلك الدول إلا أثر بعد عين !! ولقد عبر عن تلك النهايات شاعر الزهد أبو العتاهية – رحمه الله تعالى – بأبيات مؤثرات ، يحملن فى طياتهن العبر البالغة لمن يعتبر ، فقال :

أين القرون الماضية	تركوا المنازل خالية
فاستبدلت بهم ديارهم	الرياح الهاوية
وتشتت عنها الجموع	وفارقتها الغاشية
فإذا محل للوحوش	وللكلاب العاوية
درجوا فما أبقت صروف	الدهر منهم باقية
لم يبق بعدهم	إلا العظام البالية
ولقد عتوا زمناً كأنهم	السباع العاتية
فى نعمة وغضارة	وسلامة ورفاهية (١) .

المبحث الثامن : النوميديون

إن النوميديين من قبيلة ماسيلى البربرية ، والتى كان يتزعمها آنذاك القائد العسكرى مسينيسا الذى كانت تربطه علاقة وثيقة بالإمبراطورية الرومانية ، مما جعل قبيلة ماسيلى البربرية تدعم الإمبراطورية الرومانية فى حربها مع القوات القرطاجنية بأربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة ، وهذا ما جعل الإمبراطورية بعد انتصارها على القرطاجنيين أن تعيد لقبيلة ماسيلى بقيادة زعيمها مسينيسا جميع أراضيها ، مما حدا بالقائد مسينيسا أن يفكر فى توحيد قبائل البربر وتأسيس مملكة نوميدية تجمع تحت ظلها كل قبائل البربر ، واستطاع أن يحقق ما أراد .

يقول جون رايت فى ذلك : « عن طريق الحرب والقوة ، أصبحت مدينة طرابلس رومانية ، ففى عام ٢٨٩ ق.م أخذت قرطاجنة« مسينيسا » فى صقلية

---

(١) قصائد الزهد ، لمحمد أحمد سيد ، ص (٥٥) .

من الإغريق، وبذلك غدت فى احتكاك مباشر مع روما ، وقد سطا الأسطول الرومانى على مدن قرطاجنة على ساحل شمال إفريقيا خلال الحرب « البونية » الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) ق.م وفقدت قرطاجنة صقلية ، ثم اندلعت الحرب البونية الثانية سنة (١٢٨) ق.م وتم غزو إيطاليا وخربها (هانبيال) القائد القرطاجنى ، وردت روما على ذلك فأرسلت سفنها الحربية إلى الساحل الإفريقى الشمالى فهزمت القرطاجنيين علم (٢٠١ ق.م) فى معركة « زيما » على الحدود الليبية التونسية الحالية ، وربما كان نجاح الرومان راجعاً إلى مساعدة « مسينيسا » زعيم قبيلة « ماسيلى » النومدية ، الذى دعم الرومان بأربعة آلاف فارس فى لحظة حاسمة .

وقد كوفئ « مسينيسا » على مساعدته بأن اشترطت روما على قرطاجنة فى معاهدة سلام سنة (٢٠١ ق.م) . أن تعيد « لمسينيسا » جميع الأراضى التى كانت له أو لأجداده فى أى وقت مضى ، وكان مسينيسا يرى أن المعاهدة تعطيه الحق فى حجز أجزاء من منطقة قرطاجنة ليضيفها إلى المملكة النوميدية التى كان يعمل على تأسيسها آنذاك . كان مسينيسا هذا قائداً موهوباً ، وقد استطاع توحيد رجال القبائل البدائيين النوميديين وتحويلهم إلى أمة عظيمة على غرار النموذج القرطاجنى ، وكان هذا إنجازاً رائعاً إلى تشكيل دولة لأهالى الصحراء لأول مرة » [١].

ولكن مسينيسا لم يكتف بإقامة مملكته بين تلك القبائل فحسب ، بل قام بحملة عسكرية على مدينة طرابلس وضواحيها ، وسهل جفارة ونواحيها ، وتوجه إلى مدينة لبدة ، وأوية ، وصبراتة ، وحاصرهن ، فلما رأت المملكة القرطاجنية خطر المملكة النوميدية عليها ،وأنها لا قبَل لها بها ، قدمت تعويضات ومبالغ مالية هائلة لمسينيسا قائد الحملة لتأخيره عن المضى قدماً فى حملاته العسكرية للمناطق الخاضعة للملكة القرطاجنية .

وبعد تأزم القضية لم تجد المملكة القرطاجنية بدًّا من خوض حرب خاسرة

(١) تاريخ ليبيا ص (٤٠) .

ضد المملكة النوميدية ، مما استدعى الإمبراطورية الرومانية للتدخل لمناصرة المملكة النوميدية التى كانت حليفة لها ، وانتهت هذه الحروب التى دامت قرابة أربع سنوات بتدمير قرطاجنة ومدنها ، وضمت كل مقاطعاتها إلى ولاية الرومان .

يقول جون رايت عن عجز القرطاجنيين أمام المملكة النوميدية : « عجز القرطاجنيون أمام مسينيسا ، لأن شروط السلام لم تكن تسمح لهم بشن حرب ضده دون موافقة الرومان الذين كانوا يؤيدون سلب الأراضى من الأعداء المهزومين، واستولى مسينيسا على منطقة طرابلس حوالى عام ١٦٥ ق.م وبحجة منعه من مطاردة حصار لبدة ، وأوية ، وصبراتة ، توجهت قرطاجنة إلى روما كى تتدخل لوقف اعتداءات مسينيسا ، وقد سوت بعثة من مجلس شيوخ روما ذلك النزاع بأن أمرت قرطاجنة بتسليم المدن لمسينيسا ثم أمرت بدفع تعويضات له لتباطئها فى عملية التسليم ، وبذلك خضع الساحل الطرابلسى كله لمسينيسا، وامتدت مملكته سنة ١٦١ ق.م من غرب الجزائر إلى سرت .

وبعد عشر سنوات تأزمت قضية شمال إفريقيا ، وأصبحت روما تشعر بأن مملكة النوميديين القوية كانت مصدراً خطيراً عليها ، كما كانت قرطاجنة من قبل ، وعندما دخلت قرطاجنة سنة (١٥٠ ق.م) ، فى حرب يائسة مع مسينيسا تدخلت واعتبرت مهاجمة قرطاجنة للنوميديين خرقاً لشروط اتفاقية السلام لعام ٢٠١ ق.م وأعلنت الحرب على قرطاجنة ، وكان هناك دافع آخر لدخول روما هذه الحرب ، وهو أنها أرادت الحد من طموح مسينيسا الواسع فى جعل قرطاجنة عاصمة لمملكته ، وبعد أربع سنوات من الحرب والحصار ، استسلمت قرطاجنة لروما ، واستعبد أهلها وخربت المدينة العظيمة (١٦٤ق.م)، وضمت مناطقها فى شمال تونس إلى ولاية إفريقيا الرومانية ، لمنع مسينيسا من احتلالها [(١)] .

وبعد وفاة مسينيسا تولى ابنه الأكبر مسبسا زمام الأمور فترة من الزمن ثم مات، فتولت من بعده زمام الأمور قيادة مشتركة بين أبناء مسبسا وأبناء أخوه جرجوثا

---

(١) تاريخ ليبيا (٤٠) .

الذى انفرد بالسلطة بعد ذلك ، وفى هذا العهد ساءت العلاقة بين الرومان والمملكة النوميدية مما حدا بالرومان إلى شن حرب ضروس على المملكة النوميدية تم فيها اعتقال جرجوثا ، وتعيين أخوه جوبا كصنيعة رومانية ، إلا أن الحرب الداخلية الأهلية زادت الأمر سوءاً مما دعى الرومان إلى ضم المملكة النوميدية وإخضاعها لسلطان الإمبراطورية الرومانية ، وأصبحت بذلك مقاطعة إفريقيا القديمة (القرطاجنية) ومقاطعة إفريقيا الجديدة (المملكة النوميدية) جزءاً من الإمبراطورية الرومانية .

يصور صاحب كتاب تاريخ ليبيا الأحوال التى أدت إلى انهيار المملكة النوميدية فيقول : « وانتهب حالة شبه الاستقلال للمدن سنة ٤٩ ق.م عندما اندلعت الحروب الداخلية بين « يوليوس قيصر » وبومبى ، وكان ملك نوميديا - جوبا الأول - من المؤيدين لبومبى ، وأجبر « جوبا » دولة لبدة على تقديم الجيوش والمعدات ، ولكن بعد هزيمة بومبى سنة ٤٨ ق.م وموته ، اعتصم أتباعه فى إفريقيا ، وأصبحت لبدة مركزاً لهم ، ورست جيوش يوليوس قيصر فى إفريقيا سنة ٤٧ ق.م ، وقضت على جيش بومبى فى العام التالى .

وضمت روما مملكة النوميديين إلى مقاطعة إفريقيا الجديدة ، وأصبحت مقاطعة تونس الأصلية باسم « إفريقيا القديمة » وكعقاب لبلدة على مساعدتها لبومبى جعلت مدينة لبدة خاضعة لروما ، وغرمت مليون لتر من الزيت كل عام ، وأصبحت علاقة منطقة طرابلس سيئة مع روما بعد الحرب ، وبعد ود قديم ، حيث صارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية » (١) .

قلت : إن الباب الذى مضى يذكرنا بقول الله تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٣٧) وقال : ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر : : ٤٣) وقال : ﴿ **سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (غافر : ٨٥) .

---

(١) تاريخ ليبيا ص (٤١) .

إنك أيها القارئ الكريم تستطيع أن تتأمل في عدة سنن من سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والحضارات والدول من خلال الباب الماضي ، ومن أهم هذه السنن :

أ – أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعددم إقامة العدل ، ويكون ذلك ندما تختل الموازين ، وتنعدم القيم ، وتنحرف الفطرة ، ويغيب منهج الله في دنيا الناس فيتحكم الأقوياء في الضعفاء ، ويشرعون قوانين أرضية تجعل المجتمع طبقات فيه العبيد والسادة ، ومن حق السادة أن يفعلوا ما يريدون تلبية لأهوائهم وإشباعاً لنزواتهم ، فعند ذلك ينزل العقاب وتقع القاصمة . قال تعالى : ﴿ **وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ** ﴾ (الأنبياء : ١١).

ب – أن انهيار الأمم والشعوب وزوالها يكون بأجل ، وأن آجال الأمم أطول من آجال الأفراد ، قال تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (الأعراف : ٣٤) . وقال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا** ﴾ (الكهف : ٥٩).

جـ – أن الأمم والشعوب بحاجة دائمة إلى من يذكرها ويردها إلى الصواب ؛ لأنه مع تطاول الزمن تنحرف عن الحق لأسباب عديدة ، ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده ، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .

وإذا تأملت وجدت غير ذلك من السنن التي مضت ، ولا تزال تمضي الشعوب والدول والأفراد والحضارات والأمم ، وأن سنن الله لا تجابي أو تجاهل ولا ترحم ولا تتبدل .

د – أن الترف والفساد من أسباب زوال الأمم ، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال ، قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ (الإسراء : ١٦) .

أي : أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم والترف ، وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه ، إلا أنه حالة نفسية تصيب الشعوب والأمم فتتمرد على منهج الله ، وليس كل ثراء وترفاً .



الباب الرابع

الفتح الإسلامى لشمال إفريقية

الباب الرابع
الفتح الإسلامى لشمال إفريقية

تمهيد : كان حال الشمال الإفريقى قبل الفتح يلفظ آخر أنفاسه السياسية،والعسكرية،والدينية،والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر أخذت الدولة فى انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها فى غاية من الفساد، كما وأن الاضطهاد الدينى والاستغلال المالى، وفوضى الجيش أصبحت تنذر الإمبراطورية بأخطار عظيمة.

فحاولت قيادات الإمبراطورية البيزنطية إجراء بعض الإصلاحات التى تطيل عمرها إلا أنها باءت بالفشل، حيث ترتب على هذه الإصلاحات بروز دور الكنيسة الإفريقية الذى يعتبر الخطر القاتل للإمبراطورية الذى تمثل فى تنازع العاصمتين الكبيرتين ـ القسطنطينية وإفريقية ـ على سيادة العالم المسيحى آنذاك،مما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الإفريقية بأزمة زعزعت أعماقها.

فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق قسطنطينة الذى يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معا، والذى وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه فى اكتساب تأييد اليعاقبة، وعارضت الكنيسة الإفريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الإمبراطور والبابا، وانتهى الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الإمبراطور.

وتعقد الموقف عندما وصل إلى إفريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر فرارا من الاضطهاد وبعدا عن مواطن الخطر فى الوقت الذى كان المسلمون يفتحون فيه مصر.

كانت هذه حالة المسيحية فى الشمال الإفريقى قبل ظهور الإسلام : مذاهب منشقة وفساد إدارى وعدم انتظامه، وإشاعة الرشوة، وتسلط الرومان، وانقسامات البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور، مما كان مهداً خصبا لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خيرى الدنيا والآخرة [١].

---

(١) راجع كتاب تاريخ المغرب العربى ص (٤٢١).

الفصل الأول
دواعى الفتح الإسلامى

المبحث الأول : الأمة المسلمة ودورها الريادى

لقد تقرر فى بدهيات هذا الدين أن غاية وجود الأمة المسلمة فى هذه الحياة هى توحيد الله، وتحقيق عبوديتة الشاملة فى كل مناحى الحياة والممات، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات ٥٦]، فإذا كانت تلك غاية العبودية الشاملة التى تشمل الأمة المسلمة ومن حولها من بنى البشر، كان لزاما على الأمة المسلمة أن تقوم فى ذاتها بامتثال الإسلام عقيدة وسلوكا ، ونظام حياة متكاملا، ثم حمل هذه الأمانة وأعباء تبليغها للناس أجمعين، والجهاد فى سبيل الله وأداء الأمانة إلى أصحابها، وإزالة كل العقبات التى تقف فى وجه أداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بنى البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة فى خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله .

يقول الشيخ ابن تيمية ـ رحمه الله :« وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هى العليا، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين » (١) .

بيد أن علينا أن ننوه هنا بأن أصل الجهاد فى سبيل الله ليس لحمل الناس على اعتناق الإسلام كرها، كلا ! بل لإزالة الحواجز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التى فطر الناس عليها،قال تعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

إلا أنه يشرع لإزالة العقبات والموانع والحواجز التى تمنع بسط حكم الله

(١) السياسة الشرعية، لابن تيمية ص (١٨) .

سبحانه على الأرض، ودخول الناس كلهم تحت سلطان حكمه تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ﴾ [البقرة: ٢٠٨] وذلك يشرع لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ...** ﴾ [النساء: ٧٥].

وبهذه الأهداف السامية، والمطالب العالية قام إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين ﷺ، فقد أرسل الكتب والرسل إلى القادة والملوك والزعماء حينذاك، وأرسل السرايا والجيوش لإزالة الحكام الذين تمردوا على منهج الإسلام، فكانت سرية عبد الله بن جحش أول هذه البعوث، واستمر ﷺ فى إرسال البعوث والسرايا لإزالة الحواجز البشرية، والأعراف الجاهلية، والموانع النفسية، والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه بل قاد ﷺ هو بذاته بعض البعوث والغزوات، والتى كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩ هـ.

والناس فى كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إما أن يدخلوا فى الإسلام ويكونوا للمسلمين إخواناً. وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم ويدفعوا الجزية ويخضعوا لسلطان الله وحكمه، ولهم ما لنا، وعليهم ما علينا. وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصلاً بيننا وبينهم، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...** ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهكذا سار على نحو هذا المنهج القويم، والقواعد الجهادية الحكيمة، والأسس النبوية الراشدة، الخلفاء الراشدون الذين حملوا أعباء هذا الدين للناس أجمعين طاعة لله ورسوله، ورحمة بالناس وإشفاقاً عليهم، قال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

المبحث الثانى: مبشرات الفتح الإسلامى

لقد تقرر فى السيرة النبوية والاحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قد بشر المؤمنين بعدة بشائر، ومن تلك البشائر بشارته ﷺ بفتح كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وجهة المشرق، كما وعد سراقة بن مالك بن جعشم بسوارى كسرى أثناء هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وهذا نص البشارة التى وعد فيها ﷺ سراقة بسوارى كسرى الذى كان آنذاك إمبراطور المشرق، وقد جاء فى سيرة ابن هشام قولة :« فكتب لى كتاباً فى عظم أو فى رقعة، أو فى خرقة ، ثم ألقاه إلى فأخذته ، فجعلته فى كنانتى، ثم رجعت »[١].

كذلك وعد ﷺ عدى بن حاتم الطائى رضي الله عنه بذلك حيث قال له: «**فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز** »[٢].

أما المبشرات بفتح الشام، فقد بشر بها ﷺ وفد تميم الدارى حين قدومه إلى المدينة بقوله : «**إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر ، فلا قيصر بعده ، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله عزوجل**»[٣].

ولا شك أن هذه بشارة كانت واضحة وجلية بفتح الشام والعراق وبلاد فارس، أما عن بشارة فتح جنوب أوروبا وشرقها، فقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة كالتى تبشر بفتح مدينة القسطنطينية الهرقلية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، ومدينة رومية الإيطالية عاصمة البابوية الكاثوليكية .

فقد سئل عبد الله بن عمرو العاص رضى الله عنهما أى المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أم رومية ؟!!.فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتابا فقال : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذا سئل رسول الله ﷺ أى المدينتين تفتح أولاً؟ فقال : « مدينة هرقل »يريد القسطنطينية .[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام، (٢ / ٩٧). (٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).

(٣) البداية والنهاية (٧/ ٥٩).

(٤) رواه الدارمى، وأحمد، وابن أبى شيبة، والحاكم.

كما وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ببشارة فتح مصر المقوقسية التى قال فيها ﷺ :« **إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها ، فإن لهم ذمة وصهراً** » (١) يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم، التى أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله ﷺ وأنجبت ابنه إبراهيم .

وبعد فلا ريب أن هذه المبشرات قد أضافت رصيداً مادياً، ومعنوياً وحسياً على أن الفتوحات الإسلامية كانت وفق رؤية واضحة المعالم ، بأبعادها المرسومة سواءً البعيدة المدى أو القريبة، حتى جعلت أبا هريرة رضي الله عنه يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر وعثمان رضى الله عنهما :« افتحوا ما بدا لكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانة محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك » .

إن الفتوحات الإسلامية خاضعة لمشيئة الله التى جعلت لكل شيء قدراً :« ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك » إذ لا مكان للعفوية والارتجالية فى هذا الدين السماوى القويم، فإن كل تحركات هذا الدين القيم كانت محسوبة في علم الله عزوجل، مسطرة فى اللوح المحفوظ، لذلك كانت قيادة الرسول ﷺ لتلك الفتوحات التى افتتحها، والمبشرات التى أخبر عنها، كل ذلك كان وفق خطة ربانية شاملة ترفض الارتجالية، وخطة عسكرية منظمة تستنكف عن العفوية، كما قال عنه ربنا تبارك وتعالى :﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾[النجم :٣ ، ٤]وجاء فى الحديث الصحيح :« **والذى نفسى بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ، ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغدو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل** » (٢) .

---

(٢) البخارى، كتاب الجهاد والسير، باب تمنى الشهادة (٣ / ٢٦٨) رقم (٢٤٩٧) .
(٥) فتح البارى (٦ / ٨٠) .

المبحث الثالث
دعاوى المستشرقين ...شبهات وردود

إن الاستشراق والمستشرقين من ولادتهم فى القرن العاشر الميلادى فى أحضان الكنيسة برعاية اليهود إبان الفتح الإسلامى لأوروبا، حينما توجهت أنظار العالم إلى هذا الفتح الجديد، فخافوا أن ينصرف أتباعهم إلى هذا الدين العظيم، فرأوا - بزعمهم - أن أنجح حيلة لمواجهة هذا المد العظيم، ومحو صورته الوضيئة والإعجاب به فى نفوس أتباعهم على وجه الخصوص، وفى نفوس أتباعه على وجه العموم، وهى: الطعن فيه، وتشويه محاسنه والتنفير منه، فكان أوائل من خطط لهذا المكر الحاقد، النصرانى المدعو «بطرس الجليل» رئيس دير كلوى، الذى راقب الصراع بين الإسلام والنصرانية، واستنتج أن القوة المسلحة لا تجدى نفعاً فى محاربة الإسلام والمسلمين، وإنما ينبغى اللجوء إلى الغزو الفكرى، لذلك توجهت بدايات هذا الكيد للقرآن الكريم بترجمته للاتينية والطعن فيه وتشويه حقائقه، ثم الطعن فى شخص الرسول الكريم ﷺ وفى عالمية دعوتة ووسائلها الجهادية والدعوية، وما شاكل ذلك من شبهات أوهنُ من بيت العنكبوت !!

ولكن نظراً للخدم تخصص هذا البحث فى تقصى عمل الاستشراق والمستشرقين، وشبهاتهم والرد عليها، نكتفى بإيراد بعض شبهاتهم التى هى وثيقة الصلة ببحثنا هذا، ولكل مقام مقال كما قيل .

الشبهة الأولى : كدعوى عدم وجود استراتيجية للفتوحات الإسلامية :

يقول المستشرق «أنتونى نتنج» وهو يجزم برأيه :«والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادى، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التى كانت تسود القبائل، والتى حظر عليها أن تشتبك فى معارك أخوية»(١) .

---

(١) راجع كتاب دواعى الفتوحات الإسلامية، ودعاوى المستشرقين للدكتور/جميل عبدالله المصرى(٣٥) .

ويقرر فيليب حتى الذى يمثل خلاصة رأى المستشرقين فى هذه الدعوى: «كان على أولى الأمر بعد إخضاع الجزيرة أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل ، الإسلام من المؤمنين إخوة، حتى إن الغزو بين القبائل - والغزو قديم العهد فى الحياة البدوية - لم يبق أمراً ترضى عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولى الأمر أن يوجهوا القبائل فى سبل ومنافذ جديدة . . . وهكذا بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة فى قلوب أبناء القبائل، وخلقاً للمجال الحيوى خارج الجزيرة المكتظة بالسكان »[١].

لا شك أن هذه الدعوى باطلة من أصلها، وواهية مردودة بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فلو تأمل عاقل فى دين الإسلام لوجده من النظرة الأولى أنه دين يحث أتباعه ويأمرهم بالنظام فى حياتهم الخاصة والعامة، وبالتفكير والتأمل فى كل حركاتهم وسكناتهم، وبالرؤية العميقة للأحداث والنظرة البعيدة للأهداف فخذ لذلك مثلاً للإيضاح والتبيان لما قررناه: شعيرة الصلاة فحسب، والتى تعتبر من أبرز مظاهر التدين بدين الإسلام، فانظر فى كيفية أدائها على سبيل المثال بصورتها الجماعية فى حالة الحرب، وتحديد دور الإمام فيها والمأموم، والسابق والمسبوق، فما أن تتأمل فى تلك الشعيرة وكيفية أدائها فتقر بأن هذا الدين عظيم، أساسه التنظيم والدقة فى حالات الحرب والسلم .

فإذا كان ذلك فى شعيرة الصلاة التى لا فيها إراقة دماء، ولا إهدار أموال، ولا تغريب عن الأهل والأوطان، فكيف يتصور من دين هذا سمته فى شعيرة تعبدية كالصلاة، يأمر بشعيره جهادية عسكرية تتضمن القتال والاستشهاد، وإهدار المال والتضحية بالأولاد، والتغريب عن الأوطان والإخوان، بدون وضع خطة جهادية بأبعادها الاستراتيجية، لإقامة هذه الشعيرة التعبدية؟!![٢].

لذلك كان على أصحاب هذه الشبهات أن يقفوا ملياً عندسيرة رسول الله ﷺ

---

(١) نفس المصدر ص (٣٥).

(٢) هذه الفكرة من الأخ عبد الحكيم الصادق ، أثناء حوار .

ويتأملوا بعد تخطيطه وأهدافه ﷺ منذ بداية الرسالة، وكيف قام في مكة بتبليغ دعوة الإسلام لزعماء القبائل، وسادة القوم، وملوك الناس آنذاك، يدعوهم بدعاية الإسلام على أن يؤازروه وينصروه ، فكان له ما قصد، فقد قبل أهل المدينة تلك الدعوة وقائدها ﷺ التي كانت بداية إرهاصات قيام دولة الإسلام الأولى التي هاجر إليها ﷺ فيما بعد، حيث قام بتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحمل عبء نشر الدعوة للناس أجمعين وذلك بإرسال الرسل ، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وفق خطط واضحة المعالم، والأبعاد ، والمضامين والأهداف والمقاصد .

وهكذا استمر الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ على هذا النمط من التحرك المدروس بأبعاده الشمولية وأهدافه الشرعية، يحدوهم في كل ذلك حب الخير للناس أجمعين في الدنيا والدين ، وبهذه الروح وتلك الاستراتيجية استطاعوا أن يفتحوا قلوب الناس؛ ليدخلوا في دين الله أفواجاً حتى وصلوا إلى بلاد الصين، والروس، وقلب أوروبا ومجاهل إفريقيا، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:«**فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف البيت في غير جوار أحد ، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز** »[١] .

الشبهة الثانية : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً دينية :

وجماع هذه الشبهة يلخصها الدكتور جميل المصري بقوله :«إن المسلمين أصحاب عقيدة، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى ، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وإنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم ، والسيف باليد الأخرى »[٢] .

ونقول رغم هذا الإفك المبين، ومواقف هؤلاء المبطلين الذين يعرفون حقيقة الإسلام ودعوته أكثر من بعض المسلمين، كما قال تعالى فيهم :﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾[البقرة : ١٤٦].

بيد أن الله ـ سبحانه ـ أقام حجته عليهم ودحض شبهاتهم بأقلامهم، وألسنتهم،

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).

(٢) دواعي الفتوحات الإسلامية ص(٣٩).

حيث سخر لهم من يفند شبهاتهم من بنى جنسهم ومن جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم، ومن أولئك المستشرقين روزنتال .

يقول المستشرق روزنتال : « . . .وقد نمت المدينة الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق، داعيه إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة . . .وفوق كل ذلك فبتقدم الإسلام تهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة بروح المنافسة الحرة »(١).

ويقول فون كريمر : « كان العرب المسلمون فى حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول قتل الرهبان، والنساء والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار، وقد اتبع المسلمون فى حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون بالسهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعدائهم جرماً بجرم، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت عليه الجيوش الرومانية فى تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى، فلم يحاولوا من هذا شيئاً»(٢).

وأجاد المستشرق غوستاف لو بون بالفعل فى طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين الناس على الإسلام، وبين أن الإسلام انتشر بالدعوة وبدون إكراه (٣).

يقول الدكتور جميل المصرى :« والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة التى لا تدع مجالاً للشك فى أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة :٢٦٥].

وأما إقبال الشعوب على الإسلام فكان بسبب ما لمسوه فى الإسلام نفسه، فهو النعمة العظيم، ولما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه فى القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة

---

(١)، (٢) المرجع السابق ص (٤١). (٣) المرجع السابق، ص (٤٢).

بالتطبيق العملى، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التى عرفها التاريخ العالمى، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله، والتقوى وإيثار أمر الآخرة على الدنيا والإخلاص فى الجهاد، وإرادة الله فى العمل، والابتعاد عن الذنوب » (١)

الشبهة الثالثة : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً قومية :

لايخفى عليك أن هذه الشبهة مردودة من أصلها إذا إن أكبر خصومه للدعوة الإسلامية كانت من قِبَل العرب سواءً كانوا عرب مكة، أم عرب الشام والعراق، بل التاريخ يثبت أن هؤلاء العرب المتنصرة وغيرهم، هم الذين وقفوا فى عدة معارك مع الفرس، والروم ضد المسلمين، فكيف يكون أعداء الدعوة الإسلامية سبباً فى الفتوحات الإسلامية، هذا بهتان عظيم ؟!! .

ولكن لا بأس أن نذكر لك فحوى شبهة القوم، حتى يتضح لك أنها ليست بشبهة وإنما هى المكر والكيد !! وهذا نص الشبهة كما ذكره الدكتور جميل المصرى :« وجود العرب فى الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بنى جنسهم، يربطهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس » .

واعتبروا أن هذه الفتوحات : « من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامى الغابر » (٢) وذهب إلى الدعوى الباطلة من المستشرقين بروكلمان فى كتاب الشعوب الإسلامية، وكلود كاهى، وبرنرد لويس فى كتابه العرب فى التاريخ، وموريس لومبارد فى كتابه : الجغرافيا التاريخية .

الشبهة الرابعة : الفتوحات الإسلامية كانت لأسباب اقتصادية :

ولا ريب أن من تأمل هذه الشبهات وأسباب إثارتها عند هؤلاء المستشرقين، يجد أن هؤلاء المستشرقين قد انطلقوا لتقييم حركة الفتح الإسلامى من منظورهم النصرانى البحت، الذى قد تجسم فى دوافع حركتهم الاستشراقية، حيث كان أول دافع لهم فى حركتهم تلك بعد فشلهم فى الحروب الصليبية ،

---

(١) المرجع السابق، ص (٥٥) .

(٢) دواعى الفتوحات الإسلامية، ودعاوى المستشرقين ص (٥٥) .

كان الدافع الدينى، ثم الباعث الاقتصادى الذى سيطر على أذهان القائمين على حركة الاستشراق سيطرة كاملة، وما تحركات حركة الاستشراق المعاصرة بقيادة أمريكا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، فى منطقة الشرق الأوسط، وإفريقيا، وشرق آسيا إلا دليل على ذلك، وما حرب الخليج ودوافعها عنا ببعيد !!.

لذلك فهم يحاكمون حركة الفتح الإسلامى الربانى بحركتهم الاستشراقية الجاهلية التى مبناها الكفر بالله واليوم الآخر، حيث إنهم لا يتحاكمون إلى كتاب سماوى، بل يرفعون لواء المنهج العلمى فى البحث والنقد الأكاديمى ـ كما يزعمون ـ لهذا سوف نحاكمهم إلى المنهج العلمى فى البحث والنقد، ويكون ذلك على محورين لا غير:

المحور الأول : لماذا لا يلتزمون بقواعد البحث العلمى، والنقد الأكاديمى، حيث عمدوا لمحاكمة حركة الفتح الاسلامى صاحبة الكتاب السماوى والدستور الإلهى، التى لها من المراجع العلمية والبشرية، مالم يكن من قبل ولا من بعد لحركة قط،إلى حركتهم الاستشراقية الجاهلية التى ليس لها سند سماوى ، ولا دستور إلهى، ولا مرجعية علمية ! أتكون هذه المحاكمة عادلة والحال كما مر معنا؟ أفتونا يا أصحاب المناهج العلمية، والقواعد الأكاديمية الاستشراقية المسمومة.

المحور الثانى : ثم بعد ذلك قرروا فى أنفسهم ما قَرَّروه من الشبهات حيال حركة الفتح الإسلامى الربانى، ونظروا فى المصادر الإسلامية ليتخيروا كلمات، أو يبتروا نصوصاً، أو يتصيدوا عبارات موهمة قد قيلت فى سياق معين، فيقطعونها من سياقها وسباقها، ولحاقها لكى تؤيد ما قرروه من شبهاتهم !! ويعرضوا جملة وتفصيلاً عن النصوص المحكمات الواضحات ويتسللون منها لواذا !! أهذا منهج علمى فى البحث عن الحقائق ؟!! أهكذا تكون قواعد النقد الأكاديمى ؟!!.

الفصل الثاني
بدايات الفتح المبارك

إرهاصات الفتح : لقد سبق الفتح الإسلامى لليبيا، إرهاصات، وأحداث، وقضايا سياسية، ونزعات عرقية، وثورات محلية فى مدينتى برقة وطربلس، التى كان لها أثر بالغ فى تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية فى المنطقة، وتمهيداً لتهيئة نفوس أهالى ليبيا لقبول الفتح الإسلامى، حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدى المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفى، لذلك حاول نفر من أهالى ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية والخروج إلى ناحية مصر حتى يلتقوا بقائد الجيوش المسلمة عمرو بن العاص رضي الله عنه وكان يومئذ حاكم مصر، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم، ودخلوا فى دين الله سبحانه، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، نيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

المبحث الأول: حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه على برقة

ولما كان الحال فى ليبيا كذلك، فقد قرر عمرو بن العاص رضي الله عنه بناء على تلك المعلومات، أن يضع استراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية، حتى يأمن شر الروم القاطنين ناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية وذلك بفتحه الإسكندرية، لذلك قرر عمرو بن العاص رضي الله عنه إرسال عقبة بن نافع الفهرى رضي الله عنه كمقدمة استطلاعية لفتح الشمال الإفريقى، وكان ذلك فى عام (٢٢هـ-٦٤٢م) على الراجح من الأقوال.

يقول ابن عذارى بهذا الصدد : « إن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر وجه عقبةبن نافع الفهرى إلى زويلة، وبرقة فافتتحهما، ثم توجه بنفسه إلى برقة،

فصالح أهلها، ولا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع هذه عبارة عن سرية استطلاعية وإنها هى التى جعلت عمرو بن العاص يمكث بقية سنة ٢١ هـ - ٦٤١م ثم إن الفتح قد تم فى الشهور الأولى من سنة ٢٢هـ - ٦٤٢م ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس فى سنة ٢٢هـ - ٦٤٢م أو فى أواخرها »(١).

يبدو لى أن فتح برقة لم يكلف عمرو بن العاص رضي الله عنه كبير العناء، إذ إن جيشه الذى فتح به مصر لا يتجاوز تعداده اثنى عشر ألفاً، فى الإعتبار أن نسبة الجيش الذى وجهه لفتح برقة كان ضئيلاً قياساً مع حجم قوات الإمبراطورية التى كانت ترابط تلك المنطق، إلا أن القوة الحقيقية ليست فى تعداده وشكله، وإنما تكمن فى إيمانه بالله واليوم الآخر، وحبه للموت فى سبيل الله، مع ممارسة فن القتال وخبرته الطويلة فى ذلك.

يقول الدكتور صالح مصطفى : « فلما انتهى عمرو بن العاص رضي الله عنه من فتح الإسكندرية، وتنظيم أمورها، سار ببقية جيشه بعد أن وصلته الإمدادات لا يزيد على اثنى عشر ألفاً، وإذا أدخلنا فى حسابنا ما فقده عمرو رضي الله عنه من جند استشهدوا فى فتح مصر، وما تركه من جند للدفاع عنها، أدركنا قلة عدد جيش المسلمين، الذى وصل به إلى برقة الأمر الذى سهل عليه مهمة السير إلى برقة دون أن يتطلب الإعداد لذلك مجهوداً كبيراً، فلم يكن من الصعب على جيش مثل هذا العدد أن يقطع فيما بين مصر وبرقة دون أية صعوبة، وقد ساعده على ذلك ما عرف به الجند المسلمون فى عصرهم الأول من بساطة فى التجهيز للحرب والتزود لها وخبرة بفنون القتال فى الصحراء »(٢).

والجدير بالذكر ، أنه يجب التنويه هاهنا بخصلة هامة قد ساعدت عمرو بن العاص رضي الله عنه أثناء فتح برقة، وهذه خصلة تعتبر منقبة لأهالى برقة، ألا وهى عدم مقاومتهم للجيش الإسلامى رغبة فى العيش تحت ظل الحكم الإسلامى العادل

(١) ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، للدكتور صالح مصطفى مفتاح المزينى، ص (٢٨).

(٢) ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص (٢٩).

بقيادة عمرو بن العاص، ورغم سجيتهم التى ألفت الحروب والتمرد على أنظمة الإمبراطوريات الفنيقية، والإغريقية، والرومانية، والبيزنطية وغيرها؛ ولذلك تعتبر هذه النقطة عاملاً هاماً من العوامل التى ساعدت الجيش الإسلامى فى فتح برقة بدون كبير عناء.

يقول الأستاذ طاهر الزاوى: « وسار بجيشه عمرو بن العاص إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة » (١).

يقول الدكتور صالح مصطفى: « وعندما وصل جيش الفاتحين إلى برقة ضرب عليها الحصار، وتتفق معظم المصادر على أن برقة وهى مدينة إنطابلس (٢) قد فتحت صلحاً، وأن أهلها قد عاهدوا عمرو بن العاص رضي الله عنه على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، وقد اختلف فى سبب تحديد الجزية وعللها بعضهم بأنها كانت تمثل عدد الحالمين ممن آثروا البقاء على مسيحيتهم ، ولم يعتنقوا الإسلام فحقت عليهم الجزية باعتبارهم أهل ذمة» (٣) .

ولا يخفى أن أحكام أهل الذمة وكيفية أخذ الجزية منهم ، وتحديد قيمتها ، كل ذلك مسطر فى كتب الفقه بشكل مفصل ، وما قصدت التكلم فى ذلك ، وإنما قصدت الإشاره إلى بعض مقاصد أخذ الجزية من أهل الذمة فى دولة المسلمين ، وهذه المقاصد تدور حول عدة نقاط نذكر منها : تقرير مبدأ: لا إكراه فى الدين ، ولكنْ عليهم أن يدخلوا بذلك تحت سلطان الدولة المسلمة ، وعدم التمرد عليها فى حالتى الحرب والسلم ، وبدفعهم الجزية تعصم دمائهم وأموالهم، وأعراضهم إلا بحق الإسلام ، وبذلك تعطى لهم فرصة معايشة أهل الإسلام بالإسلام لكى يحاوروا أهله، وتكون فرصة للدخول فيه وبدفعهم الجزية

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص (٤٠).

(٢) إنطابلس: اسم برقة قبل الفتح الإسلامى وهى كلمة رومية معناها بالعربية، خمس مدن، تسمى الآن العقورية ، وشحات، وبنغازى، وسوسة، إلخ.

(٣) ليبيا منذ الفتح حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص (٢٩) .

يكونوا قد ساهموا فى نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التى كفلها الإسلام لهم، وأخيرا المساهمة فى بيت مال المسلمين الذى يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل بما فى ذلك أهل الذمة بدون فرق بين المسلمين دافعى الزكاة، وأهل الذمة دافعى الجزية ، فالكل ينعم بعدل الإسلام ورحمته بضمان تلك الواجبات وغيرها .

وبهذه الروح والأخلاق ، وبتلك العدالة والإنصاف ، استجاب كثير من الشعوب لنداء الفطرة ، دين العدل والمساواة ، دين رب الأرض والسماء ، بمجرد دخول جيوش المسلمين الصادقين إلى أراضيهم ، فأصبحوا إخوانا فى العقيدة ، وحملوا مع الفاتحين الرسالة وأدوا الأمانة .

فإذا كان ذلك كذلك فيجب الاهتمام بأمر إعداد العدة والجهاد فى سبيل الله منهاج النبوة والخلافة الراشدة ، وذلك بإقامة هذه الفريضة كما ينبغى ، حتى تقام أحكام كثيرة بدونها لا تقام ، بل تتعطل بالكلية كما قال تعالى ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة :٢٩] .

وبعد فقد واصل عمرو بن العاص رضي الله عنه مسيرته المباركة بعد أن استسلمت مدينة برقة إلى ناحية مدينة طرابلس ، وخلال مسيره ناحية الغرب ، ثم فتح بقية المدن التابعة لبرقة كمدينتى توكرة ، وبنغازى ، ثم وصل إلى مدينة أجدابية التى رفع معظم أهلها شعار الصلح على أن يدفعوا خمسة آلاف دينار فرعونى ، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً ، حتى أسلم معظم سكانها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة ، والصدق والأمانة ، والطهارة، والعفة ، ما لم يروه من قبل فى جيوش تلك الإمبراطوريات الهالكة !!

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد :« وبعد أن خضعت مدينة برقة للجيش الإسلامى ، تابع عمرو بن العاص سيره مع الطريق الساحلى القديم مستهدفا مدينة طرابلس ، ففتح فى طريقه بقية مدن برقة مثل توكير (توكرة)

وبرنيق (**بنغازى**) وكانتا أطلالاً مهجورة أو على الأقل كانت حالتهما قد تدهورت بحيث لم تستحقا أن تذكرا فى أخبار الفتح ، وكانتا من قبل مدينتين هامتين فى الإقليم ، وفى نفس السنة ٢٢هـ-٦٤٢م وصل عمرو بن العاص إلى مدينة أجدابية فافتتحها صلحا على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينار ، وقد أسلم معظم أهلها ، وبينما عمرو بن العاص يواصل سيره نحو طرابلس ، كان يعمل على تثبيت فتح برقة وتأمين مواصلاته؛ ولذلك أرسل عقبة بن نافع على رأس قوة من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة، بينما واصل هو مسيرته مع معظم الجيش نحو طرابلس » [١] .

ولا يخفى أن الدور الذى قام به عقبة بن نافع رضي الله عنه خلال هذه الحملة المباركة، كان دور الإسناد ، والاستطلاع، والتأمين ، حيث أمن لحملة عمرو بن العاص رضي الله عنه مناطق الجنوب حتى وصل مدينة زويلة فافتتحها ، بذلك استطاع عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يسير نحو جهة الغرب وهو آمن من الجهات الثلاث ، جهة الشرق لقبول أهلها الإسلام ، وجهة الجنوب لقبول أهلها الإسلام والدخول فى طاعة جيش عقبة ، أما جهة الشمال فكانت متمثلة فى شريط البحر الأبيض المتوسط ، وكان آنذاك جهة آمنة فما بقيت إلا جهة الغرب؛ لذلك وجه معظم الجيش نحو طرابلس ، وما حولها من المدن ، فكان له ما قصد .

يقول الدكتور صالح مصطفى :« أما عقبة بن نافع فقد توجه بتلك القوة فى اتجاه الجنوب تاركا ودان [٢] على يمينه ، وفاتحا المناطق الداخلية حتى بلغ مدينة زويلة فافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة رأس من الرقيق ، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد مهد لقيام الإسلام فى مناطق نائية فى الصحراء الجنوبية، إلى حد أن عمرو بن العاص رضي الله عنه قد كتب إلى الخليفة يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع

---

(١) المرجع السابق ص (٣٠ ، ٣١).

(٢) ودان : مدينة فى جنوب سرت ، وكانت مضمومة إليها وهى جزيرة لا تقصر فى رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة، ويذكر البكرى أن ودان مدينة فى بلاد البربر وهى من حيز برقة يسكنها قوم من العرب ، وبينها وبين قصر ابن ميمون ستة أيام ، انظر : معجم ما استعجم (٤ / ١٣٧٥) .

المغرب ، فبلغ زويلة ، وأن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم ، حسنة طاعتهم ، قد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعا « أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردها فى الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة فتحمل إلى مصر ، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ، ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم » .

وحينما كان عقبة يتجه نحو الجنوب كان عمرو بن العاص يسير نحو طرابلس وفى طريقه إليها مر بسرت (١) ولم يواجه عناء فى فتحها ، إذ لم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحا ، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر ، فاكتفى المسلمون باستسلامها ثم ساروا فى طريقهم إلى لبدة (٢) فوجدوها خراباً مهدمة وحولها قليل من السكان خليط من البربر والروم فافتتحوها دون مقاومة (٣) .

المبحث الثانى: حملة عمرو بن العاص على طرابلس

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح برقة وتأمين حدودها ، تقدم بمعظم جيشه جهة الغرب حتى بلغ مدينة طرابلس ذات الحصون المنيعة ، والأسوار الحصينة التى كانت تحيط بها من جميع الجهات شرقا، وغربا وجنوبا إلا ناحية الشمال التى كانت مطلة على البحر ، فلما رأ ى عمرو تلك الحصون المنيعة والأسوار الحصينة اختار موقعا من ناحية الشرق، ورابط فيه وكان يرسل طلائعه كل يوم لتلك الأسوار لعلهم يجدون مدخلا إلى داخل المدينة .

يقول الدكتور صالح مصطفى :« ثم تقدم عمرو بن العاص بجيشه حتى وصل إلى مدينة طرابلس ، وكانت محصنة ، إذ إن الأسوار تحيط بها من جميع الجهات، فيما عدا الجهة البحرية حيث كان الميناء ، ورابط عمرو رضي الله عنه فى موضع مرتفع يشرف على المدينة من جهة الشرق وظل محاصرا لها لمدة شهر » (٤) .

---

(١) سرت : وهى مدينة كبيرة على سيف البحر الأبيض المتوسط .

(٢) لبدة : تقع شرق طرابلس بنحو (١٢٤) ك.م أسست فى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ، احتلها الروم لسنة (٤٢) ق .م انظر: الزاوى معجم البلدان الليبية (٥ ، ٦) .

(٣) المرجع السابق (٣١ ، ٣٢) . (٤) المرجع السابق (٣٢ ، ٣٣) .

ويقـول الأستـاذ الطاهر الزاوى وهو بصـدد حـديثـه عن مناعة مـدينة طرابلس وأسـوارها : « وقـد كـان سـور طرابلس من المناعـة بحيـث لم يقـدر المسلمـون أن يتسوروه كما لم يقدر أن يقتحموا أبوابه ، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب، والجنوب ، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر »(١) .

وهكذا استمر عمرو بن العاص فى رباطه وحصاره لمدينة طرابلس قرابة الشهر أو يزيد ، حتى منّ الله عليهم بتلك الحصون التى ظن أهلها أنها مانعتهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فقد تمكنت مفرزة من طلائع الجيش المسلم خلال تجوالها الاستطلاعى حول مدينة طرابلس من العثور على معبر إلى داخل المدينة خلال جهة السور الغربية الشمالية، حيث نزلوا إلى البحر فوجدوا أن هنالك سبيل للدخول من تلك الفجوة التى كانت بين نهاية السور وسطح البحر ، فدخلوها من فورهم، وكانت تلك بداية نهاية الحصار الذى طال قرابة الشهر .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى :« وبقى المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شىء ، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا ، وفى ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف أو الصيد- كما يقول ابن عبد الحكم - وكانوا مسلحين بسيوفهم ورماحهم ، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر ؛ لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا ، وقد يكون البحر فى جزر مما زاد فى اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر ، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة ، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة ، وهو مكان مرتفع يقع فى الشمال الغربى من المدينة وقد أعلموا سيوفهم فى رقاب الروم ، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو وبقية المسلمين تهليل إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم ، وتكاثر المسلمون ، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم

---

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ،ص (٦٣ ، ٦٤).

يسعهم إلا الفرار »(١).

ويبدو واضحا من هذه القصة أن سكان مدينة طرابلس من الروم وغيرهم لم تكن لهم المقدرة على مقاومة جيوش المسلمين؛ لذلك تم الاستيلاء على المدينة بدون كبير عناء ، ولا مقاومة تذكر خارج السور ولا داخله ، حيث فر من فر، وأما من بقى منهم داخل المدينة ، فقد اختار الدخول فى أمن المسلمين ، وحيث كفلوا لهم حماية أنفسهم وأعراضهم ومعابدهم ، وأملاكهم .

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى : « ولما تم استيلاء العرب (٢) على المدينة أمنوا من بقى فيها ، وكفلوا لهم أموالهم ومنعوا التعدى على أعراضهم ومعابدهم وأنفسهم ، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة ، مما يدل على أنهم كانوا فى حكم المستسلمين ، ويقال: إن المسلمين بنوا فيها مسجدا ، وإن مسجد أحمد باشا بنى على أنقاضه » (٣).

المبحث الثالث : حملة عمرو بن العاص على صبراتة

وقبل مغادرة عمرو بن العاص رضي الله عنه مدينة طرابلس إلى صبراتة(٤) ، قام

---

(١) تاريخ الفتح فى ليبيا (٦٣ ، ٦٤).

(٢) وددنا من شيخنا الفاضل أن يسمى هذه الجيوش بما سماها الله عز وجل فى كتابه ، قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾(الحج : ٧٨) بدل تسميتهم بالعرب ؛ لأن هذا الدين دين عالمى، وهذه الجيوش مختلطة من جميع الأجناس التى استسلمت لله ودخلت فى دين الله أفواجا ، فكيف إذن حصر كل هذه الأجناس فى جنس واحد ؟ بل كيف تسمى هذه الفتوحات الإسلامية بفتوحات عربية كما سمى شيخنا الفاضل مصنفه بهذا الاسم: « تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ».

(٣) تاريخ الفتح العربى ص (٣٥).

(٤) صبراتة : مدينة قديمة تقع غربى مدينة طرابلس بنحو (٦٧كم) على ساحل البحر الأبيض المتوسط أنشأها الفينيقيون حوالى (٩٠٠أو٨٠٠ ق . م) وهى مدينة من أعظم المدن التى كانت فى الشمال الإفريقى ، وكانت أكبر من طرابلس ، وأعظم منها عمرانا ومدنية ، وأوج تجارة. (راجع: تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ٦٦).

بتثبيت أركان الحكم فيها ، وتأمينها ضد هجمات الروم الخارجية ، حيث هدم بعض أسوار المدينة مخافة تحصن الأهالى ومقاتلة المسلمين عند مغادرتهم لمدينة طرابلس ، ثم بعد ذلك جد السير بهذه الحملة المباركة الى مدينة صبرة - صبراتة - التى تقع غربى مدينة طرابلس اتجاه الحدود الليبية التونسية ، حيث وجه خيله بقيادق عبد الله بن الزبير إلى مدينة صبراتة ، ففتحها على حين غفلة من أهلها ، وكان ذلك فى الصباح الباكر وقت فتح أبوابها ، وإخراج الماشية منها لترعى خارج السور.

يقول الدكتور صالح مصطفى : « وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مدينة طرابلس ، وجه خيله على غفله إلى مدينة صبرة - وهو فى اتجاه الحدود التونسية- بقيادة عبد الله بن الزبير ، وكان أهل المدينة قد تحصنوا عندما علموا بمحاصرة عمرو بن العاص لمدينة طرابلس ، ولكن عندما امتنعت مدينة طرابلس ، اطمأن أهل صبرة وظنوا أن عمرا لا طاقه له بهم ، ولكن عمرا كان قائدا بارعا ، فما أن ظفر بمدينة طرابلس حتى جرد خيلا كثيفا من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فتقدمت الخيل إلى هذه المدينة فى الصباح الباكر ، وكان أهلها قد أطمأنوا وفتحوا أبواب المدينة ، وأخرجوا ماشيتهم لترعى فاستطاع ذلك الجيش أن يحتوى على الجيش بسهوله ويسر » (١) .

ولما فتح الله عليهم مدينة صبراتة رأى عمرو بن العاص قائد الحملة المباركة أن التقدم بهذا الجيش الذى استمر فى فتح البلدان من برقة وضواحيها ، مرورا بأجدابية وريفها ووقوفا على سرت وطرقها ، ووصولا إلى ودان ونخيلها ، وحصارا لطرابلس وفتحها ، وأخيراً صبراتة واستلامها ، وتشتيت لجهوده ، وتحفيز للعدو لضربه ، خاصة وأن رجال مخابراته قد أخبرته بأن هناك تجمعات من الروم والقبائل المحلية بدأت تلتقط أنفاسها وترتب أمورها لمحاربته ، فلما رأى ذلك أدرك أن التقدم بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب.

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربى ص (٣٥).

رضي الله عنه فيه نوع من التجاوزات العسكرية المقررة لفتح برقة وطرابلس؛ لذلك كتب إليه يستأذنه فى التوغل داخل إفريقية ، وأن يمده بالمدد المناسب، وفق الأهداف الجديده لفتح برقة ومن حولها .

يقول الدكتور صالح مصطفى :« ولم يشأ عمرو أن يتقدم لقلة القوة التى معه؛ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والقبائل المحلية ما زالت أمامه ، كما أن عيونه أخبرته بكثرة تجمعاتهم فى تلك المدن، ومن أجل ذلك وتنفيذا لما تقتضيه الخطط الحربية أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى التقدم نحو إفريقية طالباً منه المدد إذا ما وافق الخليفة على ذلك فكتب له يقول :« إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ، ويفتحها على يديه فعل »(١).

المبحث الرابع : حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر

لا يخفى أن مدينة شروس الواقعة فى جبل نفوسة والتى كانت تدين بدين النصارى ، تعتبر قريبة جداً لمدينة صبراتة؛ لذا حاول عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يجتهد فى فتح هذه المدينة قبل وصول رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتقدم إليها وما زال بها حتى فتحها ، ولكن ما أن فتحها حتى جاءه رد خليفة المسلمين على رسالته بشأن الاستراتيجية العسكرية الخاصة بشؤون إفريقية ينص فيها على عدم التوسع بالجيش فى فتح هذه الأقاليم .

وهذا نص رسالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه :« لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة ، غادرة مغدور بها ، لا يغزوها أحد ما بقيت »(٢).

ولهذا السبب وغيره رجع عمرو بن العاص من جبل نفوسة وتوجه إلى طرابلس ، فما أن قام فيها حتى وصله كتاب المقوقس يخبره فيه بأن الروم يريدون نكس العهد ، ونقض ما كان بينهم وبينه ، وقد كان عمرو بن العاص قد أبرم

---

(١) المرجع السابق ، ص (٣٦ ، ٣٧). (٢) نفس المصدر ص (٣٧).

عهدا مع المقوقس قبل خروجه من الإسكندرية متجها إلى برقة ، بألا يكتمه المقوقس أى أمر يحدث بعده .

يقول الدكتور صالح مصطفى : « ولهذه الأسباب رجع عمرو بن العاص من نفوسة بكتاب عمر رضي الله عنه ، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص قد عقد عهدا بينه وبين المقوقس، قبل أن يغادر الإسكندرية ، على ألا يكتمه المقوقس أمراً يحدث ، وعندما وصل عمرو عائدا إلى إقليم طرابلس، أتاه كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينه وبينهم،فانصرف عمرو راجعاً مبادراً لما أتاه إلى مصر »(١).

وهكذا أنجز عمرو بن العاص هذا الفتح المبارك الذى تجاوز فتح الأراضى إلى فتح القلوب التى آمنت بالله رباً، وبالإسلام دينا ومنهجاً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فعاشت تلك الشعوب حياة العدل والمساواة، والتسامح والإخاء فى ظل الشريعة السمحاء على أيدى أولئك الفاتحين الذين يبتغون بذلك الفتح وجه الله ورضوانه .

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – بهذا الصدد : « لقد كان الفتح الإسلامى فتحا فريدا فى تاريخ البشرية كلها، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيراً ، لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها، إنما كان فتحا لقلوب ساكنى الأرض، وغرس بذرة العدل والتسامح والمساواة، والإخاء فيها، وإن أى إنسان مخلص للإنسانية، يعرف طبيعة الفتح الإسلامى ، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعاً، وألقى تلك البذرة الطيبة الخيرة .

إن الحروب الإسلامية والفتوحات ملحوظة فيها : أن تتحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة، العدالة المطلقة لجميع الناس، فإذا هى لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك، لم تكن حرباً إسلامية ولا فتحا إسلاميًا، ولم تر ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العالم الإسلامى، وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوما ذات قيمة فى حساب الإسلام ، وإنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذى يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية، وهذا الذى كان يضيف إلى الإسلام شعوبا وقلوباً وهذه هى غاية الفتح الإسلامى لا الأرض ولا الفىء، ولا الغنيمة، ولا الغلبة على البلاد والعباد » (٢).

---

(١) المرجع السابق ص (٣٨) . (٢) راجع كتاب دراسات إسلامية لسيد قطب (٤٤ – ٤٦) .

المبحث الخامس: فاتح ليبيا فى سطور

المطلب الأول اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه ونسبه: لقد تقدم فيما مضى أن قائد فتح برقة وطرابلس هو عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى، وكنيته أبو عبد الله، وأبو محمد (١)، وأمه سلمى بنت حرملة (٢)، وتلقب بالنابغه، وهى من عنزة (٣).

ميلاده: وأما فيما يتعلق بميلاده، فإن الكتب التى ترجمت لعمرو رضي الله عنه - فيما أعلم- لم تنص على تحديد السنة التى ولد فيها لكنه روى البيهقى عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب».

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الأثر: «فكان عمره لما ولد عمر رضي الله عنه سبع سنين» (٤).

إسلامه: لقد أسلم عمرو فى شهر صفر، سنة ثمان للهجرة، وكان إسلامه هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة - رضي الله عنهم - فى وقت واحد (٥).

ولقد سئل عمر رضي الله عنه عن سبب تأخر إسلامه إلى هذا الوقت فقال: «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازى حلومهم الجبال، ما سلكو فجًّا فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً، فلما أنكروا على النبى ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر فى أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى النبى ﷺ فإذا الأمر بَيِّن فوقع فى قلبى الإسلام» (٦).

ولا يخفى أن قصة إسلامه وشدة حيائه من النبى ﷺ قد وردت فى صحيح مسلم، حيث قال عمر رضي الله عنه: «لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى، ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته .. فلما جعل الله الإسلام

(١ - ٣) القيادة العسكرية فى عهد الرسول ﷺ: للدكتور عبد الله الرشيد ص (٣، ٦) اعتمدت على هذا الكتاب فى ترجمة عمرو بن العاص.
(٤، ٥) راجع المصدر السابق ص (٦٢٥، ٦٢٦).
(٦) المرجع السابق ص (٦٢٥، ٦٢٦).

فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت : ابسط يمين فلأبايع فبسط يمينه، قال : فقبضت يدى، قال : "ما لك يا عمرو ؟!! «قال : قلت : أردت أن أشترط»، قال : "تشترط بماذا ؟» قلت : أن يغفر لى، قال : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ » وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ فى عينى منه، وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالاً له، ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقت؛ لأنى لم أكن أملأ عينى منه » (١) .

المطلب الثانى: مناقبه

لا يخفى أن له من المناقب الجليلة، والأخلاق النبيلة ، والمواقف الحميدة، مما يجعل هذه السطور غير كافية لأداء حق هذا القائد الصحابى الجليل، ولكن يمكن أن نجمل هذه المناقب الجليلة والمواقف الحميدة فى عدة نقاط :

١-أن الرسول ﷺ لم يعدل به أحداً من الصحابة : قد جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله :« ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد أحداً منذ أسلمنا فى حرب » (٢) .

٢- شهادة رسول الله ﷺ له بالإيمان : كما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :« ابنا العاص مؤمنان ، هشام، وعمرو »(٣) .

٣- شهادة رسول الله ﷺ له بأنه من صالحى قريش : فقد جاء عن ابن أبى مليكة قال : قال طلحة بن عبيد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن عمرو ابن العاص من صالحى قريش »(٤) .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما كان قبله وكذا الهجرة و الحج (١/ ١١٢) رقم (١٢١) .

(٢) وهذا الحديث أخرجه البيهقى باب إسلام عمرو بن العاص (٤ /٤٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢ /٣٢٧ ، ٣٥٣)، والحاكم فى كتاب معرفة الصحابة ، باب ذكر مناقب هشام بن العاص ، المستدرك على الصحيحين (٣ /٢٤٠) وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم .

(٤) أخرجه الترمذى ، كتاب المناقب ، باب مناقب عمرو بن العاص رقم (٣٨٤٤).

المبحث السادس : أهم صفاته القيادية

المطلب الأول : الشجاعة

من الصفات التى كان يتمتع بها عمرو :الشجاعة، فقد كان جريئا مقداما ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض عمار الحرب ، ولا يخشى الموت ، ومن المواقف التى برزت فيها هذه الصفة : ما حدث فى معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبعمائة من المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات، فبقى فى مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم ، ومن هذا يتبين أثر تحلى القائد بهذه الصفة فى كسب النصر .

المطلب الثانى : الرأى السديد والعقل الراجح

كان عمرو رضي الله عنه ذا رأى سديد وعقل راجح، فهو معدود من دهاة العرب المقدمين فى الرأى، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً فى رأيه قال: « أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد » يريد خالق الأضداد.

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب، وفى ذلك يقول الثعالبى رحمه الله : « ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة : معاوية، وعمرو بن العاص ، والمغيرة ابن شعبة ،وزياد بن أبيه رضى الله عنهم » ولرجاحة عقله رضي الله عنه بعثته قريش إلى الحبشة للتفاوض مع النجاشى بشأن رد المهاجرين إلى مكة .

المطلب الثالث : بُعد النظر

كان عمرو رضي الله عنه يتمتع بصفة بعد النظر، فهو يقدر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع ؛ ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد ذلك أنه حين فزع أهل المدينة لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد ، بينما تفرق الناس.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : « كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى

أبى حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفاً فاحتميت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس، ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله؟ »، ثم قال: « ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان »(١).

المطلب الرابع: القدرة على جمع المعلومات

يُعد جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكرى، ووضع الخطة المناسبة له؛ ولهذا كان عمرو رضي الله عنه يحرص على جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض التى سيقاتل فيها .

ومن الأمثلة على ذلك : ما حدث فى غزوة ذات السلاسل حيث استعان بأخواله من « بلي » فى إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه ، مما كان سببا فى انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمرا ضروريا لوضع صورة القائد عن عدوه ، وسلاحه ، وخططه العسكرية وحلفائه، فإن عَمْراً كان يقدر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء كان ذلك بالاستطلاع الشخصى أو بإرساله العيون والأرصاد، ومن أمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصى ما قام به رضي الله عنه من استكشاف مقر قائد الروم « أرطبون »حيث اطلع على مواطن الضعف فى مواقع جيش الروم.

المطلب الخامس: الماضى الناصع المجيد

من الصفات القيادية التى توافرت لعمرو رضي الله عنه : الماضى المجيد، فهو من بنى سهم، وهذا البطن من قريش انتهى إليهم الشرف فى الجاهلية، حيث كانت لهم السيادة والسلطان فى مكة.

وقد اختص بنو سهم من بين بطون قريش الأخرى بأنهم كانوا أصحاب الحكومة، وهى أشبه ما تكون بالقضاء، وفض المنازعات فى المسائل الدقيقة حيث كان يحتكم القريشيون وغيرهم من العرب إلى زعماء بنى سهم الذين اشتهروا بسداد الرأى، والحلم، والدهاء، والحزم.

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٠٣)، والنسائى بسند حسن .انظر : الإصابة فى تمييز الصحابة (٣/ ٣).

إن لبنى سهم أيضا الرئاسة على الأمور الخاصة بآلهتهم وهى قريبة الشبه فى عصرنا بالأوقاف العامة، وكان الشأن فى ذلك : أن يقوم صاحب هذه الوظيفة بالتصرف فى هذه الأموال وفق القواعد التى جروا عليها فى العمل بأموال أوثانهم.

وأما أبوه العاص بن وائل بن هشام، كان من أشراف قريش وذوى الجاه فيهم ، ومن أبرز الأدلة على ذلك : أن عمر بن الخطاب لما أسلم وثبَتَ عليه قريش حتى أيقن بالهلاك، وبينما هم قائمون على رأسه إذ أقبل العاص بن وائل فقال لهم : خلوا عن الرجل، أترون بنى عدى بن كعب يسلمون لكم صاحبكم؟ وعندئذ انفض المشركون عن عمر .

كما كان عمرو نفسه من ذوى الشرف فى الجاهلية، ومن عرفوا بسداد الرأى والحزم ، فقد حاز الشرف من جميع جوانبه ، فهو ذو نسب شريف ، كما أنه تربى فى بيت شريف هو بيت العاصى بن وائل، وعاش فى بلد شريف هو مكة المكرمة.

المطلب السادس

اتخاذ القرارات الصحيحة وتنفيذها فى الوقت المناسب

من الصفات القيادية التى كان يتحلى بها عمرو رضي الله عنه اتخاذ القرارات الصحيحة، فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتى تؤدى الغرض منها، من أمثله على ذلك : ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين فى اليرموك، إذ إن هذا القرار يحقق مصلحة كبيره فى هذا الظرف الحاسم، وهو وحدة المسلمين وإظهاو هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهى: تفرق الجيوش الذى هو مظنة الفشل والخذلان، مما يغرى أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو رضي الله عنه يعتمد فى ذلك على أسس اتخاذ القرارات ابتداء من الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية فى الحسبان، مثل: الطبيعة الجغرافية، والأهمية الاستراتيجيه للموقع والطبيعة البشرية، سواء كانت فى جانب جنده، أو لدى جنود أعدائه، حتى ينتهى بإصدار القرار المناسب فى وقته (١) .

---

(١) راجع هذه الصفات ، كتاب القيادة العسكرية (٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٣٢).

المبحث السابع
قواعد ومبادئ فى الإستراتيجية العسكرية

فإذا كانت تلك شخصية القائد عمرو الماهر البارع، فما هى إذاً أسس استراتيجيته الحربية التى طبقها فى تلك الفتوحات الإسلامية ؟

المطلب الأول : الحرص على تطوير القدرة الحركية

لما وصل عمرو رضي الله عنه إلى مصر حرص على تطوير القدرة الحركية لجيشه ، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة فى جزيرة « الروضة » لاستخدامها فى نقل قواته، كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه.

ثم إن إصراره على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن إلا وسيلة لإزالة كل ما يعيق من استخدام القدرة الحركية، وكان اهتمام عمرو بالشؤون الإدارية، والمباغتة، والاقتصاد بالقوى وغيرها، إنما هو من أجل القدرة الحركيه وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق : يتبين أن هذا المبدأ لدى عمرو رضي الله عنه يقوم على ركيزتين أساسيتين هما :الركيزة الأولى : إزالة السدود والحواجز التى يمكن أن تعيق القدرة الحركية، الركيزة الثانية :اختيار محاور العمليات التى تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.

المطلب الثانى: الشدة على أعداء المسلمين

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثانى سنة (٢٥هـ)غدر أهل قرية تسمى (خربة) وكان أهلها رهباناً بمؤخرة جيش عمرو وقتلوهم، ولما وصل عمرو إلى الاسكندرية وقام بها وجه مولاه « وردان » فقتلهم وخرب قريتهم وتسمى الآن « خراب خربة وردان ».

ومن هذا الموقف نستنتج: أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر، وذلك لكى يردع الأعداء عن التمادى فى ارتكاب مثل هذا الخلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن لهم الأمن والسلامة، وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف فى رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه فى ذلك فرفع السيف عنهم، وبنى فى ذلك الموضع مسجدا يعرف: بمسجد الرحمة فى الإسكندرية.

ومن هذا الموقف: ينبغى أن يعلم أن عَمْراً رضي الله عنه كان يترك فى مثل تلك الظروف القاسية التى تدعو إلى الشدة والصلابة مجالا للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له؛ لأنه كان ينطلق من منطق البناء والإصلاح، لا الحقد أو حب الانتقام.

وقد كان عمرو رضي الله عنه صلبا عند خوض القتال، ففى بلبيس ـ مثلاً ـ قام بتصفية قوات العدو وإبادتها كاملة، ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو رضي الله عنه فى المجتمع الجديد إنما هو مجرد وسيلة وليس غاية فى حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمى الذى يفتقر إلى الاستقرار والهدوء.

المطلب الثالث: ادخار القوى

لقد كانت قوات المسلمين فى جميع الحروب التى خاضوها أقل من قوات أعدائهم؛ ولهذا فكر القادة العسكريون اقتداءً بالرسول القائد ﷺ فى إيجاد البديل الذى يعوض عن هذا النقص فى العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه، ومن الأمثله على ذلك: أن عَمْرا رضي الله عنه عندما أراد فتح إجنادين وجد أن «أرطبون» الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما فى كل من «إيلياء» و«الرملة» ففصل عمرو جيشه إلى قوتين صغيرتين وعين على كل واحدة

منهما قائداً، وأمرهما بمنع أى تحرك لقوات الروم إلى « أجنادين » ، أما القوه الرئيسية فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم ، وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان .

المطلب الرابع : خفة الحركة

كان عمرو رضي الله عنه يؤمن بمبدأ خفة الحركة ، ويحسن تطبيقه فى الوقت المناسب، ومن الأمثلة على ذلك : أن عَمْراً رضي الله عنه عندما احتل « طرابلس » أمر قواته بالتوجه إلى صبراتة ـ ليلاً ـ فتحركت القوات بقيادة عبد الله بن الزبير فدخلها صباحاً، واستسلم أهل المدينة دون قتال، وفى ذلك يقول ابن عبد الحكيم :« كان من بسبرت متحصنين .. فلما بلغوا محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً، ولا طاقة له بهم آمنوا، فلما ظفر عمْرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة « سبرت » وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحداً، واحتوى جند عمرو على مافيها ورجعوا إلى عمرو [١] .

المبحث الثامن
أعمال عمرو بن العاص فى عهد الرسول ﷺ

لقد قام عمرو رضي الله عنه بأعمال جليلة فى عهد الرسول ﷺ وكان من أهم هذه ألاعمال الآتية :

١ـ قيادة سرية ذات السلاسل لسد هجوم قضاعة على المدينة .

٢ـ هدم سواع بعد فتح مكة .

٣ـ دعوة ابْنَى الجلندى « جيفر ، وعباد » إلى الإسلام، وقد ذهب عمرو رضي الله عنه إلى عمان ودعاهما إلى الإسلام وصدقا بالنبى ﷺ ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بين قومهم وكانا له عونا على من خالفه [١] .

---

(١) المرجع السابق ، ص (٦٣٤) .

(١) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد ، (١ / ٢٦٢)، جوامع السيرة لابن حزم، ص(٢٤، ٢٩) .

المطلب الأول : أعماله فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما

عقد أبو بكر الصديق لعمرو بن العاص رضي الله عنه لواء الجهاد ووجهه لحرب قضاعة حين ارتدت عن الإسلام، ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك إلى فلسطين، وأمره بنجدة أبى عبيدة بن الجراح ومشاورته.

وفى معركة اليرموك كان عمرو رضي الله عنه على الميمنة، فكان لمشاركته أثر كبير فى انتصار المسلمين، كما كان لعمرو رضي الله عنه مشاركة فعالة فى حركة الفتح الإسلامى بالشام ، فقد قام بمشاركة شرحبيل بن حسنة فى فتح بيسان، وطبريه، وأجنادين. (٢) .

كما قام رضي الله عنه بفتح غزة، وسبسطية ونابلس واللد،و يبنى، وعمواس، وبيت جبرين، ويافا، ورفح، وبيت المقدس، ولم يقتصر عمرو رضي الله عنه على فتح بلاد الشام وحدها، بل شمل أيضا بعض مشاهير بلاد مصر، حيث كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصدر أمره إلى عمرو رضي الله عنه بعد الفراغ من فتوح الشام أن يسير بمن معه من الجند إلى مصر، فخرج رضي الله عنه حتى وصل إلى العريش ففتحها.

كما شملت حركة الفتح أيضاً : الفرما،والفسطاط وحصن بابليون،وعين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشرود، وتنيس ، و دمياط، وتونة، ودميرة، وشطا، ودقهلة، وبنا، وبوصير، والإسكندرية، وبلاد إفريقية أخرى مثل : برقة وزويلة وطرابلس(٣) .

المطلب الثانى : عمرو رجل الآخرة .

إن مما يجب التنويه به فى هذا المقام، أن حرص عمرو على تولى القيادة العسكرية وغيرها من الولايات، إنما كان يدفعه إليه الإخلاص للإسلام والمسلمين، والرغبه فى ثواب الله تعالى ، ويدل على ذلك الأمر ما يأتى :

---

(٢) انظر: تاريخ الطبرى (٣/ ٦٠٥)، والكامل لابن الأثير (٢/ ٤٩٨).

(٣) المرجع السابق (٦٣٤-٦٤٢) القيادة العسكرية فى عهد الرسول ﷺ.

أولاً : شهادة الرسول ﷺ له بالإيمان.

ثانياً: جوابه للرسول ﷺ لما دعاه للاستعداد لغزوة ذات السلاسل، فعن موسى بن على عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص يقول : بعث إلىَّ رسول الله ﷺ فقال: « **خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتنى** » فأتيته وهو يتوضأفصعد فى النظر فقال : « **إنى أرى أن أبعثك على جيش فيسلمك الله، ويغنمك، وأرغب لك فى المال رغبة صالحة** » قال : قلت : يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال، ولكنى أسلمت رغبة فى الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال : « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** » (١).

ثالثاً: بكاؤه عند موته وخوفه من الله فى تلك الولايات التى صارت إليه، وقد ورد فى صحيح مسلم ما يدل على ذلك فى حديث طويل : « عن ابن شماسة المهرى قال : حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه **وهو فى سياق الموت، فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار ... وفيه قال : ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالى بها** » (٢).

ولقد ثبت بأنه كان يدعو فى آخر حياته بهذا الدعاء :« **اللهم إنك أمرتنا فأطعنا، ونهيتنا فركبنا، فلابرىء فأعتذر، ولاعزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا أنت، ومازال يقولها حتى مات** » (٣).

ففى هذه البراهين الساطعة قطع لألسنة المتقولة الذين يتهمون عَمْراً بأنه إنما آمن طمعاً فى المال أو حبًّا للرياسة، ولقد زيف الروافض فى سيرة عمرو بن العاص ونسبوا إليه روايات ظلماً وزوراً، ومن ذلك قصة التحكيم التى فندها الإمام أبو بكر العربى فى كتابه النافع « **العواصم من القواصم** »، فذكر قاصمة التحكيم .

فقال فى كتابه القيم :« وقد تحكم الناس فى التحكيم فقالو فيه ما لا يرضى الله،

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤ /١٩٧، ٢٠٢) وأخرجه الحاكم فى كتاب البيوع ، باب: لابأس بالغنى لمن اتقى ثم قال : صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج، (١ /٢١١) رقم (١٢١) .

(٣) سير أعلام النبلاء (٣ /٧٦).

وإذا لاحظتموه في الكتب الأكثر عدم الدين ، وفي الأقل جهل بَينٌ، والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة الثقات كخليفة بن خياط، والدار قطني، أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً، ونزلوا على الفرات بصفين ، اقتتلوا أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، ويوم الجمعة وليلة السبت ، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، أبو موسى من جهة على رضي الله عنه ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلا تقياً عالما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعاً في القول، وأن العاص كان ذا دهاء وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيداً لما أرادت من الفساد، وتبع ذلك بعض الجهال وصنفوا فيه حكايات.

وإنما بنو ذلك على أن عمراً غدر بأبي موسى في قصة التحكيم فصار له الذكر في الدهاء والمكر، وقالوا: إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندل وتفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول فتقدم فقال :

إني نظرت فخلعت عليًّا من الأمر ، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي، وقال عمرو : إني نظرت فأثبت معاوية على الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده فأنكره أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على هذا الاختلاف.

ورد القاضي أبو بكر العربي على هذه الرواية وذكر عاصمة من تلك القاصمة فقال : هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط ، وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة، ووضعته التاريخية ، فتوارثته أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله[١].

---

(١) انظر : العواصم من القواصم ، لأبي بكر بن العربي المالكي (١٧٥ - ١٧٩).

نقد الرواية الباطلة فى قضية التحكيم والتى طعن من خلالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى رضى الله عنهما

ولما حادثة التحكيم من أهمية فى التاريخ السياسى للدولة الإسلامية، فإنه من الضرورى إجلاء حقيقة وقائعها، حيث أسىء تصوير هذا الحادث، بقدر ما أسىء تفسيره، فنتج عن الأمرين خلط كثير وإساءة إلى مكانة الصحابة وقدرهم ، حيث باتت القصة الشائعة بين الناس عن حادث التحكيم تتهم بعضهم بالخداع والغفلة، وتتهم آخرين بالصراع حول السلطة . وبإخضاع هذه الرواية للنقد والتحليل يلاحظ عليها أمران : ضعف سندها واضطراب متنها، أما سندها ففيه راويان متهمان فى عدالتهما : أبو مخنف لوط بن يحيى، وأبو جنان الكلبى .

الأول: ضعيف ليس بثقة « أبو مخنف لوط بن يحيى »

-قال فيه الإمام أبو حاتم : متروك، وقال فيه الدارقطنى : ضعيف . وقال فيه ابن معين : ليس بثقة، وقال فيه ابن عدى: شيعى محترف صاحب أخبارهم ، وقال فيه الذهبى : أخبارى تالف لا يوثق به (١) .

أما الثانى : أما أبو جنان الكلبى : قال فيه ابن سعد : كان ضعيفاً (٢) وقال البخارى وأبو حاتم : كان يحيى القطان يضعفه، وقال عثمان الدارمى : ضعيف، وقال النسائى : ضعيف (٣).

يكفى أن فى الرواية المذكورة وجود شيعى محترف طعن فى عدالته أهل الجرح والتعديل ، هذا من ناحية السند .

أما من ناحية المتن فهناك أمور عدة تبطل الرواية، والذى يهمنا فى هذا المبحث أن القول بأن أبا موسى الأشعرى كان فى قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافى الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه ودينه، والتى تثبت له بتوليه بعض أعمال الحكم والقضاء فى الدولة الإسلامية منذ عهد

---

(١) انظر : تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن ، د. محمد محزون (٢ / ٢٥٣).

(٢) ابن سعد فى الطبقات (٦ / ٣٦٠).

(٣) انظر : تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن (٢ / ٢٥٣).

الرسول ﷺ فقد استعمله النبى ﷺ على زبيد وعدن ، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البصرة ، وبقى واليا عليها إلى أن قتل عمر ، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على الكوفة ، وبقى والياً عليها إلى أن قتل.

إن مما يؤكد عدم صحة الرواية المذكورة على قضية التحكيم أن العلماء انتقدوها ورووا خلافها فى كتبهم ، فقد أخرج الدارقطنى عن حصين بن المنذر أنه جاء فضرب فسطاطه قريبا من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية ، فأرسل إليه، فقال : « إنه بلغنى عن هذا _ عمرو بن العاص _ الذى بلغنى عنه فأتيته فقلت له : أخبرنى عن الأمر الذى وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه ؟ قال : قد قال الناس فى ذلك ما قالوا، قال : أرى أنه فى النصر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم : قلت فأين تجعلنى أنا ومعاوية . فقال : ولكن قلت لأبى موسى : ما ترى فى هذا الأمر؟ فقالوا : إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما » (١).

وليس من شك فى أمر الخلاف الذى رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين على ومعاوية حول قتلة عثمان ، وهو ما أطبقت على ذكره المصادر الإسلامية (٢).

إن سهام الروافض المسمومة و آرائهم المحمومة وجهت للطعن فى عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى، وغيرهم من الصحابة، وحرص المستشرقون على نشر الروايات المطعونة سنداًومتناً، وروج لها أذنابهم من أهل الفكر الغربى والعلمانى.

الحجة فى عدالة الصحابيين الجليلين :

إن الصحابى الجليل أبا موسى الأشعرى تولى أعمال الحكم والقضاء فى الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر على البصرة، وبقى والياً عليها إلى أن قُتِلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقره عثمان رضي الله عنه على البصره، ثم على الكوفة، وبقى والياًعليها إلى أن قُتِلَ عثمان،فأقره على

---

(١) العواصم من القواصم ، لأبى بكر المالكى ص(١٧٨).

(٢) انظر : تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن (٢ / ٢٣٣).

رضي الله عنه فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ، ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تجوز عليه مثل الخدعه التى ترويها قصة التحكيم ؟هذا وقد شهد الصحابة وكثير من علماء التابعين لأبى موسى رضي الله عنه بالرسوخ فى العلم، والكفاءة فى الحكم، والفطنة والكياسة فى القضاء، فهذه شهادة عمرو عن أنس قال: « بعثنى الأشعرى إلى عمر ، فقال لى كيف تركت الأشعرى ؟ قلت : تركته يعلم الناس القرآن، فقال: أما إنه كيس ولا تسمعها إياه »[١].

وقال الشعبى : كتب عمرو فى وصيته : « ألا لا يقر عامل أكثر من سنة ، وأقروا الأشعرى أربع سنين »[٢].

وقد ثبت عن أبى موسى أيضاً أنه كان ممن حفظ القرآن كله على عهد الرسول ﷺ وكان من المشهورين بتعليمه للناس، فإذا علم أن مدار حياة الناس فى ذلك العهد - فى سلمهم وحربهم - كان على فقه القرآن والسنة، وعلمت مكانة أبى موسى من ذلك حتى خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور فى القضاء وسياسة الحكم[٣] فكيف تصور غفلته إلى هذا الحد ! فلا يفقه حقيقة النزاع الذى كلف بالحكم فيه، وصدر فيه قرار لا محل فيه، وهو قرار عزل الخليفة الشرعى بدون مبرر يسوغ هذا العمل، وقرار عزل معاوية المزعوم، ثم يقع منه ومن عمرو بن العاص ما نسب إليهما من السب والشتم وهو أمر يتعارض مع ما عرف وتواتر عن الصحابة رضى الله عنهم من حسن الخلق وأدب الحديث بينه وبين أن يخطئ الحكم فى القضيه التى أوكل إليه النظر فى أمرها، فإن ذلك أيضا هو شأن عمرو بن العاص الذى يعتبر من أذكياء العرب وحكمائهم، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقضى بين خصمين فى حضرته، وبشره حيث سأله : يا رسول الله : أقضى وأنت حاضر ؟بأن له إن أصاب أجران، وإن أخطأ أجر واحد حيث قال :

---

(١) ابن سعد فى الطبقات، (٤ / ١٠٨).

(٢) انظر : تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن (٢ / ٢٢٧).

(٣) انظر : تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن (٢ / ٢٢٩).

« إذا حكم الحاكم فأجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد »[١].

إن قبول تلك الرواية الرافضية الكاذبة طعن فى ورع وتقوى ونزاهة الصحابى الجليل عمرو بن العاص الذى بينت الأحاديث فضله وعمق إيمانه.

إن التاريخ الإسلامى أصبح غرضاً ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا فجوة بين الإسلام وتاريخه الزاهر حتى يتسنى لهم عزل النشء عن الإسلام وشريعته وتراثه العلمى ؛ ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم فى المجتمع الإسلامى .

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن فى تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ. ولذلك يجب الحذر من كل رافضى كاذب مستشرق عربى وعلمانى فاجر، وكل من سار على نهجهم، ولابد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد والهجوم الشجاع على أوكار الكذابين ، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعه والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة.

---

(١) أخرجه البخارى، كتاب الاعتصام (٨ / ١٥٧)رقم (٧٣٥٢)،ومسلم رقم (١٧١٦).

الفصل الثالث
تثبيت دعائم الإسلام فى المنطقة

لقد كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا ، فتح البلاد وإزالة الطاغوت الرومانى عن قلوب العباد حتى تتضح لهم السبل، وتفترق لهم الطرق، وتصبح لهم حرية الاختيار ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(البقره : ٢٥٦) وبعد ذلك : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾(الكهف : ٢٩) .

ثم كان بعد ذلك الحملة المباركة التى كانت سبباً فى دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين ، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .

المبحث الأول : حملة عبد الله بن سعد على إفريقية

لقد تقرر فى كتب التاريخ أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما فتح ليبيا بداية ببرقة وانتهاء بطرابلس وصبراته، رجع بعد ذلك إلى مصر حيث كانت ولايته، ولما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين عزله عن ولاية مصر ، وعقدها لعبد الله ابن سعد بن أبى سرح الذى كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص ، فى أحب ميمنة عمرو بن العاص، فى فتوحاته الشامية والمصرية .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « كان عبدالله مع جيوش المسلمين التى فتحت أرض الشام ، فلما صار عمرو بن العاص لفتح مصر ، كان عبدالله قائداً للميمنة منذت توجه إلى « قيسارية » إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص فى فتوحاته ، وفى حربه هناك كلها ،

وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف « إفريقية » غازيا ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً »(١).

يقول الدكتور صالح مصطفى :« وفى سنة ٢٦هـ-٦٤٦م عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر، وإستعمل عليها عبد الله بن سعد رضي الله عنه وكان عبدالله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانو يفعلون فى أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغتنمون »(٢).

ويبدو لى أن جرائد الخيل هذه لم تكن داخلة ضمن الأهداف العامة للحملة التعليمية لترشيح مبادئ وأسس الدين الحنيف عند أهالى برقة، وطرابلس، ولكن هذه الجرائد كانت تقصد إفريقيه - تونس تمهيداً لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه مايكون بكتائب الاستطلاع التى تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية، من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعداءها، وموقعها الجغرافى الإسراتيجى كتب حينئذ إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية ويستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى :« ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان فى غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم فى ذلك ، فأشاروا عليه بفتحها، إلا أبو الأعور سعيد بن زيد، الذى خالفه متمسكا برأى عمر بن الخطاب فى ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافه الإسلامية لجمع المتطوعين، وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد ، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جلياً فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خير شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل، وكذلك الأنصار فقد خرج فى تلك الغزوة، الحسن والحسين ، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم.

---

(١) قادة فتح المغرب العربى (١/ ٥٤) .
(٢) ليبيا من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية ص (٣٩).

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها فى غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غنث سبعمائة رجل ، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً خطب عثمان فيهم، ورغبهم فى الجهاد، وقال لهم: « لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله » .

ويقال : إن عثمان رضي الله عنه قد أعان هذه الغزوه بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس .

وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر ، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد ، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذى يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهرى ، ومن معه من المسلمين ، ولم يواجه الجيش الإسلامى أية صعوبة أثناء سيرهم فى برقة ، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من شروط زمن عمرو بن العاص ، حتى إنه لم يكن يدخلها جابى خراج ، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر فى الوقت المناسب، ومما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العص ، ماذكر ، أنه سُمعَ يقول : « قعدت مقعدى هذا، وما لأحد من قبط مصر على عهد إلا أهل أنطابلس ، فإن لهم عهداً يوفى لهم به » كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: « ولولا مالى بالحجاز لنزلت برقة ، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها »(١) .

وهكذا أغَذَّ السير بهذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها ، إلا أن سعداً قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون فى جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها ، ورصد تحركات العدو وضبطها تحسبًا لأى كمين ، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة ، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة

---

(١) المرجع السابق ص (٤١ ، ٤٢)

للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست فى ساحل ليبيا البحرى بالقرب من مدينة طرابلس، فما هى إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها ، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون فى طريقهم لفتح إفريقية .

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد :« وبعد انضمام عقبة بن نافع لهذا الجيش اتجه صوب إفريقية، وكان عبد الله بن سعد يرسل الطلائع فى كل الاتجاهات الضرورية، لاستطلاع أحوال المناطق المختلفة، وكانت هذه الطلائع تعود إلى القائد بالأخبار جالبة معها البقر والشياه وعلف الدواب، ولما دنا الجيش من طرابلس تقدمته إليها إحدى تلك الطلائع التى كان يرسلها عبد الله بن سعد ، فوجد أفرادها مراكب للروم راسية على الساحل، فشدوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مائة من أصحابها، غير أنهم لم يتعرضوا للأهلين بشىء؛ وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم، وكانت هذه أول غنيمة أصابها المسلمون، وكانت هذه المراكب قد وصلت إلى طرابلس، إما للتجارة أو لتعزيز من كان بها من الروم، إلا أن طليعة الجيش الإسلامى حالت دون تحقيق أحد الهدفين، ولم يتحصن أهل طرابلس بها امتناعاً على ذلك الجيش، وإنما أخافتهم حادثة المراكب، فالتزموا بيوتهم خشية أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية »(١) .

بيد أن عبد اللهبن سعد رضي الله عنه اكتفى من أهالى مدينة طرابلس بذلك الموقف السلبى حيال تلك السفن الرومية، حيث التزموا بيوتهم ولم يتفاعلوا مع ذلك الحدث؛ لذلك جد السير إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه فى كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالى مائه وعشرين ألفا، وكان بين القائدين إتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول فى الإسلام

---

(١) المرجع السابق ص (٢٣) .

ويستسلم لأمر الله سبحانه ، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعًا لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده!!فلما كان ذلك وضاق الأمر بالمسلمين فكر القائد عبد الله بن سعد ، وقال بلسان حاله :أيها الناس عليكم بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر،عليكم بقتال هؤلاء ، فنشبت المعركة بين الجمعين، وحمى الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير ، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغى جرجير على يديه .

ويقول الدكتور صالح مصطفى :« وصل جيش المسلمين إلى مدينة سبيطلة،وفى هذا المكان التقى جيش عبد الله بن سعد ، مع جيش جرجير الذى بلغ مائة وعشرين ألفاً وتبودلت الرسائل بين القائدين، على أن يقبل جرجير الإسلام أو يدفع الجزية غير أنه رفض ذلك فضاق أمر المسلمين ، واختلفوا مع عبدالله بن سعد فى الرأى فدخل فسطاطة مفكراً، بينما تأهب جرجير للحرب وجعل ابنته على ديدبان عال وأقسم أنه من يقتل أمير المؤمنين زوجه ابنته، وكان ذلك تشجيعاً لجيشه على قتال المسلمين ، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فأقسم أن من يقتل جرجير نفسه نفلته ابنته، والتحم الجيشان، وانتصر المسلمون، وقتل جرجير على يد عبد الله بن الزبير »(١).

وبذلك كانت نهاية إفريقية إلا أن جرجير كان نصرانيًا تابعاً لديانة الإمبراطورية الرومانية؛ لذلك لما وصل إلى الروم أخبار ما حل بجرجير وجنوده، أخذتهم الحمية ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة :٥١] وقرروا مقاتلة عبد الله ابن سعد ومن معه، وأخذ الغنائم التى أخذها من إفريقية، فلما أحس عبد الله بن سعد بخطورة ذلك التجمع الرومانى رأى رغبة منهم فى إبرام الصلح نظراً لعدة نقاط عسكرية منها : بعد جيش المسلمين عن مركز الإمداد والنجدة، ومخافة تواطؤ قوى الروم والبربر ضده، خاصة وأن المعركة التى كانت مع جرجير سقط فيها من الشهداء العدد الكثير، ولكن قبل إبرام الصلح معهم أرسل إلى نائبه فى مصر يطلب منه إرسال سفن إليه فى أقرب وقت ممكن لحمل الغنائم التى غنمها

(١) المرجع السابق ص (٤٥).

من إفريقية .

يقول الدكتور صالح مصطفى :« فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً فى حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه، وجعلو له جعلاً على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب فى بعض الروايات وفى البعض الآخر مائة قنطار ، جزية فى كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان فى شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم ، وما أصابوه بعض الصلح ردوه عليهم ، وانصرف راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاث أشهر ، أو سنة وشهرا فى رواية أخرى »(١) .

ويقول أيضاً : « وتذكر الرواية أنه عندما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه ، وقصد هو وأصحابه إلى مصر سالمين ، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بالأموال التى معه من الخمس وغيره ، ومن المرجح أن تكون السفن التى وافته فى طرابلس من السفن التى غنمها المسلمون فى سورية والإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد : أنه قد سهل على العرب بفضلا استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية قى الإسكندرية وسورية سليمة أن تكون لديهم سفن حربية ، إما حاضرة وإما سهلة الإنشاء »(٢) .

بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر ، وذلك حين نقد أهلها العهد، وكان ذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ، فانتصر عليهم ، وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامى هناك، وأقر أهلها على الإسلام والجزية .

---

(١) ، (٢) نفس المصدر السابق (٤٦) .

المبحث الثانى : فاتح إفريقية (تونس) فى سطور

المطلب الأول : اسمه، واسلامه، ووفاته

اسمه : عبد الله بن سعد بن أبى السرح بن حبيب بن حذيفة بن حسئل بن عامر بن لؤى القرشى العامرى ، ويكنى ابا يحيى، واسم أبى السرح الحسام ، وأمه أشعرية ، واسمها مهابة بنت جابر الأشعرية ، أرضعت عثمان بن عفان ، فعبد الله ابن سعد أخو عثمان بالرضاعة.

إسلامه : أسلم عبد الله قديما وهاجر إلى المدينة المنورة ، فهو من السابقين الأولين ، وكان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة، ولما فتح المسلمون مكة المكرمة، عهد رسول الله ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد ففر ابن سعد إلى أخيه بالرضاعة عثمان رضي الله عنه فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فأسلم عبدالله ذلك اليوم وحسن إسلامه ، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه.

وقد بايعه رسول الله ﷺ يومئذ على الإسلام وقال : «الإسلام يجب ما قبله» ولكن عبد الله كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه خجلا منه ، فذكر ذلك عثمان لرسول الله ﷺ فقال : «**الإسلام يجب ما كان قبله**» فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك وعرف فضله وجهاده ، فأصبح وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة (١).

وفاته :

وبعد الفتنة التى انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل عبد الله بن سعد الناس ، وأقام بمدينة عسقلان معتكفاً على الذات واستعداداً للرحيل من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ، وكان من دعائه فى تلك الخلوة :

---

(١) أنظر: قادة فتح المغرب العربى (جـ١ / ٥١ – ٥٣).

« اللهم اجعل خاتمة عملى صلاة الصبح »وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لهذا الرجل الصالح المجاهد ، ففى ذات يوم عند طلوع الفجر توضأ ، ثم صلى الصبح ، فقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، والثانية بفاتحة الكتاب وسورة أخرى، ثم سلم على يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه وكان له ما أرا د .

وكان ذلك سنة ٣٦هـ - ٦٥٦م ، ودفن بموضع معروف يقال له مقابر قريش بعسقلان فى الشام ، إلا أن صاحب كتاب « الفوائد الجليلة فى تاريخ العائلة السنوسية » عبد الملك بن عبد القادر بن على ، يذهب أنه دفن فى أوجلة فى إحدى واحات ليبيا ، ولا يخفى أن ماذهب إليه صاحب كتاب « قادة فتح المغرب العربى » أصح من حيث ترجيح الرواية ، وضبط التواريخ والآثار (١) .

المبحث الثالث : مناقب عبد الله بن سعد رضي الله عنه

لا ريب أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص فى فتوحاته لأرض الشام ومصر ، بل كان يرسله يقود حملات جهادية بنفسه على جنوب وغرب مصر فى أراضى إفريقيا ، التى كانت فيما بعد سببا لفتح ليبيا وتونس ، وبلاد المغرب والسودان وما حوله؛ لذلك فعلى هذه الشعوب أن تذكر هذا الرجل صاحب الفضل عليها بعد الله سبحانه ، بأفضل ما يذكر به الخلف الصالح سلفهم الصالح ، فهو الذى كان سبباً فى دخول الإسلام لتلك البلاد وقلوب العباد، وكفى بذلك شرفاً ومنقبة ؛ لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقب هذا القائد الصحابى الجليل فى مسيرته الجهادية الدعوية .

المطلب الأول: جهاده فى مصر

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « كان عبد الله مع جيوش المسلمين

---

(١) قادة فتح بلا المغرب (١ / ٦٤ ، ٦٥) .

التى فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص فى فتوحاته وفى حروبه هنالك كلها، وكان عمرو ابن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً »(١).

المطلب الثانى: جهاده فى إفريقية

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: « لما ولى عبد الله بن سعد مصر والمغرب بعث المسلمين فى جرائد الخيل، فأصابوا إفريقية وغنموا، فكتب عبدالله إلى عثمان بن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين واستأذنه فى غزوها واستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية، فجهز عثمان العساكر من المدينة، وأمد عبد الله بن سعد بجيش عظيم، وخرج فى هذه الغزوة ممن حول المدينة خلق كثير كان عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين رضى الله عنهم ، لذلك سمى هذا الجيش بجيش العبادلة، وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين، وسار عبد الله إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين- وكان عقبة ومن معه حامية هناك -. فساروا جميعاً إلى طرابلس الغرب فقاتلوا من عندها من الروم... ولقد افتتح عبد الله بن سرح إفريقية سهولها وجبالها، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً وانتصر على ملك البربر جرجير فى موقعة سبيطلة، وأذلت تلك الواقعة أهل إفريقية وأصابهم رعب شديد، فإذا كان كل ذلك ليس فتحاً مستداماً، بل غارة فكيف يكون الفتح؟!! » (٢).

(١، ٢) المرجع السابق (١/ ٥٣، ٥٤).

المطلب الثالث: جهاده فى قبرص

فيقول الأستاذ محمود شيت خطاب: « وفى سنة ثمان وعشرين للهجرة، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبى سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح برص، وقال له: لا تنتخب الناس ولا تقترع بينهم! خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، فسار المسلمون من الشام إلى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها، فصالحهم على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة، وفتح المسلمون قبرص وكان لعبد الله فضل كبير فى فتحها »(١).

المطلب الرابع: جهاده فى بلاد النوبة

يقول فى موضع آخر: « بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح النوبة، فقاتل المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً، إذ كان أهلها ماهرين برمى السهام، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراجات كثيرة وحدق مفقودة، ولم يصالحهم عمرو بن العاص، ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولى ابن سعد فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساور من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذٍ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تر عينى مثل يوم دُمقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم، وعقد لأهل « مقرة » بعد دخول جيش المسلمين« دنقلة » عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية ويفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق فى خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوب والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام »(٢).

المطلب الخامس: جهاده فى إفريقية ثانياً

ويقول أيضًا: « وفى سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام »(٣).

---

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب(١/ ٦١ – ٦٣).   (٢) المرجع السابق (١/ ٦١).
(٣) نفس المصدر السابق (١/ ٦٣).

المطلب السادس : جهاده فى البحر (غزوة ذات الصوارى)

وقـال أيضـاً : « وفى سنة أربع وثلاثين هجـرية غـزا عـبـد الله غـزوة : ذات الصوارى فى البحر من ناحية الإسكندرية ، فلقيه قسطنطين بن هرقل فى جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة والمسلمون في مائتى مركب ، وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف ، قام بين ظهرانى الناس فقال : « بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل إليكم فى ألف مركب ، فأشيروا على !فما كلمه رجل من المسلمين !! فكرر عليهم طلب الاستشارة فأجاب فى المرة الثالثة رجل من أهل المدينة كان متطوعًا مع عبد الله بن عبد سعد فقال : « أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٤٩) ، فقال عبد الله ، اركبوا باسم الله ، فركبوا ، وإنما كان فى كل مركب نصف شحنته ، إذ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال فى منطقة أخرى ، قدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبى سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد ، وكانت الريح على المسلمين لم شاهدوا الروم ، فأرسى المسلمون والروم ، وسكنت الريح ، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم، فباتوا والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون ، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا ، فقربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم ، فربطوا بعضها إلى بعض ، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحى السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ، ويأمرهم بالصبر .

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر ، فقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يصبروا مثله فى موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم فى هذه المعركة فانهزموا،ولم ينج منهم إلا الشريد ،فى هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التى تربط المركبين بالسيف فقطعها وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله فى معركة« ذات الصوارى » بطولة فائقة، تلك الغزوة التى أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام »[١] .

---

(١) انظر:أسد الغابة لمعرفة الصحابة(٣ / ١٥٦) .

المبحث الرابع: مبادئ فى الإستراتيجية العسكرية

لقد تقدم – فيما سبق – أن هذا القائد والصحابى الجليل عبد الله بن سعد صاحب تلك المعارك العظيمة، كان قديراً فى وضع الاستراتيجيات الجهادية، والقواعد العسكرية، ومن تلك المبادئ والقواعد التى أسس بنيانها هذا الصحابى الجليل فى حياته الجهادية منها :إتقان إدارة الجيش كماً وكيفاً،استقرار المؤخرات، حشد القوى، الاقتصاد فى القوى، التعرض،الاستعلام والاستطلاع،إعداد الخطة البديلة،المحاربة فى ميادين القتال، المناورة الحربية .

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصدد :« وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها،ينجز تحشيد قواته،ويكمل قضاياها الإدارية،ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة،كل ذلك يساعده على وضع خطة مثلى تؤمن له النصر المبين »(١) .

المبحث الخامس : أهم صفاته القيادية

لقد كان عبد الله بن سعد رضي الله عنه ذا مؤهلات قيادية عالية المستوى ، تؤهله أن يكون قائداً لتلك الفتوحات المباركة ، وأن يخوض غمر تلك المعارك الطاحنة خاصة معركة « ذات الصوارى » ومن تلك الصفات القيادية التى كان يتحلى بها : الشجاعة ، وعدم الاستبداد بالرأى ، وكثرة استشارته لإخوانه ، وقبوله للرأى الثانى، والانصياع له بكل رحابة صدر ، وكان لا يتأثر بكلام الناس ، ويفضل أن يكون غازيًا ولا والياً .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « وكان يمتاز باستشارة ذوى الرأى من رجاله قبل المعركة وفى أثنائها ، ولا يأنف أبداً من الانصياع للرأى الصائب بكل رحابة صدر ، بل كان يشجع كل من له رأى سليم على إظهاره ليطبقه فوراً

(١) المرجع السابق(١ /٧٣).

وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التى لا تؤثر عليها تقولات الناس ، والظاهر من سير معاركه التى خاضها : أنه كان يؤثر أن يكون فى ساحات القتال غازياً على أن يكون فى القصور والياً » (١).

المبحث السادس
أعماله فى عهد الخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما

لقد تولى عبد الله بن سعد رضي الله عنه أعمالاً كثيرة ومناصب عظيمة ففى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الصعيد المصرى وفى عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ولاه مصر كلها ، وكان ذلك سنة ٢٥هـ .

أما المناصب القيادية الميدانية التى باشرها عبد الله بن سعد ، منها ولاية الميمنة فى جيش عمرو بن العاص، وولاية قيادة جيش فتح إفريقية، وكل ذلك كان فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أما فى عهد عثمان بن عفان فقد ولاه قيادة فتوحات أرض النوبة، ومدينة قبرص وغيرها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: « وتولى عبد الله - صعيد - مصر بعد فتحها، وكان عمرو بن الخطاب هو الذى ولاه الصعيد فعقد عثمان بن عفان لعبدالله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره، وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وكان ذلك سنة خمس وعشرين هجرية.... » (٢).

وأخيرا : يبقى التاريخ دائماً وأبداً ذاكراً لعبد الله بن سعد رضي الله عنه فتحه لبلاد تونس الخضراء ، وشرقى الجزائر ، وقبرص ، والنوبة ، ونشره لدعوة الإسلام فى تلك الربوع، كما أنه يذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب، خاصة معركة ذات الصوارى، ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله، رضى الله عنه من صحابى جليل ، الإدارى الحازم ، والبطل الشجاع، القوى الأمين ، القائد الفاتح » (٣).

---

(١) نفس المصدر (١ / ٧٣). (٢، ٣) المرجع السابق (١ / ٧٤).

الفصل الرابع

توطئـــــة: بعد أن عاد عبد الله بن سعد رضي الله عنه إلى مصر من غزوة ذات الصوارى عام ٣٥هـ حيث علم بخبر فتنة الخروج على خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما علم ذلك خرج من مصر متوجهاً إلى المدينة، حيث عاصمة الخلافة، ومقر الخليفة، ولكن ما لبث فى المدينة إلا قليلاً حتى وافاه خبر مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ثم استخلف بعده الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه الذى بدوره أعاد ترتيب ولاته وعماله فى المنطقة ، فكان من ضمن أولئك عبد الله بن سعد بن عبادة والياً مكانه.

وهكذا كان والى مصر عبد الله بن سعد القائد الجندى ، الذى لم يثأر بتلك المناصب التى قلما ينزل عليها بشر بيسر إلا إذا كان من أولى التقى والنهى، ونحسب أنه فاتح إفريقية من أولئك والله حسبه ؛ لذلك عندما أحس بنشوب الفتنة بين المسلمين اختار مدينة عسقلان التى كانت بعيدة عن مواطن الفتنة مكاناً لخلوته يتعبد الله فيها ، حتى توفاه الله وهو فى آخر ركعة من صلاة الصبح، فرضى الله عنه وأرضاه ، وأدخله فسيح جناته ، اللهم آمين.

ثم توالت الأحداث واستلم معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه مقاليد الخلافة سنة (٤٥هـ - ٦٦٥م) حيث عزل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص والى مصر للمرة الثانية عن منصبه ، وعين معاوية بن حديج واليا على مصر ، وعقبة بن نافع عاملاً على إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى : «أما بالنسبة لسنة (٥٠هـ - ٦٧٠م) وذلك بعد أن عزل معاوية بن أبى سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر ، وولاها معاويه بن حديج، وفى السنة التى تليها (٤٨هـ - ٦٦٨م) كان معاوية بن حديج عاملاً على مصر وإفريقية إلى أن عزله معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه عن ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر فقط سنة (٥٠ هـ - ٦٧٠م) هذا فضلا على أنه فى هذه الفتره كان عقبة بن نافع فى إفريقية »[١].

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (٤٨).

المبحث الأول
حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية

لقد تقدم فيما مضى أن معاوية بن أبى سفيان خليفة المسلمين قد عين معاوية بن حديج واليا على مصر، ولما استقرت سلطته فى الخلافة كلف معاوية بن حديج أن يتوجه إلى إفريقية نظرا لخبرته به وسابقة العمل الجهادية فيها ، وكان جيشه تعداده قرابة عشر آلاف مقاتل ، وكان الجيش الإسلامى يضم فى صفوفه أكبر فقهاء الصحابة وتابعيهم أمثال : عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ويحيى بن أبى الحكم بن العاص وغيرهم .

ويقول الدكتور صالح مصطفى : « أما فى سنة (٤٥هـ – ٦٦٥م) فقد أرسل معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه بعد أن توطدت سلطته فى الخلافه معاوية بن حديج إلى إفريقية فى عشرة آلاف مقاتل ، وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، ويحيى بن أبى الحكم بن العاص ، وعدة أشراف قريش »(١) .

ولقد ذكر فى كتاب التاريخ أن هذا الجيش الإسلامى بقيادة معاوية بن حديج رضي الله عنه كان قد تحرك من مصر متجهاً إلى إفريقية عبر الأراضى الليبيه التى كان قد رابط بها كل من عقبة بن نافع ، وشريك بن سمى رضى الله عنهم؛ لذلك لم يجد جيش معاوية عند مروره بالأراضى الليبية كبير عناء ، بل لم يذكر أحد من المؤرخين بأن معاوية وجيشة الإسلامى لقى أى مقاومة من قبل الشعوب القاطنة فى الأراضى الليبية نظراً لالتزامهم إما بالإسلام ، أو بالجزية أو العهد .

وبعد عبوره منطقة طرابلس وحدودها توجه إلى تونس التى تعتبر القصد الأول من حملته المباركة ، وكانت استراتيجيته فى تلك الحملة المباركة السيطرة على مفاصل إفريقية الثلاثة :بنزرت، وسوسة ، وجلولاء.

وهكذا كانت البداية فقصد معاوية بجيشه إلى سبيطلة ، وسبقته أخباره ،

---

(١) المرجع السابق (٥٠)

وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو ، فأرسل نجدة إلى قرطاجنة عن طريق البحر ، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب (الجم) فهزموهم ، واستعد الروم للقائه فى جلولاء ، ليكون دفاعهم عن سبيطلة فى مواقع بعيدة عنها ، هناك جمعوا جيش لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة، ولم يلبثوا أن رجحت كفة المسلمين على الروم ، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها ، وحاول المسلمون اقتحامها عليهم فلم يقدروا ، وجرح عامتهم واستشهد الكثير منهم فتركوها .

ولكن" ما يعلم جنود ربك إلا هو" فبينما هم راجعون منها إذ بأحد أسوار المدينة قد انهدم وسقط دون عامل بشرى ، الله أكبر فتحت جلولاء، فرجع معاوية بجيشه المبارك مسارعين ودخلوا المدينة عنوة، وفر منها من قد نجا من القتل والأسر ، وغنموا كل ما حوته المدينة ، وكانت هذة الغنيمة من أكبر غنائم إفريقيا فى الفتح الإسلامى (١) .

ثم واصل معاوية حملتة المباركة للسيطرة على مفاصل إفريقية، فقد بث السرايا فى البلاد ، وبعث عبد الله بن الزبير إلى مدينة سوسة البحرية التى ما استطاعت مقاومة قوات ابن الزبير ففتحها وثبت فيها دعائم الإسلام ، وهكذا واصل معاوية رضي الله عنه عمله الاستراتيجى الذى يهدف إلى السيطرة على المدن الحيوية والاستراتيجية التى تعتبر مفاصل إفريقية ، فبعث رويفع بن ثابت الأنصارى رضي الله عنه إلى مدينة جربة الاستراتيجية ففتحها .

وبعد أن استتب الأمن فى إفريقية اتجه معاوية رضي الله عنه إلى جبل القرن الذى يسمى اليوم بجبل وسلات ، واتخذ منه مقراً لقيادته لمنطقة إفريقية، وبنى بتلك الناحية مساكن سماها قيروان ، واحتفر بها آبارا تسمى باسم (آبار حديج) وأقام فى هذه الجبال قرابة ثلاث سنين .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « واستقر معاوية فى جبل القرن وجعله

---

(١) راجع الفتح العربى فى ليبيا ص (٩٩) .

مقراً له، فبقي هناك ثلاث سنين ، فبنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحتفر بها آباراً سماها آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز »(١)

وأخيراً :عاد معاوية بن حديج رضي الله عنه بعد ذلك إلى مصر بناء على أمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن قام بتثبيت دعائم الإسلام في المنطقة، وأسس القواعد الأولى لفتح أوروبا ، وتبليغ دعوة الإسلام إليها ، وهكذا سطر التاريخ لمعاوية رضي الله عنه بماء الذهب تلك الآثار الطيبة في الشمال الإفريقي ، فاللهم ارض عنه وأدخله فسيح جنتك، آمين.

المبحث الثاني : معاوية بن حديج في سطور

المطلب الأول : اسمه، نسبه، وفاته

اسمه ونسبه: معاوية بن حديج بن جفنة بن قَتيرة بن حارثة بن عبد شمس ابن معاوية بن جعفر بن اسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون السكوني، يكنى :أبا نعيم، وقيل: أبا عبد الرحمن .

وقيل : إنه من خولان وليس بشيء ، والصحيح أنه سكوني ، أما قولهم: إنه سكوني ، وقيل تجيبي ، وقيل : كندي فمن يرى هذا يظنه متناقضاً ، والصحيح أن السكوني من كندة ، وولد السكون شبيباً ، فولد شبيب أشرس ، فولد أشرس عدياً، وسعداً، وأمهما :تجيب بها يعرف أولادهما ، فكل تجيبي سكوني ، وكل سكوني كندي ، فمن نسبه إلى جده الأقرب قال : وكلاهما صواب ، وأمه كبشة بنت معدي كرب الشاعرة .

صحب النبيَّ صلى الله عليه وسلم وروى عنه حديث :« إن كان في شيء شفاء فشربة عسل، أو شرطة محجم ، أو كية نار ، وما أحب أن أكتوى » إسناده صحيح ،وهاجر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه والظاهر أنه كان صغيرا

---

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٨).

على عهد النبى ﷺ فلم يشهد غزواته؛ لذلك نال معاوية شرف الصحبة ، وما أعظمه من شرف ، ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ﷺ (١).

وفاته : فى سنة خمسين الهجرية عزل معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حديج رضي الله عنه عن إفريقية ، وأقره على ولاية مصر ، ووجه إلى إفريقية عقبة بن نافع الفهرى ، ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية ، فمات بها سنة اثنين وخمسين الهجرية – ٦٧٢م (٢).

المطلب الثانى : مناقبه رضي الله عنه

لا يخفى أن معاوية بن حديج رضي الله عنه قد صاحب عمرو بن العاص رضي الله عنه فى فتوحاته لأرض مصر والإسكندرية ، وكان محل ثقته، وأهل مشورته، ورسوله الخاص لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،لذلك كان محل ثقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،كذلك ،وهذا إن دل فإنما يدل على أن معاوية بن حديج كان من الشخصيات القيادية الهامة صاحبة المؤهلات الجهادية، والقيادية فى جيش عمرو ابن العاص ؛ لذا سنحاول أن نتناول بإيجاز معالم هذه الشخصية ، ومناقبها الجهادية، وعقليتها العسكرية.

١- جهادة فى مصر والنوبة :

أ- شهد بن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حديج قصة وفادتة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية فقال :« بعثنى عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ، فقدمت المدينة المنورة فى الظهيرة.. فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى ، فقال :ما عندك ؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين ، فتح الله الإسكندرية....» ولا يخفى أن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح دليلٌ على ثقة عمرو به، واعتماده عليه وأنه كان شخصية، لامعًا– فى جيش المسلمين الذى فتح مصر – فى جهاده وعقله

---

(١) راجع المرجع السابق (١/ ٧٦). (٢) المرجع السابق (١/ ٨٧).

ومنطقه وتصرفه ، كما أنه يكون دليلاً على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب، إذ لايمكن أن يبعثه عمر دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره .

ب- وفي سنة إحدى وثلاثين الهجرية شهد ابن حديج فتح النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، فذهبت عينه يوم دنقلة من بلاد النوبة ، فأصبح أعوراً ، وياله من وسام جهادي يقابل به الله يوم لا ينفع مال ولا بنون (١) .

٢-جهاده في إفريقية :

غزا ابن حديج إفريقية ثلاث مرات ، الأولى: سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان حيث كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح والياً على مصر وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة واتخذ قيروان عند القرن ، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر .

وغزا معاوية إفريقية سنة إحدى وأربعين الهجرية ، ففتح مدينة بنزرت وكان معه عبد الملك بن مروان ، ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي السرح ،لمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في إفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا ؛لأن ذلك ليس في طاقتهم ، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم ، فوقع القتال بين خليفة جرجير ملك إفريقية ، وبين القائد الرومي ، فهزم هذا القائد خليفة جرجير ففر إلى الشام ، واتصل هناك بمعاوية بن أبي سفيان، وزين له فتح إفريقية واصفاً خيراتها وثرواتها ، ودله على عورات الروم فبعث معاوية بن حديج لفتحها فغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية .

فقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل ، معهم عبد اللهبن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان ، ومضى معاوية حتى وصل إلى إفريقية ، وكانت تضطرم ناراً، فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان إفريقية ، وكان عامل جرجير هو ملك سبيطلة على رأس ثلاثين ألف مقاتل، كان القيصر قد وجههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة المسلمين عن إفريقية فلم تغن قوات الروم شيئاً ،

---

(١) المرجع السابق (١ / ٧٨) .

إذ قاتله معاوية فهزمهم عند حصن (الأجم) ، ثم بث السرايا فى البلاد ، وبعث عبد الله بن الزبير إلى « سوسة » ففتحها، وبعث رويفع بن ثابت الأنصارى بحراً إلى جربة ففتحها ، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التى كان أميرا عليها ، وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء ففتحها .

واستقر معاوية فى جبل « القرن » وجعله مقراً له فبقى هناك ثلاث سنين، فبنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحتفر بها آبارا تسمى آبار حديج ، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز.

إنه غزا إفريقية مراراً كثيرة آخرها سنة خمسين الهجرية، ولكن المؤرخين اقتصروا على ثلاث غزوات منها ، وهى أهم غزواته على ما يظهر ، وعاد معاوية بعد ذلك إلى مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة فى إفريقية، وهو الذى بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية (١) .

٣- جهاده فى البحر :

أ- كان معاوية بن حديج أول من غزا جزيرة « صقلية »إذ بعث إليها عبد الله ابن قيس ، فأصاب أصناماً وفضة مكللة بجوهر ، وقد وجه معاوية جيشه هذا فى مائتى مركب ، وكان ذلك فى سنة ست وثلاثين الهجرية.

ب- وفى سنة تسع وأربعين الهجرية وجه معاوية عقبة بن نافع الفهرى فى البحر لغزو الروم بأهل مصر (٢) .

المطلب الثالث : أهم صفاته القيادية

إن معاوية كان من الأبطال الصناديد ، ومن الدهاة المحنكين ، ومن رجالات الفتوح الكبار ، وكان من ضباط أركان عمرو بن العاص فى فتح مصر ، ومن ضباط أركان عبد الله بن سعد بن أبى السرح فى إفريقية والنوبة ، فلما تولى القيادة كان خبيراً بالمغرب ، عارفاً لشؤونه وطبيعة أرضه، ونقاط الضعف فى أهله وخبرة معاوية هذه سهلت له فتح كثير من بلاد المغرب .

---

(١) المرجع السابق (١ / ٨١) .

(٢) المرجع السابق (١ / ٨٢) .

والذى يتتبع قصة جهاده بإمعان ، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد ، فكان يفضل دائماً أن يكون غازياً فى ساحات الوغى على أن يكون والياً فى باحات القصور .

لقد كان جندياً بالطبع ، وكان من أسود المسلمين ، سألت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها يوماً رجالاً فقالت : « وكيف كان أميركم فى غزاتكم؟ » تعنى معاوية بن حديج ، فقالوا : « مانقمنا عليه شيئا »، وأثنوا عليه خيراً ، وقالوا : « إن هلك بعير أخلف بعيراً ، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً »، فقالت : أستغفر الله ! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخى ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رفق بأمتى فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه »، وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم، وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون .

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة ، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها ، ويعرف نفسيات رجاله وقابليتهم ، يثقون به ، ويبادلونه حبا بحب وتقديراً بتقدير ، له تجربة طويلة فى الحرب، وماضى ناصع فى الجهاد ، لقد كان معاوية قائدا ممتازاً ، قضى حياته كلها مجاهداً فى سبيل الله فى البر والبحر على حد سواء .

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يحصى من البربر ، ونشر لغة القرآن بينهم ، ويذكر له أنه فتح بلاد شاسعة من شمال إفريقية فى تونس والجزائر، والمغرب، ويذكر له أنه أول من غزا صقلية ، فمهد للمسلمين فتحها بعد ذلك، ويذكر أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين ، رضى الله عن الصحابى الجليل، الإدارى الحازم ، أمير البحر ، وقائد البر ، معاوية بن حديج السكونى (١) .

---

(١) المرجع السابق (١/ ٨٨ ، ٨٩) .

من أراد الاستزادة من ترجمة معاوية بن حديج فليرجع إلى : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ، الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر، طبقات بن سعد، معالم الإيمان لعبد الرحمن الأنصارى ، فتح مصر والمغرب لابن الحكم ، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .

الفصل الخامس
عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقى

توطئـــــــة :

لا يخفى أن عقبة بن نافع كانت له علاقة قديمة وطويلة ببرقة وطرابلس وإفريقية ، والشمال الإفريقى عموماً ، مما أكسبه خبرة جيدة بطبيعة البلاد ، ومعرفة عادات ونفوس العباد ، مما جعله فى قائمة المرشحين عند أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقيادة الحملة الأخيرة لفتح إفريقية .

المبحث الأول : بداية الفتح المبارك

لقد تقدم – فيما سبق – أن عقبة بن نافع كانت له خبرة بمناطق الشمال الإفريقى إجمالاً ، حيث أرسله عمرو بن العاص إلى زويلة سنة ٢٢ هـ ففتحها ، ثم عينة والياً على إفريقية بعد رجوعه إلى مصر ، وبتلك الخبرة والخلفية سار عقبة إلى إفريقية فى جيش رهيب ومهيب ، وكانت بداية مسيرة هذه الجحافل المباركه برقة؛ لأنه كان مقيماً فيها ، ثم وصل حتى وصل سرت حيث أقام الجيش فيها فترة من الزمان ، وتوجه خلالها عقبة إلى بلاد ودان ، وجرمة، وفزان ففتحها ونشر فيها تعاليم الإسلام .

يقول الدكتور صالح مصطفى : « من المرجح أن عقبة بن نافع قد خرج إلى إفريقية سنة(٤٩هـ –٦٦٩م) كما يذكر ابن عذارى أو فى أوائلها ، ولاسيما أنه قد خرج بعد معاوية بن حديج كما يذكر ابن عبد الحكم ، وكان مع عقبة بن نافع فى هذه الغزوة بسر بن أبى أرطاة، وشريك بن سمى المرادى، وتقدم عقبة بن نافع بقواته إلى أن وصل مغمداش من سرت، وكان بسر بن أرطأة قد توجه إليها قبل ذلك سنة(٢٦هـ ٦٤٦م) من سرت – فلما وصل عقبة إلى هذه المدينة علم بأن أهل ودان قد نقضوا العهد الذى سبق وأن عقدوه مع بسر بن أبى أرطأة فى

سنة ٢٣هـ زمن عمرو بن العاص .

فما كان منه إلا أن ترك جيشه واستخلف عليهم عمرو بن على القرشى ، وزهير بن قيس البلوى ، وسار بنفسه وبمن خف معه، حتى قدم ودان فافتتحها، وجدع أذن ملكهم ادباً له ، وأخذ منهم ما كان بسر بن أبى أرطأة قد فرضه عليهم وهى ٣٦٠ رأساً ، ثم واصل سيره إلى مدينة جرمة، ولما دنى منها وكان آخرها قصور خاوار، جنوبى فزان ، فعندما وصله عقبة، امتنع عليه ، ولم يتمكن من فتحه، وظل محاصراً له شهراً ، ثم تخلى عنه متجهاً إلى قصور كوار ، وقطع أصبع ملكهم أدباً له ، وحتى لا تسول إليه نفسه أن يحارب العرب - المسلمين- مرة أخرى وفرض عليهم ٣٦٠ عبداً.

ثم رجع إلى أهل خاوار حتى تجاوزهم ، متظاهراً أنه لن يفتح هذا القصر ، حتى اطمأن أهله فرجع عليهم وتمكن من فتحه ، ومن هناك انصرف راجعاً حتى وصل إلى موضع زويلة اليوم ، قاصداً جيشه الذى غاب عنه خمسة أشهر تحت إمرة عمر بن على القرشى ، وزهير بن قيس البلوى »[١] .

وهكذا بعد هذ المسحة العسكرية لمناطق ليبيا، والتى استغرقت من عقبة ومن معه حوالى نصف سنة ، رجع بعدها إلى جيشه المرابط فى مدينة سرت ، ثم سار به إلى ناحية الغرب ، وجنوب غرب ليبيا حيث افتتح بلاد مزاتة ، وأرسل بعدها سراياه إلى غدامس وقفصة ، وسبيطلة ففتحوها.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوى فى ذلك « وواصل - عقبة - سيره حتى وصل إلى معسكره غدامس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر ، ولم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية ، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلى جنوبى جبل نفوسة، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحها ، وواصل سيره إلى إفريقية[٢] .

---

(١) ليبيا من الفتح العربى ، ص (٥١، ٥٢) .

(٢) تاريخ فتح المغرب العربى (١/ ١٠٤) .

المبحث الثانى
تأسيس أول مدينة إسلامية فى الشمال الإفريقى

وهكذا وصل عقبة بن نافع سيره حتى وصل القيروان، وهناك رأى ضرورة إنشاء قاعدة أمنية للمسلمين تكون لهم مقراً ينطلقون منه لقتال أعداء الإسلام، وملجأ للراحة والتقاط الأنفاس وترتيب الأمور، إلا أنه لم يعجبه المكان الذى اختاره معاوية بن أبى حديج من الناحية العسكرية الأمنية، فقرر المسير إلى موضع مناسب عسكرياً، وأمنياً، واقتصادياً فكان هذا الموقع المناسب لمدينة القيروان الحالية، التى كانت تسكنها الحيوانات المفترسة، والوحوش الضارية آنذاك، حتى استنكر عليه بعض من رجاله فى اختياره ذلك المكان الموحش !!.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «إن رجاله قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء فى شعاب وغياض لاترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض وكان فى عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه».

ومضى إلى السبخة وواديها ونادى «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحلوا عنا فإننا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه» ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب، من أن السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، ونادى فى الناس: «كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا» فلما خرج ما منها من الوحوش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادى وأمرهم أن يقطعوا الشجر»[1].

فلما فرغ عقبة بن نافع من تشييد أول صرح إسلامى فى الشمال الإفريقى، أردفه بمسجد كبير جعله منارة للعلم، وقبلة لطلاب العلوم الإسلامية، وملتقى للدعاة والعلماء المجاهدين، وكان ذلك سنة ٥٥هـ، وبعد ذلك تفرغ أكثر لفتح ما بعد القيروان من مدن المغرب العربى، ومطاردة فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، وسوف نتناول هذه الفتوحات فى المباحث القادمة إن شاء الله بشىء من التفصيل.

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربى (١/١٠٤).

المبحث الثالث: فاتح المغرب فى سطور

المطلب الأول: اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته

اسمه ونسبه: هو عقبة بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أميه بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشى، أبوه: نافع بن عبد القيس الفهرى أسلم وكان مع عمرو بن العاص فى فتح مصر، وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقى إلى خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه وأمه سبية من «عنزة» اسمها النابغة: فهو أخو عمرو بن العاص لأمه، وفى رواية: أنه ابن خالة عمرو بن العاص، وفى رواية: أن عمرو بن العاص خاله، وفى رواية أنه ابن أخ العاص بن وائل السهمى لأمه، وعلى كلٍ فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً، ومن جهة الأب أيضا على اعتبار أنهما من قريش.

مولده ونشأته: ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة، لذا فقد كانت نشأته فى بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكرى بحت، فحمل سلاحه مجاهداً فى العصر الذهبى للفتح الإسلامى الخالد، وبرز فى ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع، وتجرد وإقدام، فقد ولد فى عهد رسول الله ﷺ ولا تصح له صحبة، ويقال له صحبة وعلى كل حال صحابى بالمولد وهو آخر من ولى المغرب من الصحابة، وقد تولى منصب القيادة فى أيام عمر بن الخطاب الذى لا يولى إلا الصحابة، ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابى تحت قيادة غير صحابى.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع فى تكوينه: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداًمن أبرز قادة الفتح الإسلامى على الإطلاق خاصة فى مناطق المغرب العربى [1].

---

(١) المرجع السابق (١/ ٩٠ - ٩٤).

المطلب الثانى : استشهاده

رجع عقبة إلى القيروان فلما انتهى من ثغر إفريقية وهى طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا، ويقدموا القيروان أفواجاً ثقة منه بما نال من العدو، وأنه لم يبق أحد يخشاه ، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد « تهوذة » وكان معه حوالى ثلاثمائة فارس ، فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه ، فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه ، وبعث الروم إلى « كسيلة »الذى كان فى عسكر عقبة مضمراً الغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره ، وجمع أهله وبنى عمه ، وقصد عقبة فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً فى الحديد مع عقبة، فزخف عقبة على كسيلة فتنحى كسيلة عن الطريق ليكثر جمعة فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبى محجن الثقفى :

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصارع دونى قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقة وقال له : الحق بالقيروان بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل ، وقال :وأنا أيضاً أريد الشهادة ، وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم ، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة ، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين فى أرض الزاب بتهوذة .

وهكذا كان استشهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة ثلاث وستين الهجرية ٦٨٣م، فى معركة تهوذة ، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (سنة ٦٢١)وقبره يزار بالزاب كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد ، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت ، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة ، وهو فى عداد المزارات [١] .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١١١ ، ١١٢) .

ولا ريب أن ما أحدثه هؤلاء المعاصرون على قبور أولئك المجاهدين من الصحابة يعتبر انحرافاً واضحاً عن عقيدة عقبة وأصحابه رضى اللهعنهم التى من أجلها أتوا من الجزيرة العربية إلى إفريقيا وقاتلوا وقتلوا فيها ؛ لأنه كما لا يخفى أن أصل انحراف الأمم السالفة كان مرده إلى الغلو فى صالحيهم ، فقد جاء فى الحديث الصحيح عن عائشة أن أم سلمة رضى اللهعنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها وما فيها من الصور فقال عليه الصلاة والسلام : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله ».

ويقول الإمام ابن القيم - رحمة الله - بهذا الصدد : « وهذه الأصنام كانت قبور ناس صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم ، ومازال الشيطان يوحى إلى عباد القبور، ويلقى عليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين ، وأن الدعاء عندها مستجاب ، ثم نقلهم من هذه المرتبة الى الدعاء بها ، والإقسسام على الله بها ، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقة .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه الى دعائه وعبادته ، وسؤاله الشفاعة من دون الله واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويحج إليه ويذبح عنده ، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم، وكل هذا مما قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث له رسول الله ﷺ (١) .

المبحث الرابع مناقبه رضي الله عنه

إن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد تولى مناصب قيادية جهادية فى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصاحب فى تلك المناصب القيادية قادة أجلاء مثل القائد البارع

(١) فتح المجيد (١٨٦).

عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر وطرابلس ، وكذلك صاحب عبد الله بن أبى السرح ، ومعاوية بن حديج فى معاركهم فى إفريقية ، وأخيراً قاد زمام المعارك والفتوحات فى الشمال الإفريقى بنفسه ، فجعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشراً فى تثبيت دعائم الإسلام فى تلك المناطق ، فهل يا ترى يعرف أبناء هذه الشعوب « مصر، وليبيا، والسودان، وتونس، والمغرب، وموريتانيا » فضائل هذا القائد المبارك الذى بذل روحه وكل ما يملكه من أجل إيصال دعوة الإسلام إليهم؟ لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقبه وعملياته الجهادية ، ومسيرته الدعوية، وصفاته القيادية .

المطلب الأول: جهاده فى مصر، وليبيا، والنوبة

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

أ-شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها أول صرح إسلامى فى الشمال الإفريقى كما أسلفنا ، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص فى إدارة القتال خبرة عملية ؛ وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك .

ب- بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش المسلمين إلى « زويلة » ففتحها صلحاً وصار ما بين برقة و « زويلة » سلما للمسلمين وكان ذلك سنة إحدى وعشرين ، وقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه :أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهرى المغرب، فبلغ « زويلة »وأن من بين « زويلة » و« برقة »سلم كلهم حسن طاعتهم ، وقد أدى مسلمهم الصدقة ، وأقر معاهدهم بالجزية ؛ وأنه قد وضع على أهل « زويلة » ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه ، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها فى الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة، فتحمل إلى مصر ، وأن يحمل من أرض المسلمين العُشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم .

ج – وفى هذه السنة، أى سنة إحدى وعشرين، بعثه عمرو إلى النوبة فلقى المسلمون من « النوبة »قتالاً شديداً ، ثم انصرف المسلمون من النوبة

وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح « النوبة » من المسلمين .

د- لقد قدر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر ، لذلك بعث عقبة إلى « زويلة » وسار هو إلى « ليبيا » وبعث عقبة إلى « النوبة » وبذلك كان لعقبة فضل شديد على تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر .

هـ وحين كان عمرو بن العاص على مصر ، كان عقبة على رأس المسلمين فى حامية « برقة » وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبى السرح على مصر كلها مضافاً « للصعيد »وغيره فأقره ابن أبى السرح عقبة على منصبه قائداً لحامية « برقة » .

و- سار عبد الله بن سعد بن أبى السرح بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً سنة ست وعشرين هجرية ، فلما وصلوا إلى « برقة » لقيهم عقبة فيمن كان معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك ، فساروا جميعاً إلى « طرابلس » الغرب فقاتلوا مَنْ عندها مِنَ الروم وشهد عقبة فتوحات ابن أبى السرح فى إفريقية ، وأبلى فى جهاده تحت راية ابن أبى السرح أعظم البلاء .

ز- لقد كان عقبة على رأس حامية « برقة » يحمى الحدود الغربية لمصر ، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا ، وقد حافظ على هذه المنطقة حتى فى أخطر الظروف والأحوال، كما أنه حمى « برقة » من الروم ، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التى ينطلقون منها إلى فتح إفريقية؛ لذلك كان عقبة قد قدم فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية .

المطلب الثانى : جهاد فى البحر

أ- بقى عقبة فى « برقة » بعد ابن أبى السرح أيضاً فى أيام معاوية بن حديج السكونى ، وفى سنة تسع وثلاثين الهجرية غزا عقبة الروم فى البحر بأهل مصر .

ب- وفى سنة تسع وأربعين الهجرية فى أيام معاوية بن حديج السكونى غزا عقبة الروم فى البحر ، فشتا هناك بأهل مصر .

المطلب الثالث: جهاده في ليبيا والقيروان

الفتح : بقى عقبة فى « برقة » بعد عثمان بن عفان ، وفى أيام على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم ، وفى سنة إحدى وأربعين الهجرية، استعمل عمرو بن العاص عقبة على « إفريقية » فانتهى إلى « لواتة »وكانوا قد صولحوا على صلحهم حتى نقضوا ذلك زمن معاوية بن أبى سفيان ، فغزاها عقبة فتنحوا ناحية « طرابلس » ، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم ، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم ، فأبى عليهم فقال :إنه ليس لمشرك عهد عندنا ، إن الله عز وجل يقول فى كتابه :﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ ﴾[التوبة : ٧] ولكن أبايعكم على أنكم توفونى ذمتى ، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم وعقد عمرو لعقبة على « هوارة » فأطاعوا هم و« لواتا » ثم كفروا فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبى ، وفى سنة أثنين وأربعين الهجرية افتتح عقبة« غدامس » وقتل وسبى .

وفى سنة ثلاث وأربعين الهجرية افتتح « ودان » ثانية وهى من « برقة » وذلك سنة ست وأربعين الهجرية ، فقد خرج عقبة فى هذه السنة حتى نزل « مغداش » من « سرت » وكان « ودان »نقضت عهدها الذى عاهدت عليه بسر بن أبى أرطأة سنة ثلاث وعشرين الهجرية فترك عقبة جيشه فى « مغداش » فى أرض « سرت » ، وتخلف عليهم عمرو بن على القريشى ، وزهير بن قيس البلوى ، وسار إلى « ودان » فى أربعمائة فارس، وأربعمائة جمل ، وثمانمائة قربة ماء : على كل جمل قربتان لحمل الماء ، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان ، وعدم الطاعة ، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً . . .

ولما استتب الأمر لعقبة فى بلاد « ودان »سأل عقبة أهلها : هل من ورائكم من أحد ؟ فقيل له : جرمة ، فسار إليها ثمان ليال من « ودان » ، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا، فنزل منها ستة أميال ، وخرج ملكهم يريد عقبة ، فأرسل عقبة خيلاً فأحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعماً ، فجعل يبصق الدم فقال له : لم فعلت هذا بى وقد أتيتك طا ئعاً؟ فقال عقبة : أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب المسلمين ، وفرض عليه

ثلاثمائه وستين عبداً .

ومضى من فوره لإنجاز فتح بلاد« فزان » حتى أتى على آخرها ، ونشر الإسلام فى ربوعها ، وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد « فزان »فاتحين ، وسأل عقبة أهل فزان هل من ورائكم أحد؟ فقالوا : أهل خاور، وهو قصر عظيم على رأس فى المفازة فى وعورة على ظهر جبل وهو قصبة كاوار ، فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلم وصل إليه دعا أهله إلى الإسلام،فأبوا ،وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم فحاربهم، وأقام عليه وحاصرهم شهراً دون جوى،وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار ،ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه،فقال:لم فعلت هذا بى ؟ فقال عقبة: أدباً لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب المسلمين،ثم فرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً.

ولقد أقدم عقبة على التغلغل فى الصحراء بقوات قليلة خفيفة؛لأن الحركة فى الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة الماء فيها؛ ولأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال فى مثل هذا الميدان،وإنما ميدانها المناطق الساحلية التى تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى،فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين،هؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة ... ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة،وفعلاً أنجز واجبه، وحقق هدفه فى الفتح الصحراوى بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب،وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض « هوارة » فافتتح كل قصر بها،ومضى إلى« صفر » ، فافتتح قلاعها وقصورها،ثم بعث خيلاً إلى« غدامس » فاستعاد فتحها ثانية،والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول، فاضطر عقبة إلى فتحها ثانية وتوجه إلى« قفصة » فافتتحها،ثم افتتح« قسطيلة » ثم انصرف إلى القيروان.

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين « برقة » و« القيروان »، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين، حرية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية؛ لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسى.

المطلب الرابع : تأسيسه أول مدينة إسلامية فى الشمال الإفريقى

وأخيراً قد واصل عقبة بن نافع رضي الله عنه حملته الطويلة والشاقة فى تلك الصحارى الحارة،التى قد بذل فيها الغالى والنفيس من أجل إخراج أهالى تلك المناطق من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام ينبغى بذلك وجه الله سبحانه.

أقول: لقد وصل هذا البطل أخيراً إلى القيروان القديم الذى كان فى مدينة قمونية حيث بناه معاوية بن حديج رضي الله عنه ، فلما نظر إلى الموقع من الناحية الاستراتيجية،لم يعجبه اختيار هذا الموقع الذى كان يقع فى الوسط الشرقى لإفريقية حيث لم يكن ضارباً فى الجهة الشمالية فيكون فى منعة جبلية،ولا ضارباً فى الجهة الجنوبية فيكون فى منعة رملية !!.

لذا قرر هذا القائد صاحب النظرة الاستراتيجية بأن يختار موقعاً استراتيجياً بأبعاده الأمنية والدعوية،بحيث يكون دار منعة وعزة للمسلمين وأهلهم،وقاعدة حربية لغزو القواعد الصليبية فى عقر دارها،ويكون قاعدة علمية فقهية جهادية حركية لتوريث الدين القيم لمن أسلم من أبناء الشمال الإفريقى، أو الجنوب الأوروبى وتثبيت دعائمه حتى لا ترتد أهالى هذه المناطق لجهلهم بالدين وتعاليمه.

فكان له خططه،فقد وقع اختياره على مدينة القيروان الحالية التى تقع قريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه رصد الأعداء الصليبيين ومطاردتهم،ثم قربها إلى ناحية الأرض بها سبخة حيث يوجد منها كميات كبيرة من الأعشاب والأشجار التى تأكلها الإبل وبهذا يكون قد أمن القضية الغذائية.

يذكر الأستاذ محمود شيت خطاب قول عقبة لرجاله : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر » فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم: إنى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين

البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر ؛ لأن صاحب المركب لا يظهر فى اللجة حتى يستره الليل ، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل ، فيخرج ، فيقيم فى غارته إلى نصف النهار ، فلا تدركها منه غارة أبداً ، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير فأهلها مرابطون ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر ، وميتهم فى الجنة .

فاتفق رأيهم على ذلك فقال : قربوها من السبخة ، فقالوا : إنا نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها فى الشتاء ، وحرها فى الصيف ، فقال : لابد لى من ذلك؛ لأن أكثر دوابكم من الإبل ، وهى التى تحمل عسكرنا ، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم ، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازى والجهاد ، ونفتح الأول منها فالأول ، فتكون إبلنا على باب مصرنا فى مرعاها آمنة من غادرة البربر والنصارى ، فركب إلى موضع القيروان اليوم وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيات ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه .

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس ، وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية ، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم ، وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع، فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد ، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان ، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها ، وكان عقبة فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتغنم ، ودخل كثير من البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام فى المغرب ، وأصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين فى شمال إفريقية»[١] .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٠٥، ١٠٦).

المطلب الخامس : جهاده من القيروان إلى المحيط

وبعد أن أصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين فى شمال إفريقية ، واطمأن عقبة بن نافع رضي الله عنه على الفتوحات التى أنجزها وفق الخطة الاستراتيجية المقررة لفتح الشمال الإفريقي ، وحيث كانت بدايتها فتح برقة ، وسرت شرقاً وزويلة وغدامس جنوباً ومروراً بطرابلس ، وسبيطلة غرباً، وأخيراً وقوفاً بالقيروان قرن الشمال الإفريقى ، حيث أسس أول مدينة إسلامية فى المنطقة .

وهكذا جد السير بالقائد المبارك لتنفيذ الخطة المرسومة ، فقد جهز الجيش ، واستخلف على المدينة زهير بن قيس البلوى رضي الله عنه إلا أن عقبة الرجل الشهيد رضي الله عنه قد أحس بأن هذه المعارك التى يريد أن يخوضها هى آخر عهده بدنيا الناس؛ لذلك رأى أن يجمع أهله وأولاده يلقى عليهم آخر نظرة، ويوصيهم وصية مودع، فقال لهم بعد أن جمعهم :

وصية مودع :

وهذا نص الوصية كما نقلها ابن عذارى :« فدعا بأولاده قبل مغادرته القيروان وقال لهم : إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله ثم قال : يا بنى أوصيكم ثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه،وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء ، فإن الدَّيْن ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم ،وأعراضكم ، وتبق لكم الحرمة فى الناس ما بقيتم ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم، من احتاط سلم ونجا فيمن نجا ، ثم قال : عليكم سلام الله ، وأراكم لا ترونى بعد يومكم هذا » ، ثم قال : « اللهم تقبل نفسى فى رضاك، واجعل الجهاد رحمتى ودار كرامتى عندك » (١).

---

(١) البيان المغرب (١/ ٢٣) .

ياخيل الله اركبى :

يقول الأستاذ خطاب :« وسار عقبة فى عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة « باغاية » ، لا يدافعه أحد ، والروم يهربون فى طريقه يميناً وشمالاً ، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شديداً ، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وغنم منهم غنائم كثيرة واحتمى بها المنهزمون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على تلمسان ، وهى من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر ، فخرجوا إليه فى جيش ضخم ، والتحم القتال ووقع الصبر ، حتى ظن المسلمون أنه الفناء ، ولكنهم هاجموا الروم هجوما عنيفاً ، حتى ألجؤوهم إلى الزاب ، فسأل عن أعظم مدينة فى بلاد الزاب ، فقيل له « أربة » وهى دار ملكهم ، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى ، وهرب بعضهم إلى الجبال ، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل الكثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى « تاهرت » فاستغاث الروم بالبربر ، فأجابوهم ونصروهم ، فقام عقبة فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « أيها الناس ، إن أشرافكم وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم فى دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم فى مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لايسلمكم ، ، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل بأسه على القوم المجرمين » والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلو هم قتالاً شديداً ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكنهم انتصروا أخيراً ، فانهزمت الروم والبربر ، وأخذهم بالسيف وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

وسار عقبة حتى صار على طنجة ، فلقيه بطريق من الروم اسمه « يليان »

فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس ، فقال له يليان : أتترك كفار البربر خلفك ، وترمى بنفسك فى بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد؟! فقال عقبة: وأين كفار البربر ؟ فقال : فى بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس ، فقال عقبة: وما دينهم ؟ فقال : ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق ، وإنما هم كالبهائم ، وكانوا على دين المجوسية يومئذ ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة وليلى بإزاء جبل« زرهون » وهى يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين« سبو - ورغة » وهذه المدينة هى المسماة اليوم على لسان العامة بـ« قصر فرعون »، ففتحها عقبة وغنم وسبى.

وانتهى عقبة إلى« السوس الأدنى » وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وبعث خيله فى كل مكان هربوا إليه ، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى ، وقد اجتمع له البربر فى عالم لا يحصى ، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وسار عقبة حتى بلغ« مالبان » ، ورأى البحر المحيط ، فقال : يارب ، لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك ، ثم قال : اللهم اشهد، إنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك »[١].

تأمل هذه العبارات المشحونة بحب الله ورسوله ، وبزخم المعانى الجهادية وبحرارة الشهادة ، وحيوية عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده ، فقد استشهد قائدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه بعدما قال هذه الكلمة التى تكتب بماء الذهب، وهو حينذاك ينظر إلى المحيط الهادى ، وكان ذلك سنة ثلاث وستين الهجرية ، ٦٨٣ م فى معركة تهوذة .

المبحث الخامس : أهم صفاته القيادة

لقد كان عقبة بن نافع رضي الله عنه مثالاً فى العبادة ، والأخلاق ، والورع ، والشجاعة والحزم ، والتخطيط ، والتفكير الاستراتيجى ، مما جعل أمراء المسلمين

---

(١) المرجع السابق (١/ ١١٠ ، ١١١).

في عهود مختلفة لا يبغون عنه حولاً في تسلم مناصب حربية كبيرة جداً لقيادة أخطر المعارك في الشمال الإفريقي وغربه ، فقد قاد حمله تأمينية على برقة لتأمين الحدود الغربية لمصر ، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأوائل عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وقاد حملة على إفريقية في عهد عمرو بن العاص ، وعلى طرابلس في عهد عبد الله بن أبي السرح ، وبقي قائداً عليهما حتى عهد علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم؛ لذا سوف نتناول في شخصية عقبة بن نافع أهم صفاته القيادية ومبادئه العسكرية التي أسس بنيانها في معاركه الجهادية المباركة.

المطلب الأول : صفاته القيادية

لقد ذكر الأستاذ محمود شيت خطاب أهم صفات عقبة رضي الله عنه القيادية حيث قال : « كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والفزع إليه، ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر ، وكان يؤمن أن النصر من الله جل ثناؤه ، وكان يعتقد أن الانتصارات الإسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها إلى العالم مؤمنون صادقون ، ويذود عنها حماة قادرون ، وكان يحب رجاله ويحبونه ، ويثق بهم ويثقون به ، وقد بلغت ثقتهم حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة ، فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع ، ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويغض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال ويستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له ، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة، ولا مستريح إلى كشف غامض للعورة » (١) .

ويقول أيضاً : « كان ميمون النقيبة ، كامل العقل ، طويل التجربة ، بعيد الصوت ، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، يحسن تعبئة أصحابه ، ويدخل الأمن عليهم، والخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخيًا . . . وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة ، ذا إرادة قوية ثابتة ،

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٠٧) .

وشخصية رصينة متزنة ، يتحمل مسئوليته كاملة بلا تردد ، له نفسية لا تتبدل فى حالتى النصر والاندحار، يعرف نفسيات مرءوسيه وقابليتهم ، وله ماضٍ ناصع مجيد » (١) .

المطلب الثانى : أهم مبادئه العسكرية الاستراتيجية

لا يخفى أن تفرغ عقبة بن نافع للعمل الجهادى ، وما كان يتمتع به من صفاته القيادية ، وكفايته ومقدرته العسكرية ، مما جعله صاحب نظرية فى المبادئ الاستراتيجية كمبدأ المباغتة ، وتحشيد القوات ، والاقتصاد فى المجهود ، والالتفاف، والمحافظة، والمعنويات، والأساليب التعريضية ، وإقامة المسالح ، وتأمين خطوط المواصلات، وتذليل الأمور الإدارية، واستخدام القواعد الأمنية والاستخبارية، والاستطلاعية، كل ذلك كان يطبقه فى أعماله الجهادية ، وفتوحاته الإسلامية .

وينص اللواء الركن محمود شيت خطاب لما قررناه من مبادئ استراتيجية فى أعمال عقبة الجهادية وفتوحاته الإسلامية : « وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب ، نجد أنه طبق مبدأ المباغتة فى حروبه ، وكانت حروبه تعرضية ، يعمل على « تحشيد قواته » قبل المعركة ، ويقتصد بالمجهود ، ويطبق مبدأ « الأمن » ويعمل على « إدامة المعنويات » ويذلل « الأمور الإدارية » كافة لقواته ، يحسب لها أدق حساب ، لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا فى الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامى » (٢) .

ويقول فى موضع آخر : « وبدون مبالغة ولا تحيز ، فإنه فى خلال هذه الفترة القصيرة ، قد حقق – عقبة – أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والإعجاز ، لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق الآمال وأمانيه فى فتح إفريقية من القيروان، حتى المحيط الأطلسى ، وأنجز ذلك فى وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة » (٣) .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٣٣) .
(٢) المرجع السابق (١/ ١٣٤) . (٢) المرجع السابق (١/ ١٣٤) .

الفصل السادس
قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى

المبحث الأول : أبو المهاجر دينار

لا ريب أن أن أبا المهاجر دينار بن أبى دينار ، قد كان من ضمن قيادات عقبة ابن نافع الميدانية ، التى قامت بحمل أعباء فتح المغرب الأدنى ، والأوسط ، والأقصى ، مع عقبة بن نافع ، وبعد أن عزل معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه عقبة خلال ولايته على إفريقية سنة خمس وخمسين الهجرية ، تم تعيين التابعى أبى المهاجر دينار بن أبى دينار – رحمه الله – من قبل والى مصر مسلمة بن مخلد الأنصارى والياً على إفريقية ، إلا أن معاوية خليفة المسلمين بعد برهة من الزمان أعاد عقبة حيث كان، وأصبح أبو المهاجر بعد ذلك جندياً من جنود عقبة بن نافع فى حملته المباركة على الشمال الإفريقى .

إذن من هو أبو المجاهد ؟وما هى أبرز معالمه فى فترة ولايته وما بعدها ؟وما هى أهم صفاته القيادية ؟وكيف قضى نحبه ؟كل ذلك سوف نتناوله بشىء من من الإيجاز فى هذا المبحث وتلك المطالب .

المطلب الأول : جهاده فى فترة ولايته

لا يخفى أن أبا المهاجر دينار بن أبى دينار كان يمتاز بمزايا عسكرية ميدانية عالية، وضبط إدارى رفيع المستوى ، وخبرة بطبيعة إفريقية كافية ، مما جعلت مسلمة بن مخلد والى مصر يختاره لهذا المنصب الخطير ، ويعقد له لواء الحملة .

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب : « عقد مسلمة بن مخلد لأبى المهاجر على الجيش الذى خرج معه إلى إفريقية ، وبعد إنجاز أبى المهاجر تدابيره الإدارية وإعداده خطط الفتح ، سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم فى شمال إفريقية ؛ لأن الروم لا زالوا قوة فى ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، وأن هذا

الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم وموطنهم ، فلابد من تطهير تلك المناطق منهم؛ ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمرى إفريقية القدامى، وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامى . ونازل أبو المهاجر « قرطاجنة » فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية ، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار ، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة ، طلبوا الصلح ، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة « شريك » التى كان الروم يتخذونها دوماً مثابة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين ، وذلك لكى يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز فى عملياته العسكرية عليها، وبهذا أثبت أبو المهاجر بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية ، فيفضل المواقع السوقية « الاستراتيجية » التى تفيده فى الفتح على المال الذى كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقرار الصلح بين الطرفين .

وفى رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعانى – صنعاء الشام– إلى جزيرة شريك ففتحها ، وكان هدف أبى المهاجر من فتح جزيرة شريك : أن يراقب الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين بسهولة أثناء غزوه للبلاد ؛ لأن بإمكان قوة الروم المرابطة فى تلك المنطقة التى تهدد بسهولة ويسر خطوط المواصلات لأبى المهاجر فى حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً » [١] .

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد ، حتى وصل « ميلة » فى الجنوب الشرقى لبجاية وتبعد عنها بحوالى خمسين ميلاً ، فوجدها مستعدة للقتال ، وكان فيها طائفة من البربر والروم فقد تحصنوا فيها ، فنازلها أبو المهاجر وفتحها وغنم ما فيها واستقر فيها، كانت ميلة تتوسط المغربين: الأدنى والأوسط فهى أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم فى تلك الأصقاع ، فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين ، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين ، ويريهم حقيقة الإسلام .

وكانت الزعامة فى المغربين: الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة لكثرة عددها وغناها .

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٣٩) .

وحضارتها ومناعة مواقعها ، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوروبى ، وكان كسيلة قوى الشخصية ذكى الفؤاد ، غيوراً على وطنه ، وكان البربر يحبونه ، ويجلونه ، وكان نصرانيًّا متمسكًا بدينه ، ورأى كسيلة أبا المهاجر فى ميلة فعلم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ، فذهب فى المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة المسلمين، والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم ، فسمع أبو المهاجر بجمعه ، فسار إليه .

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان ، فقصده أبو المهاجر ، والتقى الجيشان هناك فدارت المعركة حامية بينهم ، فانتصر المسلمون ، وأسر كسيلة ، فحمل إلى أبى المهاجر ، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه ، وعامله معاملة الملوك ، وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة ، فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبى المهاجر ، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط ، صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوروبى ، وصالح عجم إفريقية ، ثم رجع إلى القيروان وأقام بها » (١) .

المطلب الثانى : استشهاده

لقد ذكر فى كتب التاريخ أن عقبة بن نافع بعد رجوعه إلى ولاية إفريقية مرة ثانية، وإزاحة أبى المهاجر عنها، قرر مواصلة الفتح من حيث توقف أبو المهاجر ، وكانت آخر محطة توقف فيها أبو المهاجر أثناء حملته المباركة مدينة طنجة التى قد أسر رئيسها كسيلة ، فأراد عقبة رضي الله عنه التوجه إليها بجيشه، إلا أن أبا المهاجر أخبره بأن أهالى طنجة قد أسلموا ، وأن قائدهم كسيلة معنا ، وليس هنالك عدو لنا ، إلا أن عقبة رضي الله عنه كان يخشى ارتداد كسيلة وأهله ، نظراً لتجربته الطويلة مع أهالى إفريقية فى نقضهم للعهود وخيانتهم للمواثيق ، لذلك أغذَّ السير بعقبة نحو طنجة وما حولها .

(١) المرجع السابق (١ / ١٣٩ – ١٤١) .

يقول اللواء محمود شيت خطاب بهذا الصدد : « فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهى طبنة أذن لمن معه من أصحابه، أن يتفرقوا ويقدموا للقيروان فوجاً فوجا ثقة منه بما نال العدو ، وأنه لم يبق أحد يخشاه، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد « تهوذة » وكان معه حوالى ثلاثمائة فارس ، فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منهم، بعث الروم إلى « كسيلة » الذى كان فى عسكر عقبة مضمراً للغدر ، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة ، فقال أبو المهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقا فى الحديد مع عقبة فزحف عقبة على كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبى محجن الثقفى : -

كفى حزناً أن ترتدى الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً علىَّ وثاقيا
إذا قمت عنانى الحديد وأغلقت ... مصارع دونى قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك ، فأطلقه وقال له : الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين ، وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ذلك ، وقال : وأنا أيضاً أرى الشهادة ،وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم ، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم ، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة ، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين فى أرض الزاب بـ« تهوذة » .

وهكذا كان استشهاد أبى المهاجر – رحمه الله – سنة ثلاث وستين الهجرية، ٦٨٣ فى معركة تهوذة ، وقبره إلى الآن جاثم على أرض مدينة الزاب ، معلماً من معالم البطولة والتضحية فى سبيل هذا الدين العظيم الذى رفع الناس من وشائج الطين ، وروابط الدماء إلى قمم الروابط والوشائج . . وشيجة الدين وروابطه، فرحم الله أبا المهاجر ، الذى هجر الأوطان ، والإخوان والأحباب والمال والأنساب ، فى سبيل رفع راية "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله "، فى سماء الشمال الإفريقى، وغرسها فى أرضية قلوب العباد فى تلك البلاد ، فأبو المهاجر مافتئ يبذل فيها الغالى والنفيس حتى سقاها أخيراً بدمه الزكى ، ودماء إخوانه الطيبين

الأبرار . فهل يا ترى يعى أبناء هذه الشعوب أحفاد المجاهدين المتفين معانى كلمة "لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، وهل يسعون لنشرها ، وهل يقدمون فى سبيلها الغالى والنفيس كما فعل أسلافهم من المجاهدين والعلماء من قبل ؟! .

المبحث الثانى
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان أبو المهاجر – رحمه الله – يتحلى بصفات ومميزات لا تجدها إلا عند السادة والقادة الصلحاء ، مما جعلته يصف فى مصف قادة قادة الفتح الإسلامى البارزين ، ومن تلك الصفات القيادية التى كان يتحلى بها ، والمبادئ العسكرية التى استخدمها فى حروبه الجهادية ، وفتوحاته الإسلامية ما يلى :

المطلب الأول: أهم صفاته القيادية

فقد كان يتحلى بتقوى الله ، والتوكل عليه ، والفزع إليه ، وكان مخلصاً وفيًّا شهمًا غيوراً ، وكان يمتاز بالحكمة وبعد النظر والتعامل مع الأحداث بسياسة حكيمة ، وكان محبًّا لرجاله ناصحاً لهم محبوباً لديهم ، حسن السيرة ، عفيفاً ، شجاعاً، سخيًّا، بعيد النظر ، صحيح القرارات والخطط .

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب :« لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم، يقاتل بسيفه عند ما لا يجد مفراً من ذلك ، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم وبالعقيدة البناءة المنشأ .

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه فى حربه تقوى الله ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر ، وكان محبًّا لرجاله محبوباً منهم ،يثق به ويثقون به » (١) .

---

(١) المرجع السابق (١ / ١٤٧ ، ١٤٨) .

المطلب الثانى : أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية

لا ريب أن المدة التى عاشها أبو المهاجر فى ساحات الفداء والعمل الجهادى، قد أكسبته خبرة حربية ،وعقلية استراتيجية وكفاءة سياسية ،فقد طبق خلال عمله فى ساحات الفداء مبادئ حروب المدن،والعصابات، كمبدأ الحصار،والمباغتة والتعرض، وتحشيد القوة، والاقتصاد فى المجهود،والتعاون،والالتفاف،والمرونة،والمحافظة على المعنويات،وتأمين طرق المواصلات واختيار المقصد وإدامته.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معترفاً بأن أبا المهاجر كان قائداً حربياً بدرجة امتياز،إذ يقول: « كان كامل العقل ،طويل التجربة، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها،ومواضع الفرص والحيل والمكايد،حسن التعبئة،وحسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً ،بعيدالنظر،صحيح القرارات والخطط.

وعند تطبيق أعمال أبى المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب،نجد أنه طبق مبدأ « اختيار المقصد وإدامته » ،فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً، فهو داعية أولاً وقائد ثانياً، وأنه طبق مبدأ « التعرض » فكانت معاركه كلها تعرضية،وأنه طبق مبدأ « تحشيد القوة » قبل البدء بحركاته،فاستفاد من كل مقاتل مسلم ،ولم يبق فى القيروان إلا الشيوخ والنساء،وأنه طبق مبدأ « الاقتصاد بالمجهود » فلم يفرط بقواته دون مبرر،وأنه طبق مبدأ « الأمن » فلم يستطع العدو مباغتة قواته فى أية معركة وأنه طبق مبدأ « التعاون » فوحد جهود رجاله لإحراز النصر،وأنه طبق مبدأ « الأمور الإدارية » بشكل ملحوظ،لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً (١).

ويقول فى موضع آخر : « ما فعله أبو المهاجر فى مصالحة أهل قرطاجنة بشرط إخلاء جزيرة شريك التى يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين،حتى يحرم الروم من تلك الحيوية،وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم

---

(١) المرجع السابق (١/١٤٨).

فى حركاتهم ضد الروم،لقد فضل أبو المهاجر جزيرة شريك الموقع السوقى الاستراتيجى على المال والغنائم ، وهذا دون شك،قرار عسكرى فى منتهى الأهمية، وله دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد النظر، وتفكير عسكرى سليم »(١).

ويقول أيضاً : « وفى أيام قيادته فى إفريقية عانى أبو المهاجر فى إفريقية حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ إلى شروط أبى المهاجر،وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذى يعانيها بالضبط الشديد والصبر الجميل،كما عانى حروب الميدان حول تلمسان،وناهض جيوشاً كثيفة للبربر، وهذا النوع من الحروب،يتميز القائد الذى يعانيها بالشجاعة والإقدام،وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة،وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو،وعن أرض المعركة،وبالكفاية الممتازة فى إدارة المعركة التعبوية » (٢).

فرحم الله أبا المهاجر رحمة واسعة،وأدخله فسيح جناته،فقد هاجر،وثابر،وصابر،ورابط،وأوذى،وجاهد،واستشهد فى سبيل إعلاء كلمة" لا إله إلا الله "،وأن يكون الدين كله لله.

قال تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾[آل عمران : ١٩٥].

المبحث الثالث : زهير بن قيس البلوى رضي الله عنه

إن زهير بن قيس البلوى رضي الله عنه يعتبر من قيادات فتح الشمال الإفريقى إذ إنه كان صاحب لواء فتح مدينة تونس القديمة ، وقاطع دار فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، الذين تحصنوا فى بعض الحصون حول مدينة قرطاجنة القديمة .

---

(١) المرجع السابق (١/١٤٦). (٢) المرجع السابق (١ / ١٤٧).

المطلب الأول : اسمه ، نسبه

هو زهير بن قيس البلوى يكنى أبا شداد ، يقال : له صحبة ، وجزم بعضهم بصحبته ، فقال : « هو من الصحابة »شهد فتح مصر وكان فتحها سنة عشرين الهجرية، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد فى أيام الرسول ﷺ وهو صحابى المولد .

روى زهير عن جماعة من الصحابة ، وروى عنه جماعة من التابعين ، وقد عده بعضهم من الصحابة (١) الذين شهدوا فتح مصر ، فلذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبى ﷺ (٢).

المطلب الثانى :جهاده

١-شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمروبن العاص ، وغزا إفريقية ووليها،وفى سنة اثنتين وستين الهجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهرى إلى إفريقية فاستخلف على القيروان زهيراً ، وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذرارى والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة .

٢- ولما استشهد عقبة بن نافع الفهرى فى تهوذة سنة ثلاثة وستين الهجرية قصد كسيلة بن لمزم القيروان فى جمع كثير من الروم والبربر ، فعزم زهير على القتال ،فخالفه حنش الصنعانى وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس ، فاضطر زهير إلى العودة معهم ، فسار إلى برقة وأقام بها ، وقد زحف كسيلة البرنسى إلى القيروان سنة أربعة وستين هجرية ، وانتزعها من يد المسلمين فى المحرم ، فعظم البلاء على المسلمين ، فقام زهير بن قيس خطيباً فى الناس ،فقال : « يامعشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك » .

فقال حنش الصنعانى : « لا والله ما نقبل قولك ، ولا لك علينا ولاية، ولا

(١) انظر : أسد الغابة فى معرفة الصحابة (٢/ ١١٥) .

(٢) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٠٥).

عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم »ثم قال : يامعشر المسلمين! من أراد منكم القفول إلى مشرقة فليتبعنى »فاتبعة الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته ، فنهض فى إثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان .

وأقبل كسيلة البرنسى بعساكره ، فلما قرب من القيروان ، خرج من كان بها من المسلمين ، إذا لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم من اجتمع معه من البربر والروم، فأمن كسيلة ما بقى فى القيروان من المسلمين ، وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله ، وعلى من فيه من مسلمين ، إلى أن ولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذرارى والأثقال ، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان ، واستمر أميراً على البربر ومن بقى بها من المسلمين، وأضرم المغرب ناراً ، وفشت الردة فى البربر ، إلى أن استقل عبد الملك بالخلافة ، وأذهب أثار الفتنة من المشرق ، فالتفت إلى المغرب لإعادة الفتح الإسلامى المجيد .

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتنة الدخلية كان زهير مرابطاً فى برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهرى ، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم من يد « كسيلة »، وأن يعز الإسلام بهما كما كان فى أيام عقبة، فقال لهم عبد الملك : من للأمر مثل عقبة؟ فاتفق رأيهم ورأى المسلمين على زهير ، وكان من رؤساء العابدين،وأشرف المجاهدين ، فوجه إليه عبد الملك ، وأمره بالخروج على أعنة الخيل فى من معه من المسلمن لغزو إفريقية، فسر ذلك زهيراً وسارع إلى الجهاد .

ولكن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر ، وبقلة من معه من الرجال والأموال ، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر ، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا بزهير ، فلما وصلو إليه خرج بهم إلى إفريقية فلما دنا

من القيروان نزل بقرية يقال لها: «قلشانة» وذلك فى سنة تسع وستين الهجرية ، فبلغ ذلك كسيلة وكان فى خلق عظيم من الروم والبربر ، فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم: «أرى أن ننزل بـ«ممس» لئلا يركبنا من القيروان فنهلك؛ ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ، نخاف إن قاتلنا زهير يثب هؤلاء وراءنا ، فإذا نزلنا ممس أمناهم وقاتلنا زهيراً ، فإن ظفرنا بهم تعلقنا بالجبال ونجينا كما أن الماء بـ«ممس» كثير ، فأجابوه إلى ذلك ، ورحل إلى «ممس» فبلغ ذلك زهيراً ، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح .

وفى اليوم الرابع زحف زهير فى آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحى القيروان ، وأشرف زهير على عسكر كسيلة فى آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول ، فلما أصبح زحف إليه ، وأقبل كسيلة ومن معه ، والتحم الفريقان ، فنزل الضر وكثر القتل فى الجانبين حتى يئس الناس من الحياة ، ولم يزل كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس فى طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم ، وجدوا فى طلبهم إلى وادى ملوية وادى بطنجة بالمغرب ، وفتحت« شقبنارية » وقلاع أخر ، وفتح مدينة تونس ، وفى هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم ، وقتل رجال البربر الروم وملوكهم وأشرافهم ، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم ، فلجئوا إلى الحصون والقلاع ، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر .

وخاف البربر من زهير والمسلمين خوفاً شديداً ، وكسرت شوكة« أوربة » من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى، وملكوا مدينة« وليلى » وكانت فيما بين فاس ومكناسة بجانب جبل زرهومن ، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر.

وعاد زهير إلى القيروان ، فرأى إفريقية ملكاً عظيماً ، فأبى أن يقيم بها وقال : إنى ما قدمت إلا للجهاد ، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك ، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، فترك القيروان آمنة، وانصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه فترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذى شوكة، ورحل فى جمع كثير

إلى مصر ، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة، فأمكنهم مما يريدون فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة عظيمة من القسطنطينية ونهبوا، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير ، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً بأن يدرك سبى المسلمين فيستنقذهم، وأشرف على الروم ، فإذا هم فى خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم المراكب ، فنادى أصحابة : النزول فنزلوا ، وكان أكثرهم من التابعين ، ونزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، فتلاحم القتال وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير أشراف من كانوا معه من العرب ، ولم ينج منهم أحد ، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية (١).

المطلب الثانى : استشهاده

لقد كان زهير رضي الله عنه من رؤساء العابدين ، وأشراف المجاهدين صاحب فضل ودين ، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين، شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية، وشارك فى معارك عقبة بن نافع رضي الله عنه وقام باسترداد إفريقية من كسيلة وقتله ، ثم بعد انتهائه من استرداد إفريقية بلغته معلومات خطيرة، فحواها تحشد الروم من قسطنطينية وصقلية على شواطئ برقة ومنهم من نزل إلى برقة وقد أخذوا السبى والأموال من المسلمين .

فتوجه لتوه ناحية برقة، فلما أشرف من مرتفعات برقة على الروم وراءهم ماذا يفعلون بسبى المسلمون ،لم يكن له بد من خوض هذه المعركة، وأن يبذل الغالى والنفيس فى شواطئ درنة وشحات ، فأكرمه الله بالشهادة وثلة ممن معه فى تلك المعركة، ودفنوا فى مدينة درنة وقبورهم لازالت موجودة حتى الآن، وتسمى مقبرة الصحابة ، كان ذلك سنة ست وأربعين الهجرية ، فرضى الله عنهم وأدخلهم فسيح جناته، ورحم الله زهيراً ، حقاً إنه كان مجاهداً من المهد إلى اللحد .

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٥٠- ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧).

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية وتطبيقاته الحربية

أهم صفاته القيادية: لقد امتاز بصفات قيادية عدة، منها :الشجاعة، والإقدام، والذكاء، والصبر، والنجدة، والشهامة، والورع، والتقوى، والزهد، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم، وكان ذا تجربة طويله عملية للحروب ، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :«كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف المجاهدين ، صاحب فضل ودين ، وكان من العباد المخبتين ، وكان من العلماء المتفقهين»(١).

ويقول من موضع آخر: «لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح : شجاعة،وبطولة، وإيماناً، وورعاً... نشأ زهير فى بيئة مخلصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع فى أيام الجهاد الأولى ، وفى العهد الذهبى للفتح الإسلامى »(٢).

تطبيقاته الحربية: لقد طبق زهير فى معاركه مبادئ حربية كثيره منها : التحشد، والأمور الإدارية، وحماية خطوط المواصلات، وجمع المعلومات ، وعمليات استطلاعية، والتعرض.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بعد حديثه عن طلب زهير من عبدالملك يسأله الإمداد بالرجال والأموال :«فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر بذلك طبق زهير مبدأى: التحشد، والأمور الإدارية على أكمل وجه»(٣).

ويقول فى موضوع آخر : لست أشك أن حامية منطقة برقة التى خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو ، ولحماية خطوط مواصلاته، لايمكن أن

---

(١) المرجع السابق (١/١٦٢).

(٢) المرجع السابق (١/١٦٣).

(٣) المرجع السابق (١/١٦٥).

تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث، لاتهتم بالحصول على المعلومات عن العدو المتربص، فلا بد أن تكون له مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر في مختلف الأماكن والأصقاع»(١).

آخيراً رضي الله عن الصحابي الجليل ، والمجاهد من المهد إلى اللحد ، الذي أعاد إفريقية إلى حظيرة الإسلام، وقدم نفسة في سبيل إنقاذ أعراض المسلمين وديارهم، المجاهد الشهيد ، زهير بن قس البلوى .

المبحث الرابع
حسان بن نعمان الأزدي الغساني

بعدأن استقر ملك عبد الملك بن مروان التفت إلى الشمال الإفريقي وأوضاعه العسكرية والسياسة، فرأى أن يندب لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية في تلك المنطقة حسان بن النعمان ، فكتب له بقيادة الحملة على الشمال الإفريقي ، فمن هو حسان بن النعمان ؟.

المطلب الأول:نسبه وأيامه الأولى

هوحسان بن النعمان بن عدى بن مغيث بن عمرو بن مزيقياء بن بن عامر ماء السماء ابن الآزد ، أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامى فأسلم بعضهم وبقى بعضهم نصرانيًا، فنشأ وترعرع فى بيت عريق له ماض مجيد فى القيادة والحكم . انتقل جده عمرو بن مزيقياء الذى كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام ، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بنى غسان.

كان حسان من التابعين ، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكانت له مكانة مرقومة عند بنى أمية وعند الناس ، حتى أطلق عليه لقب : الشيخ الأمين (٢).

---

(١) المرجع السابق (١ / ١٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤ / ١٤٠).

المطلب الثانى : جهاده

١ ـلما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوى ، وأصحابه اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك ، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهرى و أصحابه ، وسأل أشراف المسلمين عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى أهل إفريقية ، ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم ، فقال عبد الملك :« ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغسانى » ولما قتل عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية،إذ اجتمع المسلمون عليه،فجهز جيشاً كثيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان،وسيرهم إليها فى سنة أربع وسبعين الهجرية،وقيل :بعد سنة ٧٦هـ.

٢ـودأب حسان على إنجاز استحضارات جيشه الذى بلغ تعداده أربعين ألفاً أقامه أولاً فى مصر عدة لما يحدث،وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له: « إنى أطلقت يدك فى أموال مصر،فأعط من معك ومن ورد عليك،وأعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه»

٣ـومضى حسان فى جيشه الكبير،حتى نزل طرابلس الغرب،فاجتمع إليه من كان بها،ومن كان خرج معه من إفريقية وطرابلس،فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية،وعليها محمد بن أبى بكير،وهلال بن ثروان اللواتى، وزهير بن قيس،ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة،وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة،وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به،وأنه لاقى مقاومات طفيفة فى طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة فى المدن الواقعة على طريق جيش حسان،ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة وكان تولى هلال بن ثروان اللواتى،وهو أول بربرى مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين يدل على أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم فى مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب .

٤ـوما كاد حسان ينجز استحضارات جيشه من كل الوجوه،إلا وسأل أهل

إفريقية: من أعظم الملوك بها قدراً؟فقالوا: صاحب قرطاجنة « دارا » ملك إفريقية، وقرطاجنة هى المدينة العظمى، قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان يومئذ بها جموع من الروم لاتحصى، ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك.

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة، فقتل منهم عدداً كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة، فسباها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمال، فاجتمعوا مسرعين، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها.

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان، فعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب ملك قرطاجنة عنها، فبادروا إليها فدخلوها، ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلاً ذريعاً، وسباهم وأرسل لمن حوله، فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر.

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكى لايحتمى بها المدافعون مرة أخرى، وقطع القناة عنها لكى يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة، وهذان العاملان نفذهما فى فتحه الأول لقرطاجنة، ومن إجرائه هذا، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق فى قرطاجنة الناحية العسكرية الحيوية فقط، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً، ولكنه لم ينجح فى تدمير مرافقها الحيوية كافة، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات، وهذا مايفهم من قول النويرى: « فهدم المسلمون ما أمكن منها » (١).

---

(١) نهاية الأرب، ص (٧٤ب) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١ / ١٨٠).

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة. وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في « صطفورة » و « بنزرت » وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة، ولكن المسلمين صبروا، فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون تلك البلاد، ولم يترك حسان موضعاً من تلك البلاد إلا وطأه، وخاف أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة « باجة » فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة « بونة »[1] فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى هي التي أدت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس، وإلى صقلية، وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة، والمعركة الثانية ومعركة « صطفورة » و« بنزرت » هي التي أدت إلى تشتيت فلول قوات الروم وبعض حلفائهم البربر، كانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، طهر حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم، وكان قرار حسان في الإقدام على المعركة الثانوية قراراً صائباً؛ لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيئ للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية، أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلا إلى خسائر فادحة في الأرواح والمواد، كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برأت جراح أصحابه[2]، وأراح بها أياماً، وأكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا

---

(١) بونة: مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر، انظر معجم البلدان (٢ / ٣٠٩).
(٢) انظر: رياض النفوس للمالكي (١ / ٣٢).

صائباً؛لأنه كان لا بد للجرحى أن يشفوا من جراحهم،ولا بد للجيش من راحة بعدما نال من رجاله طول القتال،ولا بد للقضايا الإدارية من معالجة وإعداد،وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

٥- وسأل حسان أهل القيروان عمن بقى من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم،فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها: الكاهنة،وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها،وجميع البربر مطيعون لها،فإن قتلتها دان لكَ المغرب كله،ولم يبق لك فيه مضاه ولا معاند،وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب،ولهذا سميت الكاهنة،كانت بربرية [١]،وقد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة،وهى إذ ذاك ملكة« جراوة » من قبائل البربر الكبيرة،وهى يومئذ أعظم ملوك البربر،بل هى ملكة البربر دون منازع،وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم،وربوا فى حجرها،فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم،وبما كان لها من الكهانة،فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها.

وعزم حسان على قصدها،فخرج إليها بجيوشه،ولما بلغ موضعاً يقال له:« مجانة »[٢] نزل بها،وكانت قلعة لم تفتح،فتحصن بها الدوم فمضى حسان وتركهم،وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل « أوراس » فى عدد لا يحصى،فنزلت

---

(١) قلت : « الكهنة هم الذين يأخذون عن مسترقى السمع ، وكانوا قبل المبعث كثيرين وأما بعد مبعث النبى ﷺ فإنهم قليل ؛ لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب وكانت ولا زالت الشياطين من الجن تخبر أولياءها من الإنس ، والإسلام حرم ذلك ، قال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام : ١٢٨) وإخبار الجن والإنس فيه كذب وزور واختلاف و عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :« من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » رواه أبو داود ، هكذا يا أخى الحبيب كانت الشعوب والقبائل والأمم قبل مجىء الإسلام فى تيه وضلال وركام من التصورات الباطلة .

(٢) مجانة : بلد بإفريقية بينها وبين القيروان خمس مراحل : انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧ / ٣٨٦).

فى مدينة « باغاية »[١] فأخرجت من بها وهدمتها؛ لأنها ظنت أن حسان يريد حصنها ليتحصن به منها ، وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادى « مكناسة »[٢] . فقيل له : إنها قد أقبلت فى عدد لا يحصى ، فقال : دلونى على ماء يسع العسكر الذى أنا فيه ، فمالوا إلى نهر « نينى »[٣] فنزل عليه ، وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه ، ودنا الطرفان من بعضهما ، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار،وأبى أن يقاتلها بالليل ، وبات الفريقان على مصافهم ، فما أصبحوا حتى زحف بعضهم على بعض ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وعظم البلاء فظن المسلمون أنه الفناء، فانهزم حسان بعد بلاء عظيم ، وقتل من المسلمين خلق كثير ، فسمى ذلك اليوم يوم البلاء ، وسمى النهر الذى التقوا عليه : نهر البلاء ، فاتبعته الكاهنة بمن معها ، حتى خرج من حد « قابس » فأسلم إفريقية ومضى على وجهه ، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد ابن يزيد العبسى ، وكان رجلاً مذكوراً ، فأحسنت إسارهم ، إلا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسان فحبسته عندها ، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت فلت بزيت ، والبربر تسمي ذلك « البسيسة » ، وقالت لخالد : ما رأيت فى الرجال أجمل منك وأشجعَ، وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدى ، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت ، وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها ، وقالت : كلا معه على ثدى ، ففعلا ، فقالت : قد صرتم إخوة ، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم[٤] .

كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة ، حيث إنهم وأبوا على الإحسان إلى الأسرى فى معاركهم السابقة ، فكيف لا تحسن

---

(١) باغية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسطنطينة . انظر : معجم البلدان (٢/ ٤١) .

(٢) مكناسة : مدينة بالمغرب فى بلاد البربر ، تبعد عن مراكش أربع عشرة مرحلة من الشرق .

(٣) نينى : نهر فى إفريقية . انظر : معجم البلدان (٨ / ٢٦٩) .

(٤) هذه الصورة من الرضاع لا يعرفها الإسلام ، ويشترط أن يكون الرضاع دون الحولين ويتحقق معه وصول لبن حقيقية إلى جوف الرضيع مما يعتبر إرضاعاً ، وقد اختلف الفقهاء فى عدد الرضعات ، وأميل إلى كونه بخمس رضعات مشبعات فما أكثر .

إليهم الكاهنة بعد معركة نينى ؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا ، فمن المحتمل جداً أن خالد بذل جهوده بعد أن أصبح أسيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى ، فكان له ما أراد .

واكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين فى جبل الأوراس ، ثم تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية ، فلم لم تسر إلى القيروان فتقضى على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل « كسيلة » من قبل ؟ .

لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية ، وقد كانت القيروان عامرة بالمسلمين ، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقضى على عاصمة المسلمين فى إفريقية مدينة القيروان ؟ .

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها فى الأوراس ، فاكتفت بإبعاد القوة التى كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها [١] ، وما دام المسلمون الذين فى القيروان ضعفاء مسالمين ، فلا خطر على الكاهنة منهم ، كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها ، غير المحاربين بالفناء ، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدى إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرر .

مهما يكن من شيء ، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسها الكاهنة بسوء فبقى من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح ، ولم تحفل الكاهنة لهم ، وإنما عادت إلى « الأوراس » وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية فى ناحية من نواحى البلاد لا انتقاض تام ، وكان حسان يفهم هذه الحركة هذا الفهم؛ ولهذا أقام فى طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك [٢] .

٦ -طفق حسان يرفق فى سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به ، وذلك أثناء انسحابه من معركة نينى ، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا فى القيروان كانوا غير محاربين ، فلما فصل من قابس كتب إلى أمير المؤمنين

---

(١) انظر : فتح العرب للمغرب ، د. حسين مؤنس ، ص (٢٤٩) .

(٢) انظر : فتح العرب للمغرب ، ص (٢٤٩) ، نقلاً عن قادة المغرب (١/ ١٨٦) .

يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة ، فكتب إليه أمير المؤمنين : « لقد بلغنى أمرك وما لقيت وما لقى المسلمون ، فانظر حيث لقيت كتابى هذا ، فأقم ولاتبرح حتى يأتيك أمرى » فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له اليوم : قصور حسان ، فبنى هناك قصراً لنفسه ونزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان، وكانت « أنطابلس »و « لوبية »و « مراقية »إلى حد « أجدابية »من عمل حسان ، فأقام بعمل برقة خمس سنوات (١) .

وتوافدت على حسان فرسان المسلمين ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان ، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد ، فأتاه فقال له : إن حسان يقول لك : ما يمنعك من الكتابة إلينا ؟وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور ، فكتب خالد فى ظهر كتاب حسان : « إن البربر متفرقون ، لا نظام لهم ولا أرى عندهم ، فاطو المراحل وجد فى السير » وجعل الكتاب فى خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه إلى حسان ، وكان خالداً قد أنضج الخبز فاحترق الكتاب بالنار ، فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذى كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار ، فقال له حسان : « ارجع إليه »، وعاد الرجل إلى خالد ، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس (٢) السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفى مكانه (٣).

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا ، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة ، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم ولا رأى عندهم ، كما أن تدابير الكتمان التى اتخذها خالد بلغت حد الروعة والإتقان ، فهو يخفى رسالة إلى حسان تارة فى البز الذى عمل على إنضاجه حتى يستوى ويخفى مكانه ، ولن نستطيع ضابط استخبارات ممتاز محترف فى الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير ت أكثر حذار وأدق مما فعله خالد فى تدابيره

---

(١) انظر : ابن الأثير (٤ / ١٤٣).

(٢) القربوس : حنو السرج .

(٣) انظر : فتوح مصر والمغرب ، لابن عبد الحكم ، ص(٢٧٠).

تلك، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه (١).

٧ ـ ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات ، فلما رأت إبطاء المسلمين عنها قالت للبربر : إن المسلمين إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ! فلا أرى لكم إلا خراب إفريقية كلها ، حتى ييأس منها المسلمون ، فلا يكون لهم رجوع إلى آخر الدهر ! فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ، ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ، ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب .. وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير ، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة ، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية .

لقد أضر هذا العمل التخريبى بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً ، لأنه إذا كان قد وجد من أهل البلاد من يؤيدها فى مناهضة العرب وطردهم من البلاد ، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدى إزاء التخريب الذريع الذى اختارته الكاهنة للبلاد على يديها، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها ، فاضطرب الأمر بيدها ، وانقلب أمر البلاد من سيئ إلى أسوأ .

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة فى بلادها : إدارة سيئة ، وظلم للناس ، وتخريب للبلاد ، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية .

وقد أخطأت الكاهنة فى تقديرها لأهداف المسلمين من الفتح ، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام فى ربوعها ، فلم تكن همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع ، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم ، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبى أثر فى نفس حسان ولا فى سياسته ، ولم تجن الكاهنة من أعمالها إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب المسلمين .

٨ ـ هذه أخبار الكاهنة فماذا عن الروم وحركاتهم فى إفريقية بعد اندحار

---

(١) نفس المصدر ، نقلاً عن قادة فتح بلاد المغرب العربى (١ / ١٨٨).

حسان أمام الكاهنة ؟، وفى أثناء بقائه متحفزاً فى قصور حسان من أرض برقة بـ« سرت » وجد الروم فى خروج حسان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانها عليها من جديد ، وكان الإمبراطور الجديد – ليونتيوس – الذى خلف جستنيان الثانى سنة ٧٤ هـ – ٦٩٥ م قد أهمه سقوط قرطاجنة فى يد العرب وتخريب حسان لها ، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية – دون مقاومة – أمراً سهلاً على نفسه ، كما يقول ديل ، فما تكاد أخبار هزيمة حسان على نهر نينى ترد إليه ، حتى عجل بالعمل فقد أعد حملة كبيرة لإفريقية ويبدو أنه بذل فى إعدادها جهداً عظيماً ؛ لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم هو البطريق يوحنا وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى أفريقية .

وظهر الأسطول البيزنطى فى مياه قرطاجنة فى سنة٧٨ هـ – ٦٩٧ م وتمكن من الاستيلاء على المدينة بيسر ، وضرب المسلمين الذين كانوا فيها « الذين على رأسهم أبو صالح » وقسا فى معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة ، حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده – كما يقول تيوفانس ونقفور – فلما تم له ذلك ، اكتفى بها وأراح فى قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة ، غير حاسب لعودة العرب حساباً ، فلم يكلف نفسه عناء الشروع فى عمل آخر (١) .

٩ – بهاتين الحركتين : حركة الكاهنة ، وحركة البطريق يوحنا ، تم انتقاص إفريقيا على المسلمين ، وخرجت من يدهم جملة ، ولم يبق فى طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلى قابس غرباً ، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه؟ أقامت هى فى الجنوب فى السهل الداخلى ، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذى يمتد من« سوسة » إلى« شقبنارية » .

كان حسان فى شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه ، وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقية ، وتوطيد أركان الإسلام فى ربوعها ، بينما كانت الكاهنة وكان الروم فى الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى – كل ذلك يسر لحسان استعادة فتح إفريقية وتحقيق أهداف

(١) انظر : فتح العرب للمغرب ، (٢٥٤) ، نقلاً عن قادة فتح المغرب العربى (١ / ١٩١) .

المسلمين فى أرجائها .

١٠ - أقام حسان خمس سنوات على مقربة من سرت فى المكان المسمى : قصور حسان ، يلح على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات إليه ، فلماذا تأخر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسان الملحة المشروعة ؟ .

كان عبد الملك فى هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية . . وهكذا مرت هذه الفترة الحافلة : ثورات داخلية لا بد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها .

وغزوات للروم فى سنة سبع وسبعين الهجرية ، وثمانين الهجرية ، هذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية ، وكل ذلك حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام؛ لأن هذا الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظم الحروب . . وطاعون ذريع فى أرض الشام لا يبقى ولا يذر . . كل ذلك منع عبد الملك بن مروان من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها . .

١١ - وسير عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال ، وتوافدت عليه فرسان المسلمين ورجاله ، حتى إذا اكتملت استحضاراته للقتال وتهيئة جيشه ماديًّا ومعنوياً، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة ، فرحل حسان إليها فى أواخر سنة إحدى وثمانين الهجرية ، وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبال الأوراس فى خلق عظيم ، ولما اقترب حسان من الكاهنة ، خرجت ناشرة من شعرها ، فقالت : يا بنى ! انظروا ماذا ترون فى السماء ؟ فقالوا : نرى شيئاً من سحاب أحمر ، فقال : لا وإلهى ، لكنها وهج خيول العرب ، ثم قالت لخالد بن يزيد : إنى إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم ، أنا مقتولة ، أوصيك بأخويك هذين خيراً، فانطلق فخذ لهما أماناً ! فانطلق خالد فلقى حساناً ، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها الأمان . . ثم التحم القتال واشتد الحرب والنزال ، فانهزمت الكاهنة ، فاتبعها حسان حتى قتلها .

كانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها فى سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١م) وبعد مقتل الكاهنة أخذ البربر إلى الطاعة ،

واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام [١] ، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالى البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هى الحصن الأخير الذى احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ولم يبق أمام المسلمين غير مقاومة طفيفة من بعض قبائل البربر.

١٢ ـ وعاد حسان إلى القيروان بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم ، وذلك فى شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية [٢] ، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية ، فلما استراح جيشه وأنجز حسان استحضاراته، اتجه إلى شمال القيروان إذ لا زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر ، وكانت جبال زغوان فى شمال قيروان وفى جنوب قرطاجنة لا تزال موطناً لمقاومة البربر والروم ، ولعل قربها من قرطاجنة جعلها الخط الدفاعى الأول عن تلك المدينة ، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى ، فأسرع إليها حسان بنفسه ففتحها صلحاً.

ولم يبق على حسان إلا استعادة فتح قرطاجنة ، وكان يوحنا ورجاله من الروم قد حصنوها ،وأعاوا ما تهدم من أسوارها ، وكانوا يرقبون حركات حسان ، فسار إليهم ، فتحصنوا بها ، وحاصرهم حسان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم فى أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة ، فالتجأ إلى قرطاجنة محتمياً بها ، وانهزم الأسطول البيزنطى فى موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة فى يد حسان ، فأدرك اليأس البطريق يوحنا ، فجمع أجناده وتولى بيزنطة ؛ ليعود منها مرة أخرى بعدة قوى ، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط .

كانت للروم سفن بباب النساء ، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلاً ، وأسلموا المدينة ولم يبق بها إلا الملك المسمى بمرياف وأهله وولده ، فكتب إلى حسان : « هل لك أن تعاهدنى فى أهلى وولدى وأشترط لنفسى ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة ؟ » .

---

(١) انظر : الفتح العربى فى ليبيا ، (ص ١٣٩) .

(٢) البيان المغرب (١ / ٢٩) ، نقلاً عن قادة فتح المغرب (١ / ١٩٨) .

ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها ، فأجابه حسان إلى ذلك ، فاشترط الأرض المسماة بمرياف ، وهى إذ ذاك قرى كثيرة ، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير أهله وولده ، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد ، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض ، وهى الناحية بمرياف فى تونس (١) .

ولما فتح حسان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها .. وكان قد استمد عبد الملك بن مروان ، فأمد بأسطول تحت قيادة عبد الملك بن قطن ، فطهر الجزر التى كانت مكمناً للأعداء ، كما بعث إلى فاس خيلاً ففتحها . وبهذا خلصت إفريقية لحسان ، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد . نعم ، بقيت بضع نواحى لم يصل إليها المسلمون بعد ، وبعض قبائل لم تعلم بمقدمهم ، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربى قد تم ، وأن واجب حسان الآن هو الاهتمام بنواحى أخرى فى تلك البلاد لنشر الإسلام ، وتقرير أمور البلاد ، وخراجها وشؤونها وما إلى ذلك ، أدرك حسان بثاقب فكره وبعد نظره ، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديداً، ويكون له أسطول بحرى قوى ، ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على ترشيش ، فبدأ يحصن المدينة من جديد ، ويبدو أن مدينة ترشيش كان اضمحل قد أمرها حيث بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان ، قد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل فى صلواتهم فيستأنسون بهم ، فقالوا : هذه البقعة تونس وقيل : إن المسلمين سموها : تونس لجمالها ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب ، وبهذا استطاع حسان أن ينشئ مدينة ثانية بإفريقية ، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً برياً ومعسكراً للجند الإسلامى ، فقد أصبحت تونس كذلك رباطاً يحمى القيروان ومحرساً بحرياً وميناء جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنة .. وبقيام هذه المدينة ، حيل بين الروم وبين إفريقية فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها ،

---

(١) انظر : المسالك والممالك للبكرى ، ص (٣٧) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١/ ١٩٩) .

فأمن المسلمون شرهم وأصبح وجودهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد تمهيداً للإسلام ، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين .

المطلب الثالث : إصلاحاته

أولاً : فى سنة اثنتين وثمانين استقامت إفريقية لحسان فدوّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية من البربر ، ثم أوعز إليه عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ، ونزل موضع القيروان ، وبنى مسجد جماعتها، وخطط مدينة تونس ، وبدأ بنيانها ، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر .

تلك إصلاحات مهمة جداً ، منها إدارية مثل بناء تونس وحفر قناتها وبناء مسجد القيروان ، ومنها إصلاحات عسكرية ، كتجنيد جيش البربر ، ومنها إنشاء أسطول بحرى إسلامى .

ثانياً : تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية :

دون حسان الداوين ، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولين ، ونظم الجيش وقسمه على الثغور وفرض له العطاء من بيت المال ، وأقام العمل على النواحى الإدارية من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك، مما كان فى غير إفريقية من بلاد المسلمين إذ ذاك ، وأقام حسان المساجد فى المدن والقرى ، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد والفتوى فى المسائل الدينية ، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم أبناء المسلمين دينهم ، وتحفيظهم القرآن الكريم ، وتطبع على ألسنتهم بلغته واختار حنش بن عبد الله الصنعانى عاملاً على الزكاة ، وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى ، وعين القضاة للنواحى ، وأقام الحراس فى النُهُج والطرقات لحفظ الأمن ، وقسم الأراضى بين قبائل البربر ، فعين لكل قبيلة خطتها، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين .

وقد عد حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً ؛ لذلك أقر الأرض فى أيدى البربر وجعلها لهم ، واعتنى حسان بالمدن والقرى ، فمهد الطرق للسابلة ،

وأصلح القنوات للرى ، وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه ..

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التى أنشأها فى إفريقية ، وأنشأ مرفأها «الميناء »ودار الصناعة ولم يكن لأهل المغرب أى لغة يتفاهمون بها كلهم ، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته ، ولما كانت العربية هى لغة القرآن والإسلام فقد بدؤوا يقبلون عليها ويتعلمونها ، فجد حسان كل الجد فى تعليم العربية للبربر ؛ لأنها أصل الدين .

وضرب حسن السكة للمغرب دنانير وفلوساً ، وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزنطيين ،وهى تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم .. وكان حسان قد قضى على الروم سياسياً وعسكرياً ، وبقى لهم سبب دينى يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزنطة وهى العلاقات الكنيسية ، فقطعها خوفاً من أن يتدرع البيزنطيون فيصلون بالمغرب ، فوصل الكنيسة القرطاجنة بالكنيسة المرقصية الأرثوذكسية فى مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية فى روما وبيزنطة (١) .

ثالثاً : مؤسس ولاية المغرب :

بهذا اكتملت الأسباب لتكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل خليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام ، ويتخذون العربية لغة .

وسواء أكان السبب الأكبر فى ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن، فإن المغرب الإسلامى القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة ، وحضاراته الهالكة، وحل محله المغرب ، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة ، ووجهة واحدة .. وكان لحسان أثر بالغ على ذلك .. ولقد كان حسان بحق

---

(١) قلت : ولأهل الذمة حقوق وعليهم واجبات ، وبيننا وبينهم عقد يُعرف بعقد أهل الذمة ، وهو تأمين من أجاب المسلمين ، إلى دفع الجزية من الكفار وتعهد للمسلمين بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية فى الحدود كالقتل والسرقة والعرض ، ويتولى عقد الذمة =

المؤسس الأول لولاية المغرب الإسلامى العربى [١].

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان حسان قائداً عبقرياً قام فى حملته على إفريقية والشمال الإفريقى بعدة أعمال تنم عن شخصيته القيادية ، فقد قضى على قوة الروم ، وفتت قوة البربر ، وفتح قرطاجنة عاصمة الروم فى إفريقية ، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة ، ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة ، ثم بذل قصارى جهده لنشر لإسلام بين البربر ، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان بدلاً من أن يكون هؤلاء فى صفوف أعدائه، فما هى صفات هذا القائد العبقرى الفذ ، ومبادئه الاستراتيجية التى طبقها فى حملته الجهادية ؟ .

أهم صفاته القيادية : لقد كان حسان رجلاً عاقلاً ، رزيناً ، مخلصاً ، وفيًّا ،

= الإمام أو نائبه من أمراء الأجناد فقط ، أما غيرهما فليس له حق فى ذلك ،بخلاف الإجارة والتأمين ، فإنه لكل مسلم ذكر أو أنثى أن يجير ويؤمن ، وقد أجارت أم هانئ بنت أبى طالب رجلاً من المشركين يوم الفتح فأتت الرسول ﷺ فذكرت له ذلك ، فقال : « قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنتى يا أم هانئ » ولأهل الذمة على المسلمين حفظ أرواحهم وأمواهم وأعراضهم ، وعدم أذيتهم ما وفوا بعهدهم ولم ينكثوه ، لقوله ﷺ : « من آذى ذميًّا فأنا خصمه يوم القيامة » فإن هم نكثوا عهدهم ونقضوه بارتكاب ما من شأنه نقض العهد حلت دماؤهم وأموالهم ، دون نسائهم وأموالهم ، وأن لا يؤخذ المرء بذنب غيره ، وينتقض عهد الذمة بأمور منها : الامتناع من بذل لجزية، وعدم التزامهم بأحكام الشرع التى كانت شرطاً فى العقد ، تعديهم على المسلمين بقتل ، أو قطع طريق، أو تجسس ، أو إيواء جاسوس للعدو ، أوزنى بمسلمة ، وينقض العهد أيضاً : بأن يذكروا الله ورسوله أو كتابه بسوء ، أما الخراج الذى ضربه حسان على البربر فهو : ما يضرب على الأراضى التى احتلها المسلمون عنوة ، فإن الإمام مخير عند احتلاله أرضاً بالقوة بين أن يقسمها بين المقاتلين وبين أن يوقفها على المسلمين ، ويضرب على من هى تحت يده من مسلم وذمى خراجاً سنوياً معلوماً ينفق عد جبايته فى صالح المسلمين العام ، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتحه من أرض الشام، والعراق ، ومصر ، ولو صالح الإمام العدو على خراج معين من أرضه ثم أسلم أهل تلك الأرض ، فإن الخراج يسقط عنهم لمجرد إسلامهم بخلاف ما فتح عنوة ، فإنه وإن أسلم أهله فيما بعد ، يستمر مضروباً على تلك الأرض .

(١) قادة فتح بلا المغرب (١ / ٧٢ – ٢١٥).

صادقاً ، نقياً ، ورعاً ، أميناً حتى كان يسمى : الشيخ الأمين ، وكان يتمع بصفة بعد النظر ، واستخدام العقل فى محل العقل ، والسيف محل السيف ، شجاعاً مقداماً ، شهماً ، ذكيًّا فطناً متيقظاً ، له المقدرة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة .

أهم مبادئه الحربية : مبدأ جمع المعلومات عن العدو ، مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، مبدأ التعرض ، مبدأ المباغتة ، مبدأ تحشيد القوات ، مبدأ الاقتصاد بالمجهود ، مبدأ إدامة المعنويات ، مبدأ الأمور الإدارية [١] .

المطلب الخامس : استشهاده

لقد مكث حسان أميراً على إفريقية قرابة اثنتى عشرة سنة ، قائداً ، ومقاتلاً، عبقرياً ، سياسيًّا ماهراً ، حتى تم عزله فى ولاية عبد العزيز بن مروان أخى عبد الملك خليفة المسلمين لولاية مصر ، وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية، وقد لزم حسان بيته بعد عزله ، ثم غزا بلاد الروم فاستشهد فى تلك الغزوة .

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : « وقد لزم حسان بيته بعد عزله ، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك .. وفى رواية : أنه توفى سنة ثمانين هجرية غازياً فى أرض الروم » [٢] .

ولكن هل بعد استشهاده ينسى التاريخ هذا القائد البطل ، والسياسى العبقرى وما سطره بعرقه ودمه من فتوحات فى سبيل نشر هذا الدين القويم ؟! أليس يذكر التاريخ له أنه : « خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائيًّا فى البقاء فى إفريقية ، ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد البربر ، فأصبحوا بعدها مع المسلمين لا عليهم ، ويذكر له أنه فتح قرطاجنة فحرم الروم من عاصمتهم التى كانت فى نفس الوقت القاعدة الأمنية لهم فى إفريقية .

ويذكر له أنه فتح مدينة فاس ، ويذكر له أنه نشر فى ربوع إفريقية الإسلام

---

(١) راجع المرجع السابق (١ / ٢١٨ ، ٢١٩) .

(٢) المرجع السابق (١ / ٢٠٥) .

بين البربر ، ويذكر له أنه أنجز إصلاحات حيوية فى إفريقية ، كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد إسلامية ، ويذكر له ، أنه جعل الفتح الإسلامى فى إفريقية فتحاً « مستداماً » : صمد أمام الغزو العسكرى الغربى ، وأمام الغزو الفكرى الغربى ، وتحمل من أجل الحفاظ على عقيدته وإسلامه كثيراً من التضحيات بالأرواح والأموال ، رضى الله عن التابعى الجليل ، السياسى المحنك الإدارى الحازم ، الداعية الحصيف ، البطل الشجاع ، المفكر الفذ ، القائد الفاتح ، حسان بن النعمان الغسانى » (١) .

صدق قول الشاعر إذ يقول :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكـــارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

المبحث الخامس : موسى بن نصير اللخمى

تولى موسى بن نصير – رحمه الله – منصب والى إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية بعد عزل القائد العبقرى حسان بن النعمان عن ولاية تلك المنطقة ؟! .

المطلب الأول : اسمه ، ونسبه ، ميلاده ، ونشأته

اسمه ونسبه : « هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد ، يُكنى : أبا عبد الرحمن من بنى لخم ، ويقال له : إنه مولى لخم ، وقيل : إنه من أراشة من بلى ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل ، وغيرهم يقول : إنه مولى .

إنه عربى ، أبوه نصير كان اسمه : نصراً فصغر ، كان من بين سبايا « عين تمر » الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومى سنة اثنتى عشرة الهجرية ، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلمون الإنجليل عليهم باب مغلق فكسره عنهم ، وقال : وما أنتم ؟ فقالوا : رهبان ، منهم نصير أبو موسى بن نصير ، وكان نصير ينسب إلى بنى « يشكر » فقسمهم خالد فى أهل البلاد ، فأصل موسى من عين التمر ،

---

(١) المرجع السابق (١ / ٢٢٠) .

وقد أعتق نصيراً بعض بنى أمية فرجع إلى الشام ، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه ، وكانت منزلته عنده مكينة [١] .

ميلاده ونشأته : « ولد موسى سنة تسع عشرة الهجرية ٦٤٠ م فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقرية يقال لها « كفر مترى » ونشأ فى بيت له صلة مباشرة بالجندية، قريباً من قادة الفتح الإسلامى ، وقادة الكفر الإسلامى فى الشام دار الخلافة ، بتماس شديد بمعاوية بن أبى سفيان ، ومن حوله من قادة الفتح والكفر، بكنف أبيه نصير الذى كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع ، فكان لكل ذلك أثره البالغ فى حياة موسى قائداً وإنساناً » [٢] .

وعندما اشتد عوده ، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية ، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً ، ولاه معاوية بن أبى سفيان أيام خلافته البحر ، فغزا قبرص وبنى هناك حصوناً مثل :« الماعوصة » و « بانس » وغير ذلك من الحصون التى بناها فى « قبرص » وكان نائب معاوية عليها ، وكان معاوية قد فتح « قبرص » سنة ثمان وعشرين الهجرية ، وفى سنة أربع وستين شهد موسى معركة « مرج راهط » مع الضحاك بن قيس الفهرى الذى كان يدعو سرًّا إلى عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه ، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز ابن مروان فحماه وأنقذ حياته من خطر داهم ، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير ، ثم أصبح بعد ذلك وزيراً ومستشاراً لوالى مصر عبد العزيز بن مروان ، ولما تولى عبد الملك الخلافة جعل موسى مساعداً لأخيه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة ، ثم مسك أمور العراق ، ثم عزل وجاء الحجاج فخاف موسى بن نصير منه فذهب إلى عبد العزيز بن مروان الذى أصلح ما وقع من جفوة بين موسى بن نصير وعبد الملك بن مروان .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦) .
(٢) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢١ ، ٢٢٢) .

المطلب الثانى : جهاده فى البر

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والى مصر حسان بن النعمان والى إفريقية ولّى مكانه موسى بن نصير ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية أو فى أوائل سنة ست وثمانين الهجرية .

أولاً : عندما توافدت الجيوش ، قام موسى بن نصير خطيباً ، فكان مما قاله : « وإنما أنا رجل كأحدكم ، فمن رأى منى حسنة ، فليحمد الله ، وليحض على مثلها ، ومن رأى منى سيئة ، فلينكرها ، فإنى أخطئ كما تخطئون ، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير - أكرمه الله - لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً ، فخذوها هنيئاً مريئاً ، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا ، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان ، مع المواساة إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه، وأكمل استحضاراته الإدارية ، وساوى نفسه برجاله ، وأعطاهم ما يستحقون من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً ، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها . لقد بدأ موسى بداية موفقة جدًّا فى تحمل مسؤوليته الجسيمة .

ثانياً : وسار موسى متوجهاً إلى الغرب ، وكان الأمن هناك غير مستتب ، فلما وصل إفريقية وبها صالح الذى استخلفه حسان بن النعمان على إفريقية ، وجد أن البربر قد طعموا فى البلاد بعد مسير حسان ، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بين فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة فى الفتح ، قتال العدو القريب أولاً ، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد .

ثالثاً : وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة ، بدأ باستعادة جبل « زغوان » وما حوله وبينه بين القيروان مسيرة يوم كامل ، وبنواحى زغوان قبائل من البربر ، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس ، فاستعاد فتح زغوان وسبى ، فكان ذلك السبى أول سبى داخل القيروان ، كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحى إفريقية فأتى بسبى كثير ، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبى كثير ، واستطاع موسى بن نصير أن يقضى على جيوب المقاومة فى إفريقية ، وخضعت

له قبائل البربر ، وجعل من منطقة القيروان وما حولها قاعدة أمنية ينطلق منها موسى بن نصير وهو أمين على خطوط مواصلاته لتنفيذ خططه فى الفتح متغلغلاً فى المغرب الأقصى ، وبعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط من صحراء درعة إلى السوس لأقصى إلى بلاد المصامدة ، تطلع موسى نحو طنجة التى كانت تخضع للأمير الرومى يليان « جوليان » منذ أيام عقبة بن نافع .

رابعاً : خرج موسى من القيروان لفتح طنجة ، وجعل على قدمته مولاه طارق بن زياد ، فلم يقاتل ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهى قصبة بلادهم وأم مدائنهم ، فلما دنا موسى من طنجة بث السرايا ، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم وأدوا إليه الطاعة ، وولى عليهم واليًا أحسن فيهم السيرة .

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها ونزلها ، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين ، فأسلم أهلها وخطها موسى قيروناً للمسلمين ، وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس ، قد غلبوا عليها وعلى ما حولها ورأس تلك المدائن « سبتة »وعليها يليان « جوليان »فقاتله موسى ، فألفاه فى نجدة وعدة وقوة فلم يطقه ، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه، وأخذ فى الغارات على من حولهم والتضييق عليهم ، والسفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة ، فهم يذبون عن سبتة ذبًّا شديداً ، ويحمون بلادهم حماية تامة ، كانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين .

كان بطنجة من البربر بطون البتر والبرانس ممن لم يكن دخل فى الطاعة ، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان ، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد ، وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة ، وانتشر الإسلام فيه ، وعاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد ، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا

وحسن إسلامهم وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام .

المطلب الثالث : جهاده فى البحر

١ – مهد موسى لجهاده فى البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس وتوسيع دار الصناعة بها ، وشق القناة التى توصل بين الميناء « رادس » وبين المدينة على طول اثنى عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة ، فصارت مشتى المراكب إذا هبت الأنواء والرياح ، حيث أمر بصناعة مائة مركب .

٢ – أمر موسى بالتأهب لركوب البحر ، وأعلمهم أنه راكب بنفسه ، فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك ، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير ، وولاه عليهم وأمره ، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه ، إنما أراد موسى بما أشار من مسيره ، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف ، فسميت هذه الغزوة : غزوة الأشراف ، وسار عبد الله بن موسى بن نصير فى مراكبه ، وكانت تلك الغزوة أول الغزوة غزيت فى بحر إفريقية « البحر الأبيض المتوسط » فأصاب فى غزوته تلك صقلية ، وافتتح مدينة فيها ، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهباً ، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة ، ثم انصرف قافلاً سالماً، وكان ذلك فى سنة خمس وثمانين الهجرية .

٣ – وبعث موسى عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية ، فشتا فى البحر، وأصاب مدينة يقال لها : « سرقوسة » ثم قفل فى سنة ست وثمانين الهجرية ، وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبى نافع الهذلى فى مراكب أهل مصر إلى « سردانية » فأرسى بـ« سوسة » فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية « الأرزاق ، وسلاح ، وتجهيزات » وكتب إليه « إن ركوب البحر قد فات فى هذا الوقت وفى هذا العام ، فأقم لا تغرر نفسك ، فإنك فى تشرين الآخر ، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر . فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى ، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه ، وفى سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة ، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف ، فغرق عطاء وأصحابه .

وفى سنة تسع وثمانين الهجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فأصاب « سردانية » وافتتح مدائن . فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى ، وفى سنة تسع وثمانين الهجرية جهز موسى ولده عبدالله، فافتتح جزيرتى « ميورقة » و« منورقة » وهما جزيرتان فى البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس .

المطلب الرابع : جهاده فى الأندلس

١ – كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب ؛ لأن الأندلس هو الجناح الغربى للمغرب ؛ ولأن الأندلس كان المجال الحيوى للفتح الإسلامى بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقى، واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام ، وبوجود القوة الضاربة فى جانب المسلمين ،ولم تستعص على موسى غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل القوط فى إسبانيا حاكم اسمه جوليان ويسميه المسلمون يليان أو إليان أو بوليان . وقد اختلفت المصادر فى شخصية بوليان هذا ، فبعضها يذكر أنه قوطى، وبعضها يزعم أنه رومى ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة . . وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس .

٢ – **غزوة طريف** : وكان موسى يتوق إلى افتتاح الأندلس ، وكان عامله على طنجة وهو طارق بن زياد يتطلع إلى الأندلس أيضاً ، وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية ، إذ جاءته رسالة من « يوليان » يعرض فيها تسليم معقله « سبتة » ويدعوه إلى فتح إسبانيا ، وجرت بينهما المفاوضة فى هذا المشروع الخطير ، وهنا تختلف الرواية فى هذا الاتصال ، فيقال : إن موسى ويوليان اتصلا بالمراسلة ، وقيل إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية ، وإن يوليان هذا استدعى موسى إلى سبتة ، وهناك جرت المفاوضات بينهما ، وقيل : إنهما اجتمعا فى سفينة فى البحر ، وعلى أى حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان وكان هدف يوليان الانتقام من لذريق الذى اعتدى على ابنته ، وكذلك الوفاء لغيطشة صديقه الوفى الملك السابق قبل لذريق .

واهتم موسى بمشروعه اهتماماً كبيراً ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع ، فكتب إليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا ، وأن لا يغرر بالمسلمين ، فبعث موسى رجلاً من البربر يسمى طريفاً ، ويُكنى زرعة ، فى مائة فارس وأربعمائة راجل فجاز فى أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر فى الأندلس فيما يحاذى طنجة ، وهو المعروف اليوم بـ« جزيرة الطريف » ، سُمِّيت باسمه لنزوله هناك ، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبايا ومالاً كثيراً، ورجع سالماً .

٣ - فتح طارق : وفى رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية« نيسان - أبريل ٧١١ م » جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى ، فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً فى سفن يوليان ، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم ، أعنى« جبل طارق » ، وتوالت انتصارات طارق ، ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة ، ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة حربية فى موضع يقابل « الجزيرة الخضراء » وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد ، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلى الأندلس ، فزحف لذريق لصد المسلمين ، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك ، وأغلبهم من الفرسان ، وبهم كملت عدة من مع طارق اثنى عشر ألفاً، التقى الجيشان فى يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز - يوليو سنة ٧١١ م) على وادى« برباط » أو وداى« لكة » قرب مدينة « شذونة » واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام ، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة ، وكانت هذه المعركة هى المعركة الحاسمة التى فتحت أبواب الأندلس للمسلمين .

أحدث انتصار طارق فى وادى« لكة » دويًّا هائلاً فى المشرق والمغرب ، وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة الغنائم فيها ،

فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب ، فلحقوا بطارق .

وبدأ طارق يجنى ثمار جهاده وانتصاره فى وداى لكة ففتح « شذونة » عنوة، ثم مضى إلى « المدور » ثم عطف على « قرمونة » ، ثم اتجه إلى إشبيلة فصالحه أهلها على الجزية ، ومنها زحف إلى إستجة وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة ، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك ، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليه الجزية .

وفرق طارق جيشه من إستجة فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عبد الله بن عبد الملك إلى قرطبة فى سبعمائة فارس ، وبعث جيشاً آخر إلى « مالقة » . كما بعث جيشاً ثالثاً إلى « البيرة » أما هو فسار إلى كورة « جيان » بمعظم جنوده فى طريقه إلى « طليطلة » وعبر طارق الواد الكبير ، فدخل « طليطلة » سنة ٩٣ هجرية دون مقاومة تذكر .

لقد تغلغل طارق تغلغلاً عميقاً فى أنحاء الأندلس ، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات ، فماذا كان رد فعل موسى بن نصير القائد العام للمغرب كله ، والمسئول الأول تجاه القائد الأعلى فى الشام ؟ (١) .

٤ – خطبة طارق الشهيرة :

« أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم ، وليس والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ، إلا وأنا

(١) قادة فتح المغرب العربى (١ / ٢٤٠ ، ٢٥١).

أبدأ بنفسي ، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً ، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظكم فيه بأوفى من حظي .. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بأريحيتكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان؛ ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون غنيمة خالصة لكم من دونه ، ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين ، واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في هزيمتي هذه ، واحلموا بأنفسكم عليه ، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون » (١).

قلت : تضاربت الأقوال في صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق ، فقد ذهب المؤرخ الشامي شوقي أبو خليل إلى إثباتها وعلق على هذه الخطبة فقال : يحلو لبعض المعاصرين التحذلق فقالوا : طارق بربري .. فلا يعقل مطلقاً أن يخطب خطبة محبوكة فصيحة مثل هذه الخطبة الرائعة ، التي وازن فيها في ترغيب ساحر زخار بين الدين والدنيا .

فأي موجب للشك في نسبة هذه الخطبة لطارق ، وطارق اشتهر في قومه بالفصاحة؟ .. ، ماذا يفيد الارتياب في أمر تتشابه دلائل عديدة في مراجعنا وبشكل صريح ، علماً أن الأدلة لا تتكامل على نقضه ففي نفح الطيب ، وصف لطارق يقول : « إن طارقاً كان حسن الكلام ، ينظم ما يجوز كتبه » .. علماً أن والد طارق « زياد » أسلم منذ أيام عقبة بن نافع .. لذلك شب طارق في بيت مسلم ، لقنه تعاليم الإسلام ، أبوه من ناحية ، وموسى من ناحية ثانية .

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٢٥).

عجباً للأجانب : شرقيهم وغربيهم ، إن وجدوا فى تاريخهم قصة أو قولاً أو حادثة تنهض بجيلهم ، وتثبت فى نفوس النشء روحاً ، وتربطهم بأمتهم وذاتيتهم صححوها ، وإن لم يروا إلا مرجعاً واحداً من مراجعهم ، بل قد يختلقون أحداثاً وينسجون قصصاً يلصقونها برجالاتهم لما فى ذلك من مصلحة للجيل وفائدة للنشء وخير للأمة .. وعجباً لنا .. ما بالنا ؟! مراجعنا تذكر أن طارق كان حسن الكلام ، ينظم ما يجوز كتبه ، وترعرع فى بيت مسلم يتلى فيه قرآن كريم ، ثم يأتينا من يقول : ما ظن ، وكان اجتيازه البحر فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠)[١].

المطلب الخامس : طارق بن زياد فى سطور

اسمه ونسبه : أورد ابن عذارى المراكشى ، صاحب « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » نسب طارق بن زياد فقال : « هو طارق بن زياد بن عبدالله بن لغو بن ورفجوم بن نيرعغسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو .. فهو نضرى »[٢].

وفى دائرة معارف الشعب جاء : « وقد اختلف مؤرخو العرب فى أصله – أصل طارق – فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيًّا همذانيًّا ، وذهب فريق آخر ومنهم الحميدى صاحب جذوة المقتبس ، إلى أنه كان بربريًّا من إفريقية ، ومن قبيلة نفزة البربرية ، وأنه لم يكن بربرى الأصل ، وإنما كان ينتسب إلى الصدفة[٣].

وذهب شوقى أبو خليل إلى : « أنه كان بربرى الأصل .. قد قيل : إنه طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون ، وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر » إن الأدلة الصادقة تؤكد نسبة طارق إلى البربر .

قلت : وإخواننا المسلمون من البرابرة أبطال وشجعان تربوا فى أحضان

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢١٤).
(٢) البيان المغرب (١ / ٤٣).
(٣) دائرة معارف الشعب (٢/ ٢٣٧).

القرآن، وأشربت قلوبهم تعاليمه ، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال على مر العصور والأزمان، فهم إلى الإسلام منتسبون ، وبه يعتزون وما تقوم به المنظمات النصرانية واليهودية ، والدول الغربية من إحياء النعرات البربرية والعربية فى أوساطنا ما هى إلا هباء منثور ، وستتحطم جهودهم على صخرة الإسلام الخالدة ، والأيام كفيلة بذلك .

إن إخواننا البرابرة عندما أكرمهم الله بالإسلام، قدموا كل ما يملكون فى سبيل عقيدتهم ودينهم ، بل نستطيع أن نقول : إن الجيوش الإسلامية الضاربة التى اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا البرابرة، الذين اندفعوا خلف طارق فى سبيل هذا الدين ونشره للعالمين ، إن هذه العقيدة صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً فى بوتقة الإسلام العظيمة ، أى بربرى يستطيع أن يقول ما قيل فى الخطبة ، وهل من الضرورى أن يكون جده عنترة ، أو زهير بن أبى سلمى ، أو عمرو بن كلثوم حتى يقول ما قيل فى الخطبة ؟هات طفلاً من الصين أو من أواسط إفريقيا،أو من صحراء نيفادا،وأنشئه على تلاوة وحفظ القرآن،كما نشأ طارق لخرج خطيباً مصقعاً،حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه،فما بالنا نشكك فى خطبة طارق ؟(١) .

ويقول شوقى أبو خليل أيضاً :إننى مازلت أيام الطفولة،أيام الصف الرابع الابتدائى عندما كانت هذه الخطبة ضمن برنامج القراءة،تعلوها صورة خيالية لطارق يخطب فى الجموع،والسفن تحترق فى المضيق مازلت أذكر شعورنا عندما شرح المعلم لنا فتح الأندلس،وقصة حرق السفن والخطبة،لقد عشنا لحظات كأننا ننظر إلى الحادثة تقع أمامنا،ومازلت أحفظ قسماً من الخطبة حتى يومنا هذا،وإن لم يكن حفظها غيباً .وما رددت كلماتها إلا وشعرت بعزة وبروح معنوية تدب فى النفس،مع كبرياء فى القلب،وفخر بتاريخ إسلامى مجيد (٢) .

مناقشة إحراق السفن:وشك آخر يذكره كثيرون،عما اشتهر عن إحراق

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد (٤٥ ، ٤٦) .

(٢) نفس المصدر (٤٤ ، ٤٥) .

طارق لسفنه،ونحن نذكر فى هذا الصدد ثلاث نقاط تدعونا للتفكير ملياً قبل رفضنا فكرة الإحراق :

يقول شوقى أبو خليل :

١ـ لم تتضافر الأدلة على تدعيم الشك أو ترجيحه والعكس صحيح،تتضافر الأدلة على تدعيم الإحراق .

٢ـ وفى رواية ابن حيان،الموصوف بأنه صاحب لواء التاريخ فى الأندلس،وأفصح الناس بالتكلم فيه،وأحسنهم تنسيقاً له،عندما ذكر المدد الذى أرسله موسى لطارق،قال:« وكان عمل من السفن عدة » أى جاء المدد على سفن غير السفن التى نقلت طارقاً وجنده إلى أرض الأندلس..وهذا يؤيد الإحراق،وإلا فلا معنى لعبارة تحشر حشراً،يضعها من وصف بأنه صاحب لواء التاريخ فى الأندلس،وأفصح الناس بالتكلم فيه!!!.

إن عبارة « وكان عمل من السفن عدة » عبارة تستدرك جواباً لمن يسأل :لقد أحرقت السفن،فكيف نقل المدد ؟فيأتينا الجواب واضحاً :« وكان عمل من السفن عدة » وتاريخ غزوات العرب،أوضح أن موسى بن نصير،قد اهتم ببناء السفن والأساطيل على طول ساحل المغرب،ومن جبل طارق وحتى طرابلس الغرب وبصريح العبارة،جاء فى نفح الطيب :« وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه،قد أخذ فى عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة،فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً،كملت بهم عدة من معه اثنى عشر ألفاً » وهذا جواب جلى واضح،لمن يسأل : ومن أين جاء موسى بالسفن وقد أحرق طارق السفن التى كانت معه؟! وقبيل المعركة أرسل لذريق من يستطلع أمر المسلمين،فعاد من استطلع ليقول للذريق :« فقدجاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ماتحت قدميك،قد حرقوا مراكبهم أياساً لأنفسهم من التعلق بها ».

٣ـ صفحات من التاريخ العربى والإسلامى،تحمل أحداثاً مماثلة فى الإحراق،لقد أحرق القائد الفارسى سفنه باليمن فى نصرة سيف بن ذى يزن،وأحرق المسلمون سفنهم فى صقلية ثانية،وفى كريت « أقريطش » مرة ثالثة

فى مستهل القرن الثالث الهجرى »[١].

قلت: ومع احترامى للقول المائل إلى الإحراق إلا أن بث الشجاعة فى النفوس له طرق عدة، كما يمكن أن ترجع السفن إلى قواعدها سالمة، وينقطع أمل المجاهدين فى الرجوع من حيث جاؤوا.

٤- **بين موسى وطارق**: بلغت موسى أخبار فتوحات طارق، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره فقد أمره موسى ألا يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق- فى وادى لكة - على قول آخر، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس، وقيل: إنما جاز موسى باستدعاء من طارق إياه، فقد كتب طارق إلى موسى: « إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث . . الغوث » فلما أتاه الكتاب نادى الناس وعسكر. . فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أتى المجاز، فأجاز بمن زحف معه فى جموعه. لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربى، وهو تدعيم الفتح وترصينه، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق فى الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع مالديه من رجال.

أما ما تواتر فى كتب التاريخ العربى من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه، وقرر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط فمغالى فيه، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعى جليل وفاتح عظيم كموسى، ثم إن طارقاً كان مولى لموسى، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولاً بأول، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه، وذلك بعزله واستدعائه إلى القيروان فليس من المعقول ولا يستطيع طارق مخالفة أوامر موسى فى شىء.

إن كل الدلائل تشير إلى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام، فقد بعث بأولاد غيطشه إلى مولاه موسى عندما وصلوا إلى طليطلة وقالوا له: أنت أمير نفسك

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد (٤٥، ٤٦).

أم على رأسك أمير؟ فقال طارق :بل على رأسى أمير،وفوق ذلك الأمير أمير عظيم، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسؤولية، والالتزام بسلسلة المراجع،ولعل أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعونة طارق لا لتأديبه،وأن موسى قدم الأندلس، لأغراض عسكرية بحتة،هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزول أرض الأندلس،وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التى خلفها طارق دون فتح،وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة،ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة فى الأندلس ، ولتثبيت قوات العدو بإشغالها فى جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه فى طلبيرة على مقربة من طليطلة، وحين التقيا قال موسى لطارق :« يا طارق إنه لن يجازيك الوليد ابن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق :« أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدى هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسى » ، ولم يزل طارق يفتح ومعه موسى إلى أن بلغ جليقية وهى على ساحل البحر المحيط.

وكان عبور موسى إلى الأندلس فى رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١٢م) من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفا من قريش والعرب ووجوه الناس ... ولقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط ومواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر الغربى لمنطقة فتح طارق، الأهداف الحيوية الأولى التى حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس.

فتح إشبيلية: وتحرك بقواته نحو إشبيلية، وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأناً وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً، وكان دار ملك الروم قبل غلبة القوطيين على الأندلس.

فتح ماردة: وكانت ماردة أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس فى سالف الدهر، وهى ذات عز ومنعة وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً، وكان أهلها فى منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وردّوهم، وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها إلى برج من

أبراج أسوارها جعلوا ينقبونه، وقتل فى هذا البرج الكثير من المسلمين، فسمى ذلك الموضع « برج الشهداء » واستمر موسى محاصراً لماردة، ودخلها صلحًا سنة أربع وتسعين الهجرية.

فتح إشبيلية ثانية: وحين كان موسى محاصراً « ماردة »، ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين، فلما أن فتح ماردة وجه عبد العزيز بن موسى فى جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها، ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك فى إشبيلية وباجة لبلة حاميات إسلامية؛ لتؤمنها من أى تدبير يقوم به القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربى معروف هو عبدالجبار قائد ميسرة موسى، وجد بنى زهرة أحد بيوت إشبيلية التى سيكون لها شأن.

مقتل لذريق: لقد أدرك موسى أن مراكز المقاومة القوطية وعلى رأسها لذريق بدأت تتجمع فى منطقة الجزء الشمالى من غرب الأندلس بالذات لعرقلة مسيره، والإفادة من وعورة المنطقة ظنًّا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها ، فقدر موسى موقف عدوه تقديراً صائباً ، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه فى منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة، حيث التقى بطارق فى موضع يقال له : تايد أو تايتر وهو نهر فى المنطقة ، وخرج طارق معظماً ، ونزل بين يديه ، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه فى تسرعه لاقتحام الأندلس من الوسط ، فاعتذر إليه طارق واستلطفه حتى رضى عنه موسى .

اتبع موسى وطارق الطريق الرومانى القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة ومضى فى فج منسوب إليه بحذاء نهر سمى منذ ذلك الحين بوادى موسى ، وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت للهجوم على المسلمين ، وانقضوا على جيش موسى من ناحية يسميها بعض المؤرخين من المسلمين « السواقى » وهى « سيجويلادى لوس كورنيخوس » بالقرب من بلدة تمامس ، وهناك وقعت المعركة الحاسمة الثانية فى سنة أربع وتسعين الهجرية – ٧١٢ م ، وفى هذه المعركة لقى لذريق حتفه على يد مروان بن موسى بن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء .

فتح طليطلة ثانية : ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط فى هذه الموقعة

الحاسمة قد شجع نفراً من بقايا القرط وأنصارهم فى طليطلة على نقض طاعة المسلمين فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ، ووثبوا عليها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر ، وفى طليطلة سلم طارق إلى موسى الكنوز التى غنمها من الكنائس وغيرها عند فتحه طليطلة لأول مرة ، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين الهجرية يدبر أمرها ، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجند ، وذلك بدل السكة القوطية لطليطلة ، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعى على بن رباح وكان رجلاً صالحاً فى نحو الثمانين من عمره . ومغيثاً الرومى فاتح قرطبة ، ومولى الوليد بن عبد الملك ، فلما دخل وفد موسى إلى الوليد ، قال على بن رباح : « يا أمير المؤمنين : تركت موسى بن نصير فى الأندلس ، وقد أظهره الله ونصره ، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد ، وقد أوفدنى إلى أمير المؤمنين فى نفر من وجوه من معه ، بفتح من فتوحه ، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى فقرأه الوليد ، فلما أتى على آخره خر ساجداً » .

فتح شمال الأندلس : ولما انقضى فصل الشتاء واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد ، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس ، جمع جيوشه ، وأكمل أمورها الإدارية ، ثم زحف بها نحو « سرقسطة » الواقعة على الضفة اليمنى من نهر أبرة؛ وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه فى جيوشه ، فارتقى إلى الثغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة وأعمالها ، وأوغل فى البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما ، وأغنمهما الله تعالى ما فيه ، وقد ألقى الله الرعب فى قلوب العدو ، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح ، وموسى يجىء على أثر طارق فى ذلك كله ، ويكمل ابتداءه ، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه ، ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها « بنسيو » ومن معه من الرهبان ، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه

الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة ، وفتحت المدينة البيضاء سرقسطة » أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة، ولم يكد المسلمون يستقرون فى هذا البلد حتى قام التابعى حنش بن عبد الله الصنعانى بإنشاء مسجد للمدينة ، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعًا وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله فى هذه النواحى .

وبعد فتح سرقسطة فتح موسى « وشقة »و« لاردة »و « اطركونة » . . وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة ، اشتد ذلك على الناس وقالوا : أين تذهب بنا ؟! حسبنا ما بأيدينا ، وكان موسى قال حين دخل إفريقية وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرر بنفسه حين توغل فى بلد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! فسمعه حنش الصنعانى ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً فى الفتح – قام حنش فأخذ بعنانه ، ثم قال : « أيها الأمير إنى سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟! أو تلتمس أكثر ما آتاك الله عز وجل وأعرض مما فتح الله عليك ، ودوخ لك ؟ إنى سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملئوا أيديهم وأحبوا الدعة

فضحك موسى ثم قال : أرشدك الله وكثر فى المسلمين من أمثالك ، ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول : أما والله لو انقادوا إلىَّ لقدتهم إلى رومية (روما) ثم فتحها الله على يدى إن شاء الله » [١] .

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح ، وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية ، إذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبدالملك يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع فى البلاد ، وأن يشخص

---

(١) قلت : وهذه هى العلاقة بين القيادة والجنود فى الجيوش الإسلامية مبنية على التناصح والتعاون على البر والتقوى والسمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره، ما دامت القيادة تقود الجنود إلى مرضاة الله، والقيادة تسمع للنصح ما دام فيه حق وإرشاد .

إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن فى الأندلس بلد لمتدخله العرب إلى وقته غير جليقية ، فكان شديد الحرص على اقتحامها ، ولكن قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضى فى إتمام هذه الغزوة التى صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، فبذل جهده للبقاء فى الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية .

ولاطف مغيثاً – من أجل ذلك – وسأله إمهاله ، إلى أن ينفذ عزمه فى الدخول إلى جليقية والمسير معه فى البلاد أياماً ، يكون شريكه فى الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى معه .. فلما اطمأن موسى إلى ذلك ، بادر إلى السير شمالاً لفتح قشتالة القديمة تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة .. سار موسى بنفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره فى إقليم قشتالة فأطاعه معظم من مّر بهم من رؤساء هذه الناحية . وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط ، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها؛ لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال فى الفتح .. ولما انتهى موسى فى فتوحه إلى هذا الحد القصى ، كان لا بد أن يعود لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط ، بل إلى دمشق رأساً ، فقد كان مغيث الرومى رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لايريده أن يتمهل إذ إن رسولاً آخر من الوليد يكنى أبا نصر إلى موسى بعدما استبطأ فى القفول .

عودة موسى وطارق إلى المشرق :

أخذ موسى فى طريق العودة فى أواخر سنة خمس وتسعين الهجرية « منتصف صيف ٧١٤ م » وكان مغيث الرومى قد خف للقائه ، فالتقيا بنواحى ليون ، وهناك أدركهما طارق عائداً من استرقة ، وساروا جميعاً إلى إشبيلية حيث ركبوا البحر ، وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للأندلس ، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز وترك معه حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى وزيراً معيناً ، وترك معه العساكر ووجوه القبائل ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور، وجهاد العدو ، واستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إفريقية ، وابنه مروان على « طنجة » و « السوس » ومر فى طريق عودته بـ « القيروان » ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين كانون الأول « ديسمبر ٧١٤ م » ثم ذهب إلى فلسطين وبلغ دمشق سنة ست

وتسعين الهجرية .

لما قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً، وهذا ما نرجحه ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف ، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى ، فلم يحسن لقاء موسى ، ثم لم يلبث الوليد أن لقى ربه وخلفه أخوه سليمان، وهو أشد من أخيه غضباً على موسى ، ولهذا كان طبيعيًّا ألا ينتظر موسى خيراً كثيراً، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر (١) .

وقد نسب المؤرخون إلى سليمان بن عبد الملك أنه أساء معاملة موسى بن نصير وأبقاه فى حر الشمس حتى كاد يُغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر ، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصى حسابه فأغرمه مغرماً عظيماً ، وما نسبه المؤرخون لا يصح لأن سليمان ترك أولاد موسى ولاة على إفريقية ، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان وصاحب الأمر فى دولته؛ ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وأن سيرة سليمان الذى وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير ، وأطلق الأسرى ، وخلى السجون وأحسن إلى الناس ،واستخلف عمر بن عبد العزيز ، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد فى خدمة المسلمين.

لقد كان موقف سليمان من موسى موقفاً سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد ، ولكن ، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس وأقر سليمان هذا العزل ؟ ولماذا إستدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يهمله حتى يحقق نياته التوسعية

---

(١) قلت : من خلال دراستى لسيرة موسى بن نصير لاحظت أنه محسود وله أعداء ، وهم الذين أوغروا قلب الوليد وسليمان عليه ، ثم إن مجده وعزه إنما يكون فى طاعة ربه وحرصه على نشر دينه وبحثه عن الشهادة فى سبيله : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ..** ﴾ . (النحل :٩٦)

فى الفتح ؟.

أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله :

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين ، وإنه عرضهم للمهالك بتغلغله إلى حدود بعيدة فى الأندلس ، كما أنهما خشيا من طموح موسى فى التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس، فيقود المسلمين إلى رومية، وأن موسى « أجمع أن يأتى المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه ، ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينها من أمم الأعاجم النصرانية مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، فمنى هذا الخبر إلى الوليد ، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين إن لم يرجع، وكتب له بذلك عهده ، ففت ذلك فى عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد ما أنزل المرابطة والحامية بثغورها ، أنزل ابنه عبدالعزيز لسدها وجهاد عدوها ، والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين فى الأندلس، حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكر عمر بن عبد العزيز فى إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها ، إذ خشى تغلب العدو عليهم ، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبد العزيز الذى تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية ، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية ، والفتح كان فى أوله ، والأندلس بعيدة عن دار الخلافة .

لقد كان طموح موسى فى التوسع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دار دمشق ، وهذا السبب — فيما أرى — من الأسباب الجوهرية التى جعلت الوليد يستدعيه، وهناك سبب آخر وهو : أن خصوم موسى دسوا عليه عند الخلفاء أنه يفكر بالاستقلال عن الخلافة، وزينوا له ذلك بأساليبهم وكان موسى بوسعه أن يستقل عن الخلافة ، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك، حتى إن المهلب بن أبى صفرة سأله عن ذلك فقال موسى :

« والله لو أردت ما نالوا من أطرافى طرفاً ، ولكنى آثرت الله ورسوله ، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة » .

المطلب السادس : أهم صفاته القيادية ، ومبادئه الحربية

كان موسى إدارياً حازماً ، استطاع السيطرة على منطقة ولايته فى إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة ، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق فى تطوير البلاد التى تحت نفوذه ، وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون ، ويعرفون ما يريدون ، وينفذون ما يخططون . لقد كان من مزايا موسى أنه كان : النصر فى ركابه ، والحزم فى قراراته ، والخلق الكريم من مزاياه، والحق رائده، والعدل سيرته ، والكرم هدفه ، والمواهب السامية خصاله ، كان عاقلاً شجاعاً كريماً ، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام فى إفريقية والمغرب ، ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام ، وفى سنة خمس وثمانين الهجرية تم إسلام أهل المغرب الأقصى

وحولوا المساجد التى كان بناها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات فاستأمن البربر إليه وأطاعوه ، وبهذه الخطة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام فى ربوع المغرب ، وبذلك أشاع الانسجام الفكرى بين العرب والبربر بغرس تعاليم الإسلام فى نفوس البربر ، فأصبحوا مع العرب قوة موحدة هائلة وجدت لها متنفساً فى فتح الأندلس ، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين منّ العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين ،وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة؛ بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد هو : إعلاء كلمة الله، ونشر دينه فى الأرض حتى تكون كلمة الله هى العليا .

ومن أعمال موسى الإدارية :

ضرب أول عملة إسلامية فى الأندلس ، ومن أعماله الإدارية التى تتسم بالطابع العسكرى أيضاً: تحسينه« دار الصناعة » التى كانت بتونس ، والتى أسسها حسان بن النعمان حيث استطاع موسى بن نصير أن يطورها ويجرى البحر إليها مسيرة اثنى عشر ميلاً ، حتى أقحمه دار الصناعة ، ثم أمر بصناعة مائة مركب ، فأصبح بإمكان هذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن ، مما سهل على موسى جهاده البحرى وفتح الأندلس .

ومن أعماله الإدارية الخالدة : نشره اللغة العربية بين البربر ، وذلك بإرسال المعلمين، والاختلاط الشديد بين العرب والبربر ، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية وانتشارها بينهم ، مما كان له أكبر الأثر على عروبة المغرب ، كما أن اتجاه موسى العملى إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين ، فى إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قويًّا للعرب المسلمين ، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنبا إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين للفتح ، ولعل تولية طارق بن زياد ، وهو بربرى ، أخطر المناصب القيادية ، هو خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب ، وأن الكفاءة وحدها هى التى كانت تقدم وتؤخر فى نظر موسى ، ما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم فى الفتح سواء كان ذلك فى ساحات إفريقية والمغرب، أو فى ساحات الأندلس أو جزائر البحر الأبيض المتوسط، لقد كان موسى رجل دولة بكل ما فى الكلمة من معانى .

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية :

إنه كان يعرف مزايا الأمم التى قاتلها ، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة وأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها فى الحروب وما لا يستفاد ، ومن مزاياه الحربية تجربته الطويلة فى معاناة الحروب ، وإنه كان ذا رأى وتدبير وحزم وخبرة فى الحرب ، ومن مزاياه أسلوبه الفذ فى معالجة الحصون والمدن المنيعة ، فقد كان ماهراً فى الحصار ، وفى قتال المدن ، وعنايته الكبيرة بحماية المواصلات ، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد ، كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته ، ومبدأ التعرض ، ومبدأ المباغتة ، ومبدأ الأمن ، ومبدأ تحشيد القوة ، ومبدأ المرونة ، ومبدأ إدامة المعنويات ، ومبدأ الأمو الإدارية (١) .

✤✤✤✤✤

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦) .

المطلب السابع : وفاته

فقد توالت المصائب على الشيخ المجاهد البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين الهجرية – ٧١٤ م ، ولعل من أعظم ما أصابه مقتل ابنه عبد العزيز فى الأندلس ، وفى سنة سبع وتسعين الهجرية حج بالناس سليمان ابن عبد الملك ، فأمر موسى بالشخوص والحج معه فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف ، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة ، وبحجرة من حجره، فحج سليمان ، وحج معه موسى ، وتوفى موسى فى وادى القرى ، سنة سبع وتسعين الهجرية ، وكان عمره حينها ثمان وسبعين سنة قمرية ؛ لأنه ولد سنة سبع عشرة هجرية كما مر بنا ، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك .

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى يوم القيامة ، لكن التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثرة الخالدة ، ذلك لأنه كان قد جمع من خلال ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد ، والذكر الشهير المخلد ، الذى لا يبليه الليل والنهار ، ولا يعفى جديده بلى الأعصار .

فعلى الأجيال الصاعدة أن تذكر لموسى : أنه فتح المغرب الأقصى، واستعاد فتح المغرب الأوسط ، وأنه رصن الفتح الإسلامى فى الشمال الإفريقى ، وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا ، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامى ، رضى الله عن التابعى الجليل ، والإدارى الحازم ، والبطل المغوار ، والقوى الأمين ، القائد الفاتح، موسى بن النصير اللخمى » [١] .

---

(١) راجع : قادة فتح المغرب العربى (١/ ٢٢١ – ٣٠٩).

المبحث السادس
عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدى القرشى

إن عبد الله بن الزبير ، ابن أبيه ، فاتح صبراتة ، وسوسة ، يعتبر من أبرز قيادات فتح ليبيا فى زمن الفتح المبارك ، فمن هو هذا القائد ؟ وما هى أهم أعماله الجهادية وصفاته القيادية ؟ كل ذلك سوف نتناوله فى هذه العجالة بشىء من الإيجاز .

المطلب الأول: اسمه ، ونسبه ، وميلاده

اسمه ، ونسبه : هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشى الأسدى، فأبوه أحد العشرة المبشرين بالجنة فهو ابن حوارى رسول الله ﷺ ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات النطاقين ،وجدته لأبيه صفية بنت عبد الملك عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، وخالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين .

ميلاده : هاجرت أمه أسماء بنت أبى بكر من مكة وهى حامل به فولدته بـ« قباء » فى السنة الأولى من الهجرة ، فهو أول مولود فى الإسلام من المهاجرين بالمدينة ، فحنكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها فى فيه ثم حنكه بها ، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شىء دخل جوفه ، ثم دعا له وبارك عليه ، وأذن أبو بكر الصديق فى أذنه حين ولد .

أيامه الأولى : أحضره أبو الزبير إلى رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثمانى سنين ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً تبسم ثم بايعه .

لقد نشأ عبد الله فى بيت كريم الآباء، والأمهات، والعمات ، والخالات فى محيط كله نور وهدى ، وجهاد ، وفداء ، قريباً من رسول الله ﷺ ، وهكذا نشأ فى محيط مناسب ليكون بطلاً مسدداً ، فنال شرف الصحبة، ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ القائد لصغر سنه .

المطلب الثانى : جهـــــــــاده

١ - شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة بين المسلمين والروم مع أبيه ، فلما انهزم الروم يوم اليرموك جعل يجهز على جرحاهم وشهد خطبة عمر بـ« الجابية »

وشهد ابن الزبير فتح مصر ،وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر ، وذلك سنة عشرين الهجرية ، وشهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلى صبراتة لفتحها ، وبقى هو فى طرابلس للإشراف على أمورها ، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير ، فصبحوها من ليلتهم على غرة ، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولين بإخراج الحيوانات للمرعى ، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا، ومن فرّ منهم ركب البحر هارباً إلى صقلية ، وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصن الروم بها مرة ثانية ، وغنموا كل ما فيها وكان شيئاً كثيراً ، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص فى طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم فحضر إلى صبراتة .

٢ - وشهد عبد الله فتح « إفريقية » أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله ابن سعد بن أبى السرح ، وكان الفتح على يديه فقد سيره عثمان فى جماعة إلى « إفريقية » سنة ست وعشرين الهجرية ليأتيه بأخبار الفتح ، فسار مجداً حتى وصل إلى المسلمين هناك؛ وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير عند المسلمين ، وسمع « جرجير » يقول : « من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى »فحضر ابن الزبير إلى عبد الله بن سعد وقال له :« تأمر منادياً ينادى : من يأتى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده » فركب الرعب قلب « جرجير » .

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : « إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى إمداد متصلة ببلاد هى لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ، نقاتل نحن الروم فى باقى المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا ، فإذا رجعوا إلى

خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم » ، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك .

وفى صباح الغد ، نفذ سعد خطة ابن الزبير هذه ، فأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم – وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً ، فلما أذن بالظهر وهم الروم بالانصراف على العادة ، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً .. عند ذلك ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون .

ونظر عبد الله فرأى « جرجير » وقد خرج من عسكره على برذون أشهب ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه .. ثم حمل فى الوجه الذى فيه « جرجير » وخرج صامداً له ، وما يظن جرجير وأصحابه إلا أن ابن الزبير رسول إليه حتى وصل إليه ودنا منه ، فعرف الشر ، فثنى برذونه مولياً ، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ودافه بالسيف وحز رأسه ونصبه فى رمحه وكبر .. فحمل المسلمون من الوجه الآخر ، وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير « جرجير » فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة « جرجير » سبية ، فنفلها عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير ، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار .

ولما أراد ابن أبى السرح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير : « أنت أولى بهذا" فأرسله إلى عثمان بشيراً ، فأخبره بما فتح الله عليه ، فأمره عثمان أن يخطب، فلما خطب قال عثمان : « كأنه أبو بكر » لقد كان فتح « إفريقية » على يديه .

٣ – وتولى حرب « إفريقية » معاوية بن حديج السكونى بعد عبد الله بن

سعد بن أبى السرح ، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن فى مهمته الشاقة ، فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج فى جهاده ، وحين وجهه معاوية بن أبى سفيان فى جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح قمونية ، وبث السرايا فى البلاد وبعث عبدالله بن الزبير « سوسة » ففتحها وكان ذلك سنة خمس وأربعين الهجرية .

٤ – وحضر عبد الله بن الزبير إلى الشام لغزو « القسطنطينية » أيام معاوية بن أبى سفيان فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين .

المطلب الثالث : موقفه من الأحداث السياسية

لقد كان ابن الزبير أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه أحد المقربين إليه ، فلما حاصره أهل الأمصار ، دافع عنه دفاعاً مستميتاً فى يوم « الدار » ، فقد استخلفه عثمان على « الدار » قائداً للمدافعين عن عثمان ، فكان هو الذى يقاتل بالصامدين دفاعاً عن عثمان ، فيخرج الكتيبة ، ويباشر القتال بنفسه ، فخرج بضعة عشر جرحاً غائراً وكان يقول : « **جرحت بضعة عشر جرحاً ، وإنى لأضع اليوم يدى على بعض تلك الجراحات ، فأرجو أن تكون خير أعمالى** » كما كان يقول ابن الزبير . . وفى ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطاة الجسرى يمدحه ويلوم رجلاً :

فلو كنت مثل ابن الحوارى لم ترم　　وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولكن عبد الله طاعن دونه　　وضارب يوم الدار أذكره الضرب

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق ، وكأن يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفن فى إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه .

وبعد مقتل عثمان بن عفان ، شهد معركة « الجمل » وفيه بضع وأربعون جراحة فأعطت عائشة رضى الله عنها الذى بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف ، ثم سجدت شكراً لله ولم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير ، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها .

واعتزل ابن الزبير حروب على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما كما اعتزل غيره من كبار الصحابة ، وهذا يدل على شدة تعلقه بوحدة

كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم ، ولست أرى فى اشتراك عبد الله فى معركة الجمل دليلاً عكسياً لكراهية سفك دماء المسلمين ، إذ كان ملتاعًا من قتل عثمان وكان لا يريد عقوق والدته وخالته عائشة أم المؤمنين ، يرى أن لرأيهما فى المطالبة بدم عثمان والحرص على معاقبة قاتليه وزناً لا بد من احترامه وأخذه بعين الاعتبار .

قلت : والموقف الصحيح من الحرب التى وقعت بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم رضى الله عنهم لما يسببه الكلام فى ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين ، وذلك من أعظم الذنوب ، وقبل أن أذكر أقوال السلف فيما شجر بين الصحابة أقدم بعض النصوص التى فيها إشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال ، وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هى :

١ – قوله تعالى : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (الحجرات : ٩) .

ففى هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال ؛ لأنهم إخوة ، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله – عز وجل – مؤمنين، وأمر بالإصلاح بينهم ، فإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان ، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا فى موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل فى اسم الإيمان الذى ذكر فى هذه الآية، فهم لايزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً ، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار فى إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد [١] .

٢ – روى الإمام أحمد والبخارى ومسلم – رحمهم الله – عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة** » المراد بالفئتين: جماعة على

(١) انظر: العواصم من القواصم ، لابن العربى ، ص (١٦٩ ، ١٧٠) .

ومعاوية ، والمراد بالدعوة : الإسلام على الراجح ، وقيل : المراد اعتقاد كل منهما الحق .

٣ ـ روى الإمام أحمد ومسلم : عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين** » والفرقة المشار إليها فى الحديث : هى ما كان من الاختلاف بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وقد وصف عليه الصلاة والسلام الطائفتين معاً بأنهما مسلمتين وأنهما متعلقتين بالحق ، والحديث علم من أعلاة النبوة ، إذا وقع الأمر طبق ما أخبره به الرسول ﷺ ، وفيه الحكم بالإسلام على الطائفتين : أهل الشام وأهل العراق ، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام ، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليًّا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً ، وهو مأجور إن شاء الله ، ولكن عليًّا هو الإمام فله أجران كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « **إذا اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** » .

٤ ـ روى البخارى بإسناده إلى أبى بكرة قال : بينما النبى ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبى ﷺ : « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » ففى هذا الحديث واضح على الخوارج الذين كفروا عليًّا ومن معه، ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام ، لذا كان سفيان بن عيينة يقول : « قوله فئتين من المسلمين تعجبنا جداً » قال البيهقى : وإنما أعجبهم لأن النبى ﷺ سماهما جميعاً مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن على بعد وفاة على فى تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان » .

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن على – المعروف بابن الحنفية – قال : قال على : إنى لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله – عز وجل – فيهم : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ (الحجر : ٤٧) كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين فى موقعة صفين ، فقد

روى ابن أبى شيبةبإسناده إلى يزيد بن الأصم قال : سئل على عن قتلى صفين فقال : « قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى الجنة » فالواجب على المسلم أن يسلك فى اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضى الله عنهم مسلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم رضى الله عنهم ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم .

قال الشاعر :

دع ما جرى بين الصحابة فى الوغى — بسيوفهم بيوم التقى الجمعان
فقتيله منهم وقاتلهم لهم — وكلاهم فى الحشر مرحومان

☆ **عودة إلى ابن الزبير** رضي الله عنه : اعتزل ابن الزبير حروب على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان .. وبايع معاوية بعد انتهاء الفتنة الكبرى ، وعودة الوحدة الشاملة إلى صفوف المسلمين ، كان معاوية بن أبى سفيان إذا لقيه قال : « مرحباً بابن عمة رسول الله وبابن حوارى رسول الله ﷺ ،ويأمر له بمائة ألف » .

وسمع معاوية رجلاً يقول :

ابن رقاش ماجد سميدع — يأتى فيعطى عن يد أو يمنع

فقال : « ذاك عبد الله بن الزبير » ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، فأوسع له معاوية عن سريره ، فلما انصرف عبد الله أقبل مروان على معاوية وقال له : « لله درك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدنى إلا صغيراً ، فقال معاوية : نفس عصام سودت عصاماً » .

☆ **خلافة ابن الزبير** (١) :

١ ـ لما مات معاوية بن أبى سفيان سنة ستين الهجرية ، امتنع ابن الزبير عن الدخول فى طاعة يزيد بن معاوية ، ولما توفى يزيد بن معاوية أوصى بالخلافة لابنه معاوية فبايعه أهل الشام ، ولم يمض على خلافته يوماً وقيل : ثلاثة أشهر حتى مات ، وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه فى مكة وجاءته بيعة معظم الأقطار ، فأرسل

---

(١) خلافة ابن الزبير ، نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولى ، الذى درسنا الدولة الأموية فى الجامعة الإسلامية بالمدينة ، ولقد أجاد فى الرجوع إلى المصادر الموثوقة فاكتفيت بها .

ولاته إليها ، وقد اعتبره الذهبى وابن كثير أميراً للمؤمنين ، وقال الذهبى : بويع له بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين ، وحكم على الحجاز ، واليمن ، ومصر ، والعراق ، وخراسان ، وبعض الشام ، ولم يتوثق له الأمر ، ومن ثم لم يعده بعض العلماء فى أمراء المؤمنين ، وعد دولته زمن فرقة ، فإن مروان غلب على الشام ثم مصر ، وقام عند مصرعه ابن عبد الملك بن مروان وقاوم ابن الزبير وقتل رحمه الله ، ونقل ابن كثير أن ابن حزم اعتبره أميراً للمؤمنين آنذاك .

٢ - لم يكن الصراع فى الشام صراعاً قبليًّا فى بداية الأمر ، ولم يكن انقسام أهل الشام قيسية ويمانية نتيجة تنافس بين الطرفين ؛ وذلك لأنه لم يكن معاوية ولا يزيد قد فضلا أحد الطرفين على الآخر بل قربا كلا الفريقين ، وإنما ظهر هذا الانقسام؛ لأن أهل الشام كانوا من بنى كلب اليمانية ، أما الفاتحون لهذه البلاد فكانوا من القيسية واليمانية ، وكان أهل البلاد الأصليين لا يرغبون فى انتقال الخليفة من بلد إلى آخر ؛ لذلك رفضوا مبايعة ابن الزبير الذى كان مقره الحجاز ، وبخاصة أنه رفض طلب الحصين فى الانتقال إلى الشام لتتم البيعة له .

أما القيسية الذين سكنوا الشام فلم يكن يهمهم أين يكون مركز الخلافة بقدر اهتمامهم بشخصية الخليفة ، وكانوا أعلم بالصحابة وأقدارهم من غيرهم ، لذلك كانوا يرون أنه لا يتحقق هذا المنصب إلا لأحد صحابة رسول الله ﷺ ، لذلك بايعوا ابن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهرى ، أما اليمانية من أهل الشام فكانوا على ولائهم لبنى أمية ، ولذلك اضطرب الناس ، فخرج اليمانية إلى الجابية لمبايعة شخص من بنى أمية ، وأما القيسية فخرجوا إلى مرج راهط اجتمع الكلبية فى الجابية ورشح ثلاثة للخلافة : مروان بن الحكم ، وعمرو بن سعيد بن العاص ،وخالد بن يزيد بن معاوية ، ورجحت أخيراً كفة مروان بن الحكم ، وذلك ليكون ندًّا لابن الزبير ، سار مروان إلى مرج راهط ، واستطاع الكلبية أن يستولوا على دمشق، ويضعوا أيديهم على بيت المال ، وبذلك أمدوا مروان بالمال والرجال ونشب القتال بين جيش الضحاك ، وانتهت تلك الموقعة التى دعيت بموقعة مرج راهط بانتصار اليمانية على القيسية ، واستقر أمر مروان

فى الشام ، ثم اتجه مروان إلى مصر لأهميتها بالنسبة للشام ، واستطاع انتزاعها وطرد عامل ابن الزبير منها وأخذ بيعتها لنفسه ، ولكن مروان لم يعش طويلاً فقد مات فى رمضان سنة ٦٥ هـ ، وعهد بالبيعة إلى ابنه عبد الملك من بعده .

☆ **حركة التوابين فى العراق** : اتجه عبيد الله بن زياد والى العراق عاملاً عليها من قبل مروان ليلقى فيها حركة التوابين، وهم جماعة من أهل الكوفة بقيادة الصحابى سليمان بن صرد فتنادوا بأخذ الثأر من قتلة الحسين ، وندموا على تفريطهم وخذلانهم له ، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل ، اتجهت هذه الجماعة إلى عين الوردة ، ولما علم بهم عبيد الله أرسل إليهم الحصين بن نمير بجيش الشام الذى بلغ عدده اثنا عشر ألفاً ، ولما التقى الجيشان دعا كل فريق الآخر إليه ، فأما جيش الشام فدعا إليه التوابين إلى الدخول فى طاعة مروان، وأما التوبوان فدعوا جيش الشام إلى تسليم قتلة الحسين ، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد ، ولما امتنع كل فريق منهم فى إجابة الآخر إلى طلبه ، اشتبكا فى قتال مرير ، انتهى بانتصار جيش الشام ومقتل سليمان بن صرد وعدد كبير من جيشه ، وعاد الباقون إلى الكوفة ، ولم يطاردهم جيش الشام ، وسميت تلك الموقعة بموقعة "عين الوردة "

قال ابن كثير : لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد مقتله بأربع سنين .

حركة المختار الثقفى بالكوفة : استغل المختار بن أبى عبيد الثقفى فشل حركة التوابين ، فدعا الناس إليه زاعماً أنه سيأخذ بثأر الحسين ، فانضم إليه الشيعة ، وكان شعاره « بثارات الحسين » كما استغل الموالى فأخذ يدعوهم إلى الانضمام إليه زاعماً أنه يرى التسوية بين العرب والفرس ، ودعا لمحمد بن الحنفية الابن الثالث لعلى بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مدعيًّا أن الإمامة انتقلت إليه فانضم إليه، الشيعة والفرس والسبئية ، كما استطاع استمالة إبراهيم بن الأشتر النخعى .

التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعى بجيش عبيد الله سنة ٦٧هـ ودارت بينهما معركة سميت بموقعة الخاذر ، انتصر فيها جيش إبراهيم وقتل

فيها عدد هائل من جيش عبيد الله ، كما قتل عبيد الله بن زياد نفسه ، وهذه الموقعة زادت من شعبية المختار، وصار سيد الكوفة بلا منازع ، أحس عبد الله بن الزبير بخطر المختار، فأرسل إليه أخاه مصعباً الذى نظم جيشه ، وانضم إليه المهلب ابن أبى صفرة ، وبدأت حقيقة المختار تنكشف لأصحابه ، فبدؤوا ينفضون عنه وعلى رأس من انفض عنه قائد جيشه إبراهيم بن الأشتر ، التقى المختار وجيشه مع مصعب وجيشه فى موقعة هزم فيه المختار وقتل ، وذلك فى رمضان من سنة٦٧ هـ .

وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذاب فى قوله ﷺ :« **إن فى ثقيف كذاباً ومبيراً** » ومما يدل على أنه كذاب ما أخرجه الإمام أحمد عن رفاعة القتبانى قال : كنت أقوم على رأس المختار ، فلما تبينت كذابته هممت وايم الله أن أسل سيفى فأضرب عنقه ، حتى ذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :« من أمن رجلا على نفسه فقتله أعطى لواء الغدر يوم القيامة » وفى رواية : « إنى دخلت على المختار فألقى لى وسادة وقال : لولا أن أخى جبريل قام عن هذه لما ألقيتها لك !! قال : فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثاً حدثنيه أخى عمرو بن الحمق قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما مؤمن أمَّنَ مؤمنًا على دمه فقتله فأنا من القاتل برىء » وأيضاً ما ذكره الهيثمى عن أبى إسحاق قال : قلت لعبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه ، قال : صدق﴿ **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ** ﴾ (الأنعام : ١٢١) .

ثورة الأشدق والقضاء عليها : عاد عبد الملك بن مروان بعد القضاء على ثورة الأشدق لحرب مصعب ، والتقى الجيشان فى دير الجاثليق ، وكاتب عبدالملك قواد مصعب يعدهم ويمنيهم إذا بايعوه فأخفوا ذلك عن مصعب إلا أن إبراهيم بن الأشتر الذى أطلع مصعباً على كتاب عبد الملك، وأشار عليه بقتل قواده لإخفائهم أمر الكتب التى جاءتهم ، ولا بد أن يكون جاءهم ما جاءه، ولكن مصعباً رفض ذلك فأشار عليه بإبعادهم على لأقل حتى تنجلى الحرب ولكن مصعبا رفض هذا الرأى أيضا ، واشتعلت الحرب بين الطرفين ، وانخذل أصحاب مصعب عنه ، وانضموا لعبد الملك ، فانتصر جيش الشام ، وقتل

مصعب وإبراهييم وجماعة ، وكافأ عبد الملك الجنود الذين انضموا إليه ، ثم سار إلى الكوفة ودخلها وبايعه أهلها ، ثم انتقل منها إلى البصرة فبايعه أهلها أيضاً ، وتمكن عبد الملك من العراق سنة ٧١ هـ، وبقى فى الحجاز .

قلت : إن رأى إبراهيم بن الأشتر كان صائباً فى إبعاده قادة حرب مصعب عن سير المعركة ، ولكن الله قضى أمراً كان مفعولاً .

المطلب الرابع : وفاة عبد الله بن الزبير

أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير فى ذى الحجة سنة ٧٢ هـ فحاصر مكة ورماها بالمنجنيق فَقُتِلَ به خلق كثير ، وما زال الحجاج يحث جيشه على قتال أهل مكة وأهل مكة يخرجون إليه طالبين الأمان ، ويتخلون عن ابن الزبير حتى انفض عنه معظم أصحابه ، ولم يبق معه إلا القليل ، فدخل عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهم يشكو خذلان الناس له ويستشيرها فى أمر القتال فقالت له : أنت والله يابنى أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على الحق وتدعو إليه ، فامض فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك فيلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت أردت الدنيا ، فبئس العبد أنت ! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت : كنت على حق ، ولما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين ؟وإلى كم خلودك ؟! القتل أحسن ، فدنا منها وَقَبَّلَ رأسها ، وقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً إلى يومى هذا ...... ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه ، ولكن أحببت أن أعلم رأيك ، فزدتينى بصيرة مع بصيرتى، فانظرى يا أماه ، فإنى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك ،وسلمى لأمر الله ، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم يجر فى حكم ، ولم يغدر فى أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل

أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي .... » (١) .

وخرج للقتال حتى قتل فأخذ الحجاج جسده وأمر به فصلب ،وكان مقتله في جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، وبذلك دخلت الحجاز في طاعة عبد الملك ، وأخذت البيعة له فيها (٢) .

المطلب الخامس
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان يمتاز بصفات أهلته للقيادة ومن تلك الصفات : أنه كان شهماً فصيحاً شديد البأس ، ذا أنفة ، له نفس شريفة وهمة عالية ، وكان صواماً قواماً ، بالحق قوالاً ، وللرحم وصالاً ، شديداً على الفجرة، ذليلاً للأتقياء والبررة ، حافظاً للقرآن ، مبارزاً للشجعان .

وكان له قابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح ، ذا إرادة قوية ثابتة ، يتحمل المسؤولية بلا تردد ، يعرف مبادئ الحرب ، له نفس لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار ، خبيراً بنفسيات رجاله وقابلياته ، يثق بجنوه ويبادلونه ثقة بثقة وحبًّا بحب ، ذا شخصية قوية نافذة ، له ماض مجيد .

وكان يحرص على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه ، وقد ظهر عملياً بوضوح أنه طبق مبادئ : اختيار المقصد ، وإدامته، والتعرض ، والمباغتة ، وتحشيد القوة ، والأمن ، والمرونة ، والتعاون ، وإدامة المعنويات ، والأمور الإدارية .

فرحم الله عبد الله بن الزبير فقد كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شبابه الباكر حتى قتل الزبير ، وكان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية ، وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاضلة ضد جرجير ، فرضي الله عن الصحابي الجليل ، التقي الورع ، الخطيب البليغ ، وبطل الإسلام ، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي (٣) .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٦٣ - ٣٨٠).

(٢) راجع سير أعلام النبلاء (٣ / ٣٧٩).

(٣) انظر : قادة فتح المغرب العربي (٣/٤٥ - ٩٥).

المبحث السابع : عبد الملك بن مروان الأموى

إن عبد الملك بن مروان هو فاتح المدينة الشهيرة "جلولاء"، كما أنه قاد الناس في معركة حاسمة فى أرض بلاد الروم ، الذى قال فيه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : « ولد الناس أبناء ، وولد مروان أباً »فمن هو غبد الملك بن مروان ياترى؟!

المطلب الأول : اسمه ، نسبه ، ميلاده، ونشأته، ووفاته

اسمه ونسبه :هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص القرشى الأموى ، أبوه : مروان بن الحكم أمير المؤمنين ، وأمه : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية .

ميلاده :ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية (١) (٦٤٦ م) بالمدينة فى خلافة عثمان بن عفان ، وشهد يوم الدار ، مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سمى : عبد الملك فى الإسلام .

نشأته :نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره ، فلم يدرك لحظة فى الجاهلية ، وقد حفظ القرآن فى سن مبكرة ، وتلقى الثقافة العربية الإسلامية لغة وأدباً وعلماً، فبلغ فى كل ذلك شأناً بعيداً ، ويعد من الطبقة الثانية من التابعين ، وكان أول ما شاهده: مجد الدولة الإسلامية وسيادتها ، وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيرته، وتتلمذ على عثمان فنشأ ورعاً قارئاً القرآن ، عاملاً بتعاليمه ، مكبًّا على العلم .

وفي مرض موته قيل : كيف تجدك ؟ فقال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾(الأنعام : ٩٤).

وعندما ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه وقال : وددت أنى كنت أكتسب يوماً بيوم ما يفوتنى ، وأشتغل بطاعة الله ، ولما احتضر عبد الملك

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤ / ٢٤٦).

أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادى ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : قصار ، فقال : يا ليتنى كنت قصاراً أعيش من عمل يدى ، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم .

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء : إن شرب الماء مات ، فاشتد عطشه ، فقال: يا وليد اسقنى ماء ، فقال : لا أعين عليك ، فقال لابنته فاطمة : اسقينى ماء ، فمنعها الوليد ، فقال : لتدعنها أو لأخلعنك ، فقال : لم يبق بعد هذا شيء ، فسقته فاطمة، فمات ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكى ، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ فقالت : هو أصلح .

المطلب الثانى : جهاده قبل خلافته وبعدها

قبل خلافته : شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين الهجرية ، وهو أول مشتى شتوه بها ، فاستعمله معاوية بن أبى سفيان على أهل المدينة ، وعبدالملك يومئذ ابن ست عشرة سنة ، فركب عبد الملك بالناس البحر ، وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حديج السكونى ، مرتين : مرة سنة إحدى وأربعين الهجرية، وغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية ، فبعثه ابن حديج إلى « جلولاء » ففتحها ، وقد سار عبد الملك إلى « جلولاء » على رأس ألف رجل فحاصرها أياماً دون جدوى ، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى رجاله وكانوا فى الساقة غباراً شديداً ، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته ، لذلك كر راجعاً فرأى سور جلولاء قد وقع ، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها .

واختلف الناس فى الغنيمة فكتب ابن حديج فى ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان ، فكتب « أن العسكر ردء للسرية ، فقسم ذلك بينهم ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتى دينار وضرب للفرس بسهمين ، ولصاحبه بسهم ، فقال عبد الملك : « فأخذت لفرسى ونفسى ستمائة دينار واشتريت بها جارية » . كما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج على بعث أهل المدينة سنة خمسين

الهجرية، فذكر من كفايته وعنائه ومجاهدته فى تلك البلاد شيئاً كثيراً .

بعد خلافتـــــه :

أ – فى إفريقية : بعث عبد الملك زهير بن قيس البلوى لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر ، وذلك سنة تسع وستين الهجرية ، فانتصر ودخل القيروان، ولكنه قتل بعد ذلك ، وبعد مقتل زهير اختار عبد الملك بن مروان قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الغسانى ، فسيره إلى إفريقية ، وجعل له الولاية عليها، وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، ففتح قرطاجنة ، وأتم تحرير الشمال الإفريقى .

ب – فى بلاد الروم : حاصر المسلمون القسطنطينية أيام معاوية بن أبى سفيان سبع سنوات، وكادوا أن يفتحوها ، فلما نشبت الاضطربات الداخلية بين المسلمين اضطر عبد الملك إلى عقد هدنة مع الروم لينصرف إلى معالجة الأزمات الداخلية بين المسلمين ، وفى سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك بن مروان سيطرته على الدولة الإسلامية فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة « وأرمينية » ليكون القائد فى الجبهة المتاخمة للروم ، وقطع إرسال النقود التى كان يرسلها للروم ، فأعلن إمبراطور الروم جستنيان الثانى الحرب وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين ، فلاقاه محمد بن مروان ، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة ، وكان ذلك سنة أربع وسبعين الهجرية .

وبعد استقرار الأوضاع فى دار الإسلام ، بدأ التوغل الإسلامى فى داخل الأراضى البيزنطية ، فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضى بقيادة محمد بن مروان ، وغيره من أمراء بنى أمية ، وفى سنة إحدى وثمانين الهجرية بعث عبد الملك بن مروان ، عبد الله بن الملك ففتح « قاليقالا » وهى إحدى مدن الروم الكبيرة ، وفى سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية داخل دولة الروم فى آسيا الصغرى، وهى مدينة « المصيفة » وفى سنة سبع وسبعين الهجرية غزا عبد الملك بنفسه الروم ، ففتح مدينة « هرقلة » .

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولى على الحصون بعد

تحقيق الوحدة فى عهد عبد الملك .

جـ - فى المشرق : ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين الهجرية خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفى ، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج ، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدناً أخرى ومناطق جديدة .

المطلب الثالث : أعماله فى فترة خلافته

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين الهجرية ، فكان على أرض الشام ومصر ، وكان عبد الله بن الزبير على البلاد الإسلامية الأخرى (١) .

١ - فى طريق الوحدة :

فقد بذل عبد الملك قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى البلاد الإسلامية . . . فكان له ذلك حيث انطلق من نقطة الصفر سنة خمس وستين الهجرية، حيث تولى الخلافة ، وحيث كان عرشه مزعزع الأركان حتى فى دمشق نفسها ، وانتهى فى سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى القمة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها ، وأعاد الوحدة الشاملة إلى دار الإسلام .

---

(١) قلت : إن خلافة عبد الملك بن مروان تبدأ على الصحيح بعد مقتل ابن الزبير ويؤيد ذلك ما أخرجه البخارى أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بمبايعته له ، وذكر ابن حجر أن ذلك كان بعد مقتل ابن الزبير ، فحتى لو لم تسلم بخلافة لعبد الملك فى الفترة السابقة؛ لأنها أقل ما يقُال عنها أنها زمن فرقة ، وطرق انعقاد الخلافة تكون بالاختيار أو الاستخلاف، كاختيار الأمة للصديق رضي الله عنه، أو كاستخلاف الصديق للفاروق، وهناك طريق آخر تجب الطاعة بموجبه ، ويحرم الخروج عليه بسببه ، ولكنه ليس من الطرق الشرعية ، ولا يجوز إلا للضرورة من أجل مصلحة المسلمين، وحقن دمائهم وذلك هو طريق القهر والغلبة والاستيلاء على الحكم ، ما دام قائماً فى الناس بشرع فقد بايع عبد الله بن عمر عبد الملك بن مروان وبالسيف أخذ الملك وأمر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة نبيه .

٢ – بعد الوحدة الشاملة :

أ – إشاعة الاستقرار : قضى على الخوارج فى البحرين سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، وأعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير ، وبعث المهلب بن أبى صفرة الأزارقة . وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح ولاستعادة المناطق التى استعادها العدو فى إيران وبلاد الروم وإفريقية ،وولى الحجاج سنة خمس وسبعين الهجرية العراق .

وفى سنة اثنتين وثمانين ثار عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج فاستطاع الحجاج بمساعدة عبد الملك القضاء على أكبر ثورة داخلية هددت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة، وذلك سنة ثلاث وثمانين الهجرية .

وكان من ثمرات الوحدة : أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون ، وذلك من نهر جيحون شرقاً إلى قرطاجنة غرباً ، وإلى أعماق بلاد الروم شمالاً ، بعد أن كان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطورية القسطنطينية قبل الوحدة .

ب – إصدار العملة : فى سنة ست وسبعين الهجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم ، وهو أول من أحدث ضربها فى الإسلام .. وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالى .

جـ – تعريب الدواوين : بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية – ديوان الخراج– وهى التى كانت تشرف على الشؤون المالية للدولة تستعمل اللغات الأجنبية ، كما كانت حالها فى عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام ، فقام بتعريبها ، وبذلك أصبحت اللغة العربية هى لغة جميع الدواوين ، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية فتحقق نصر اللغة العربية على تلك اللغات الأجنبية والأقاليم ، فكان هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم .

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية، ومبادئه الحربية

لاشك أن عبد الملك قبل خلافته كان يعتبر من فقهاء المدينة الأربعة المعدودين وكان أديباً عَدوه من القلة الذين لا يلحنون ، وكان سياسيًّا محنكًا ذكياً ، وكان رجل دولة بكل ما فى الكلمة من معانى : يختار الرجال الأوفياء الأمناء ، ويولى الأمور للمختارين من الرجال ، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة ، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة ، وكان يجمع ولا يفرق ، ويوحد ولا يشتت، ويعدل ولا يظلم ، ويصالح ولا يخاتل .

أما مميزاته فى ميادين الوغى :

فإنه كان لا يستبد برأيه ، بل كان يستشير رجاله المقربين فى كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أى عمل عسكرى ، وكانت له موهبة فذة فى إختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب ، وكان يبذل جهوده السليمة قبل خوض كل معرة، وحتى أثناءها لتجنب ويلات الحرب ، وكان يحاول بكل طاقته استمالة رجال خصمه باذلاً لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة والمال الكثير ، كان يولى ثقته الكاملة لرجاله ، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان ذا رأى سديد ، بصيراً بالحرب، شجاعاً بالسيف .

فرحمة الله على التابعى الجليل ، الإدارى الحازم ، القائد الفاتح ، العالم الأديب ، بطل الوحدة ، ورجل الدولة ، عبد الملك مروان الأموى [١] .

---

(١) راجع كتاب قادة فتح المغرب (٢/ ٩٥ – ١٥٢).

المبحث الثامن
رويفع بن ثابت الأنصارى

رويفع الصحابى الجليل رضي الله عنه فاتح جزيرة جربة فى تونس الخضراء ، الذى عاش حياة الجهاد حتى استشهد فى سبيل الله ، وقد اعتزل الأحداث السياسية ولم يشارك فيها لا بلسانه ولا بسيفه ، حتى انكشفت الغمة ، وعادت الوحدة الشاملة إلى المسلمين ، فمن هذا الصحابى ، وكيف كانت حياته الجهادية ؟

المطلب الأول : اسمه ونسبه

هو رويفع بن ثابت بن سكن بن عدى بن حارثة الأنصارى ، من بنى مالك بن النجار كان صحابيًّا روى عن النبى ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين ، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد ، فقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبى ﷺ .

المطلب الثانى : جهاده

كانت أرض الشام ميدان جهاد رويفع ، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر ، وليبيا ، والنوبة ، كما شهد معارك الفتح التى خاضها عبد الله بن أبى السرح لفتح إفريقية ، ومعاوية بن حديج السكونى لفتح المغرب .

وفى سنة خمس وأربعين الهجرية غزا معاوية بن حديج السكونى المغرب فاستعاد فتح طرابلس الغرب ، وترك فيها رويفع بن ثابت واليًا عليها سنة ست وأربعين الهجرية ، فغزا إفريقية « تونس » ودخلها سنة سبع وأربعين الهجرية ، وفتح جزيرة جربة التى كان يسكنها البربر ، ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله .

المطلب الثالث : حياته

كان رويفع صحابيًّا جليلاً ، لم يشارك فيما حدث بين علي بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهما من قريب أو من بعيد ، بل بقى مستقراً فى مصر حتى

انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة بين المسلمين .

سكن مصر واختط بها داراً ، وقد ولاه معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبى سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين الهجرية ، وتولى برقة لمسلمة بن مخلد حتى مات بها وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين الهجرية ٦٧٦ م ، وقبره بها مشهور فى الجبل الأخضر بـ« برقة » فى مدينة البيضاء وهو آخر من توفى من الصحابة هناك ، روى عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث ، وكان فقيهاً من أصحاب الفُتيا من الصحابة ، وكان خطيباً مفوهاً (١) .

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان رويفع الأنصارى إدارياً حازماً ، قويًا ، صادقاً ، وفيًا ، وتقيًا ، نقيًا ، كريماً ، سخيًا ، وقد بذل قصارى جهده فى سبيل الله فى ميادين أرض الشام ومصر والشمال الإفريقى .

وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية ، فقد فساد بجيشه بحراً إلى جزيرة جربة وفتحها، وقضى على فساد أهلها الذين كانوا يفسدون فى البر والبحر ، فنشر فيهم الدين الحنيف وضمهم إلى البربر المسلمين .

لقد كان سلاح رويفع فى حربه : تقوى الله وحده ، وكثرة ذكره والاستعانة به، والتوكل عليه ، والفزع إليه ومسألته النصر، والتأييد، والسلامة، والظفر ، وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له ، والمحبة من بعضهم لبعض ، يتفقد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم ويستزيد محسنهم بالتكرمة ، ويجعل عامة أصحابه فى لين الكلمة الخاصة من غير أن ينقص أحداً من ذوى البلاء حقه وثوابه .

وكان شجاعاً مقداماً ، كامل العقل طويل التجربة ، بعيد الصوت ، مأمون النقيبة ، بصيراً بتدابير الحرب ومواضعها ، حسن التعبئة لأصحابه فى أحوال

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة (٢/ ٨٨).

التعبئة ، مدخلاً الأمن عليهم ، والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخياً . . لقد كان قائداً ممتازاً .

وأخيــــــــراً :

يذكر التاريخ لرويفع الأنصارى رضي الله عنه أنه قضى حياته كلها مجاهداً ، وإداريًّا ورافق أعلام الفتح الإسلامى من مبدأ سيرها إلى أرض الشام ، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها فى الشمال ، ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام بأرض الشام ، ومصر ، والمغرب عامة والبربر خاصة .

ويذكر له أنه فتح جزيرة جربة ومات بعيداً عن أهله ، فاستقرت نفسه مطمئنة فى سفوح الجبل الأخضر من أرض ليبيا فى برقة حيث لايزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار .

إنه نسى نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا ، فذكره الناس فى أيامه ولا يزالون ، رضى الله عن الصحابى الجليل ، والإدارى الحازم ، التقى ، النقى، الفارس البطل ، القائد الفاتح ، رويفع بن ثابت الأنصارى النجارى [1] .

❧❧❧❧❧

(١) المرجع السابق (٢/ ١٥٣ - ١٥٦).



الباب الخامس

عهد الولاة

الباب الخامس
عهد الولاة

الفصل الأول
كتاب يهدى، وسيف يحمى

لقد فقه صحابة رسول الله ﷺ معانى كتاب يهدى، وسيف يحمى، حيث إنهم حملوا السلاح عندما حان وقت حمل السلاح، وفتحوا الكتاب كذلك فى وقته المناسب، فلم يكن هناك تعارض عندهم بين طلب العلم الشرعى وتدريسه، وبين حمل السلاح وتطبيق آيات الكتاب فى أرض الواقع، لا يوجد اختلاف بين هذه وتلك، فلكل وقت فريضة، وهكذا كانت حقيقة علم الصحابة رضى الله عنهم وعلى هذا الطريق سار أئمة أهل السنة والجماعة.

المبحث الأول
كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الإفريقى

إن بداية الفتح الإسلامى لشمال إفريقيا كان سنة اثنتين وعشرين الهجرية بقيادة الصحابى الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه، واستمرت بعد تلك الحملات الجهادية على شمال إفريقية حتى كانت حملة القائد موسى بن نصير اللخمى -رحمه الله- حيث أكمل فتح الشمال الإفريقى عام ثمان وثمانين الهجرية.

ولقد قدم المسلمون خلال فتوحاتهم المباركة للشمال الإفريقى الألوف من الشهداء والدماء والأشلاء فى ساحات الوغى والفداء، التى دامت قرابة ست وستين سنة، وكان من بين أولئك الشهداء أكابر قيادات الفتح الإسلامى منهم (القائد: عقبة بن نافع الفهرى، وأبو المهاجر، وزهير بن قيس البلوى) فرحم الله

الجميع ، وأدخلهم فسيح جناته .

ولا ريب أن جيوش الفتح الإسلامى ، قيادات وجنوداً كانوا يحملون الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة فى شغاف قلوبهم وجوارحهم إلى تلك الشعوب والأمم حيثما نزلوا غرباً وشرقاً ، فقد كانوا دعاة بالفعل يحملون المصحف والسيف (كتاب يهدى وسيف يحمى) إذ إنهم كانوا دعاة بالدرجة الأولى ، ومجاهدين بالدرجة الثانية ؛ لأن هناك تلازماً بين العلم والسيف ، فالسيف لا يرفع إلا بعلم ، والعلم لا يتحقق فى حقيقة الناس إلا بالسيف والقوة « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ولا يشرك به . . . » (١) .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى ذلك : « وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو على الكفاية ، لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب : لفظه ومعناه ، عالماً بالحكمة ، بل وجوب ذلك أسبق وأوكد من وجوب الجهاد ، فإنه أصل الجهاد ، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون ؟ فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه ، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه » (٢) .

وهكذا سارت الدعوة الإسلامية جنباً لجنب مع فتوحات المسلمين ، يحملها إلى العالم قادة ربانيون وعلماء مصلحون ، وجنود فاتحون ، ورهبان الليل وفرسان بالنهار ، حتى أصبحت أغلب معالم هذه الجيوش فى تلك البلاد المفتوحة ، إحياء الأمة بالقرآن والسنة ، ونشر الدعوة واستفاضة البيان فى أوساط العباد وفى ربوع البلاد ، والتمكين لشرع الله حتى يحكم العباد والبلاد فى تلك الأصقاع ، بل قد يصدق على تلك الجيوش تسميتها بجيوش الفقهاء والمحدثين والقراء أكثر من تسميتها بجيوش عسكرية بحتة ، حيث إنهم كان لا هم لهم إلا تبليغ دعوة الله سبحانه واستفاضة بيانه إلى كافة الناس أجمعين ، وبسط سيادة القرآن والسنة فى جميع مناشط العباد والبلاد .

وهكذا اندمجت جيوش الفقهاء والمحدثين والدعاة مع إخوانهم فى الدين من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث ابن عمر : (٢ / ٩٢) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٢) مجموعة الفتاوى ، لابن تيمية (١٥ / ٣٩٠) .

البربر وغيرهم من سكان شمال إفريقية، حيث تراهم حيناً في تعليمهم أصول دينهم وفروعه، وحيناً آخر في تربيتهم على كيفية تطبيق مبادئه في أرض الواقع، وحيناً في إعدادهم كدعاة وقادة لحمل العبء معهم، حتى أصبحوا كالرجل الواحد والجسد الواحد : «**إذا اشتكى منه عضو اشتكى معه سائر الجسد**»، فالأهداف أصبحت متحدة والوسائل مشتركة، والمقاصد واحدة، وزالت بفضل الله تلك الفوارق التي تكون عادة بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين وأصبحوا بنعمة الله إخواناً «**لا فرق بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله**».

لقد اكتمل فتح هذه المنطقة عسكرياً سنة ثمان وثمانين بقيادة موسى بن نصير رحمه الله وما أن استقرت الأوضاع السياسية، وتقسيم الولاة، والأمراء التي أخذت قرابة عشر سنوات من قيادة المنطقة حتى كان عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي تولى إدارة سدة الخلافة عام تسع وتسعين الهجرية، حيث عين إسماعيل بن عبيد الله والياً على الشمال الإفريقي وكان يمتاز بحسن السيرة والسلوك مما جعله يؤثر في قبائل البربر تأثيراً إيجابياً بالغاً.

يقول صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها: « تولى الخلافة عمر بن العزيز رضي الله عنه سنة تسع وتسعين الهجرية، فولى إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب، وخراجه وصدقاته، في المحرم سنة مائة الهجرية، وكان إسماعيل حسن السيرة، وأسلم في زمانه جميع البربر طوعاً ورغبة واقتناعاً »(١).

وبتلك التقريرات الإيجابية عن قبائل البربر التي قدمت من الشمال الإفريقي إلى خليفة المسلمين – عمر بن عبد العزيز – جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يعجل باتخاذ خطة تعليمية لنشر الإسلام في الشمال الإفريقي وكانت أهم أهداف الخطة التعليمية التربوية :

الهدف الأول : اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

الهدف الثاني : وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص (٢١٣).

الأمية فى أوساط القبائل البربرية حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

الهدف الثالث: الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذى هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

الهدف الرابع: البلاغ الواضح المبين لعقائد أهل السنة والجماعة.

الهدف الخامس: تعليم الناس الحلال والحرام.

وهكذا شرع خليفة المسلمين عمر بن العزيز بتنفيذ هذه الخطة الواعية، بعد تقريرها وتأطرها وفق المبادئ الإسلامية، والأسس الحركية، حيث تم تعيين أفضل عشرة من فقهاء التابعين ذوى الصفات المطلوبة من الناحية العلمية الأكاديمية، ومن الناحية العملية السلوكية التربوية لهذه المهمة الجهادية الصعبة.

وبعد ذلك تحركت القافلة العلمية الدعوية فى مهمتها الجهادية نحو الشمال الإفريقى حيث استقر بها المسير فى مدينة العلم وقلعة الجهاد، مدينة القيروان عاصمة العلم فى الشمال الإفريقى آنذاك، وما أن حطت القافلة رحالها، والتقطت أنفاسها من مشقة الطريق حتى طفقت ترتب أمورها، وتجهز أدواتها، وتحصى مواطن الخير، ومواقع العلم حتى تبدأ من حيث انتهى من كان قبلها من أهل العلم والفضل والجهاد، وهكذا استمرت القافلة العلمية فى تنفيذ مهمتها الجهادية فى أواسط القبائل البربرية وفق خطة استراتيجية، لنشر الإيمان وإحياء السنة وإماتة البدعة، واستفاضة العلم ورفع الجهل، وإقامة العدل، وإزالة الظلم.

وقد نجحت هذه القافلة الدعوية فى مهمتها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت فى مدة وجيزة من تبليغ دعوية الله إلى كافة أبناء تلك الأصقاع التى شملت الشمال الإفريقى، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، بيد أننا نقرر بأن لهذا النجاح المتفوق عوامل ساعدت على تحقيقه فى فترة وجيزة، ومن أهم تلك الأسباب والعوامل ما يلى:

أولاً: الحالة السياسية آنذاك:

كانت هذه الحقبة من الزمان التى امتازت بهدوء سياسى واستقرار نسبى قد

سبقها حلقات جهادية بين الكر والفر، فكانت آخر هذه الحلقات الجهادية حلقة موسى بن نصير والتى تولى بعدها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خلافة المسلمين فشكل عهده حلقة من حلقات الاستقرار السياسى، والاستتباب الأمنى فى ربوع البلاد وقلوب العباد.

ثانياً : الحالة النفسية الفكرية :

لقد استقر فى نفوس أولئك الدعاة العلماء المجاهدين من التابعين، أنه لا يستقيم أمر الفر والدعوة إلا باستقامة القلوب، ولا تتأثر الشعوب بكلام إلا بكلام القلوب، والذى كان لعامل إخلاصهم لله، وصدقهم مع ربهم، والتزامهم بسنة الرسول ﷺ، وورعهم عن حطام الدنيا الأثر البليغ فى نفوس قبائل الأمازيغ البربرية.

ثالثاً : الحالة السلوكية الحركية :

إن هذا الدين ليس شعارات ترفع، ولافتات تصنع، وكلمات تسبك، وعبارات تنثر، وإنما هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل، وهكذا كانت حقيقة الحالة السلوكية الحركية لتلك القافلة العلمية الدعوية الجهادية فى أوساط القبائل البربرية، العمل قبل القول، وبذلك تأثرت القبائل البربرية برجال القافلة الدعوية الجهادية فى نواحى العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق الرفيعة مما ساعد على صبغ الحياة البربرية كلها بصبغة إسلامية في جانب اعتقاد الجنان، ونطق اللسان، وتطبيق الأركان ﴿ **صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٣٨].

رابعاً : جمال الشريعة الإسلامية :

لا شك بأن حق الأمة : الجهاد وحق العلم : البيان، وحق الدعوة : الحكمة والتدرج، لذلك فقد أخذت هذه القافلة المباركة على عاتقها تطبيق حق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث استطاعت هذه القافلة الدعوية من تطبيق حق الدعوة بالحكمة والتدرج فى استيعاب القبائل البربرية، وذلك بتقديم الإسلام والدعوة بسهولة ويسر مما جعل القبائل البربرية تدخل فى دين الله أفواجاً، بالتدرج واهتمت ببيان الآتى :

أولاً : بيان مقاصد الشريعة :

وذلك بتقرير نشر مبادئ رفع الحرج عن العباد فى الإسلام ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج : ٧٨]، وتأصيل مبادئ العبادات الشرعية على قواعد اليسر، ورفع الحرج والتدرج وفق القوانين السنية واعتبار المصالح البشرية.

ثانيا : إبراز مكانة مكارم الأخلاق فى الإسلام :

لا ريب أن فحوى الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم كانت لإتمام مكارم الأخلاق كما قال ﷺ «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» (١).

وتلك المكارم تشمل : العقائد، والتصورات، والسلوكيات حيث العفة، والأمانة، والصدق، والشهامة، والإحسان، والأخوة فى الدين ،والإيثار، والعدل، والإنصاف، وبتطبيق تلك الأخلاق الإسلامية فى المنطقة المغربية أصبح ابن الكاهنة التى حاربت الإسلام والمسلمين بعد دخوله فى الإسلام قائدا من قواد المغرب الأقصى فى عهد القائد الزعيم حسان بن النعمان الذى قاسى من أمه الأمرين!!

ثالثا : تحقيق روح العدل والإنصاف :

وكان ذلك متمثلا فى رفق ولاة المسلمين بالرعية، وتطبيق المبادئ العدلية كما جاءت بها الرسالة المحمدية على القوى والضعيف، مما جعل قبائل البربر تنظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير، وتسرع فى الانضمام إلى صفوف هذا الدين العظيم دين الإسلام : شريعة، وعبادة، وعقيدة حتى أصبح منهم دعاة للإسلام، وقادة للجهاد ، حملوا الإسلام دعوة ودولة إلى ربوع الأراضى الأندلسية، والساحات الفرنسية، والجزر الإيطالية، والمجاهل الإفريقية.

تأسيس أول جامعة إسلامية فى الشمال الإفريقى :

لا شك أن أول ما ينبغى على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقر بها المسلمون، وتكون محط رحال الجند منها تنطلق سراياهم، وبها يحتمون عند

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢ / ٣٨١) وصححه أحمد شاكر.

الخطر، وتكون المنطلق الطبيعى لنشأة الحياة الإسلامية ،وتثبيت شعائر الدين، وإقامة أحكامه فى البلد المفتوح، إلا أن هذه الغاية لم تكن سهلة المنال فى إفريقية؛ لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم وبعدها عن مركز الخلافة، هذا يعنى انعدام المدد المستمر، كما يعنى أن اهتمام الخليفة سينصب أولاً على البلاد القريبة منه، ولذلك فإن مشاكل المشرق كثيراً ما كانت تصرف أنظار ولى الأمر عن التفكير فى وضع إفريقية؛ ولهذه الأسباب لم يتمكن المسلمون من تأسيس مدينة القيروان إلا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح، ولقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزو العبادلة سنة ٢٧هـ فإن أبا السرح قد نزل فيها مدة وضرب فسطاطه فى أرضها . . .

كما لا يخفى أن أول من بنى مساكن للجند فيها وسماها (قيروان) هو معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ ، وكان ذلك عند القرن، (وهو جبل قريب من القيروان) ، وفى هذه الغزوة توفى الصحابى أبو زمعة البلوى، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التى بناها ابن حديج من موقع القيروان.

ولما قدم عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ ، لاحظ كثرة ارتداد البربر؛ لذلك قرر ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين من العرب والبربر؛ لتحفظ عليهم دينهم ودنياهم، فقال لأصحابه :« إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين اللّه إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر» .

فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة فيما بناه ابن حديج فلم يعجبه، فتحول عنه قليلاً وأمرهم بالبناء بعد أن استشارهم حول الموقع الذى امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتى لا يطرقه العدو ليلاً، وكان المكان وادياً كثير الشجر وتأوى إليه الوحوش والسباع فنادى فيهم عقبة بقوله: «يا أهل الوادى إنا حالون إن شاء الله، فاظعنوا، ثلاث مرات قال (الراوى) : فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا

يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادى، ثم قال: انزلوا بسم الله»[١].

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنوا المسجد الجامع ودار الإمارة، وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات، كان عقبة أثناءها يرسل السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام، وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعليم والاشتراك مع إخوانهم الفاتحين.

ولما تولى أبو المهاجر إمارة إفريقية بنى مدينة تيكروان على ميلين من مدينة القيروان فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، فلما عاد عقبة فى إمارته الثانية أعاد عمارة القيروان، وكان معسكره هذه المرة خمسة وعشرين صحابياً، فجمعهم فى وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو، وهم يؤمنون ومما قاله فى دعائه: «اللهم املأها علماً وفقهاً، واعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وأهله، وادمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة»[٢].

وسرعان ما اتسع القيروان حتى اشتمل سورها على أربعة عشر باباً وسبعة محارس، وقسمت إلى أرباض، وحارات، وشوارع، وأزقة، وأسواق، وحمامات، وقد وصفت القيروان فى كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبئ بعظمتها وتدل على فضلها، ومن ذلك قول الإدريسى: «ومدينة القيروان أم أمصار، وقاعدةأقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناءً، وأنفسها هماً... والغالب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلى عن الشبهات، واجتناب المحارم والتفنن فى محاسن العلم...»[٣].

---

(١) تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة وهذه المصادر هى: تاريخ خليفة بن خياط، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان، تاريخ الطبرى، البداية والنهاية، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، وأول ما ذكرها خليفة فى تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ ابن حجر فى كتابه الإصابة وحكم على إسنادها بأنه حسن، ومع ذلك شكك فى صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التى أحاطت بتأسيس القيروان ولا يوجد مانع شرعى من حدوثها.

(٢) مدرسة الحديث فى القيروان، للحسن بن محمد (١/ ٤٤ - ٤٨).

(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (١/ ٤٨).

أهمية القيروان فى نشأة الحياة العلمية بإفريقية :

لا يخفى أن مدينة القيروان تعتبر أول جامعة إسلامية فى شمال إفريقية، بل أصبحت لفترة طويلة قبلة علم لكل سكان القارة الإفريقية، وسكان جنوب البحر الأبيض المتوسط؛ لذلك أصبحت مدينة القيروان الجامعة الإسلامية صاحبة الرسالة العلمية، والأنشطة الدعوية يصبو إليها الناس من كل حدب وصوب يعتكفون فيها لتحصيل العلم : تفسيراً، وحديثاً، وفقهاً فى أروقة هذه المدينة العلمية صاحبة الرسالةالإسلامية فى القارة الإفريقية.

ولا ريب أن هناك ثمة أسباب جعلت مدينة القيروان تحتل الصدارة العلمية فى القارة الإفريقية، وهذه الأسباب تكمن فى الآتى :

السبب الأول : بإنشاء مدينة القيروان أصبحت إفريقية ولاية إسلامية جديدة وجزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامى، وبالتالى سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، وعلى رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة، وعى أهلها تلقى مسؤولية نشر الإسلام فى المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع : إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه فى تقويمه.

السبب الثانى : لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى فى الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا فى جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود فى مدن الشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء القيروان ثمانية عشرة صحابياً ، وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها - ولا شك - نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة فى جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما فى غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوى الشريف فى هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصى أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحرى حديث الثقات وعدم كتابة

ما يشغلهم عن القرآن .

السبب الثالث: لقد استقطبت أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاؤوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عن حديثه عن عقبة: « فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر فى الإسلام ورسخ الدين » ، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم مَن يقوم بهذه المهمة .

ومن القيروان انتشر الإسلام فى سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد؛ لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً فى بعض مدن المغرب الأوسط؛ لتعليم البربر الإسلام، ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا فى دين الله أفواجا، ودعم حسان بن النعمان جهود عقبة فى نشر الإسلام بين البربر، إذ خصص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة عندما: « أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم فى الدين » (١) وترك فى المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله .

السبب الرابع: كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السرارى وأمهات الأولاد، قال أبو العرب: « روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية وماتت، فدفنها فى مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية » (٢) .

ومن هنا كان لابد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية؛ لذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان فى وقت مبكر جداً، فقد روى عن غياث بن شبيب أنه قال: « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن فى الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من

---

(١) البيان المغرب (١ / ٤٢) نقلاً عن مدرسة الحديث بالقيروان .

(٢) مدرسة الحديث فى القيروان (١ / ٥٢) .

خلفه» (١) ، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠هـ، أى بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانى سنة ٧٨هـ .

السبب الخامس: إن الموقع الجغرافى لمدينة القيروان كان له دور كبير فى إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت فى موقع متوسط بين المشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس فى ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها كما فعل بقى بن مخلد المسند القرطبى (٢٠١- ٢٧٦هـ) ، والمحدث دارس بن إسماعيل القاسى (٣٥٧هـ) وغيرهما كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق .

السبب السادس: لقد كانت التجارة فى القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً فى ازدهار الحياة العلمية بالقيروان، فإن أبا عبد الرحمن المقرى المحدث قدم إفريقية سنة ١٥٦هـ ، وكيلاً لأحد التجار وسمع منه أهل القيروان، كما قدمها عبد العزيز بن يحيى المدنى سنة ٢٦٦هـ ، وأتى معه بمسك يبيعه، وقد سمع منه محمد بن سحنون وبشر بن كثير من أهل القيروان، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب، فقد جلب أبو على إسماعيل بن القاسم البغدادى (ولد سنة ٢٨٨هـ) إلى القيروان عدة أحمال من الكتب فى مطلع القرن الرابع، فباع كثيراً منها، وحمل ما تبقى منها فباعه فى بلاد الأندلس. .

السبب السابع: ومما أسهم فى إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هى العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم (١٥٥ - ١٧٠) ومنهم من كان يرسل فى طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) .

السبب الثامن: وكان بُعْد القيروان عن مركز الخلافة سبباً آخر لإثراء الفكر، إذ إنها كانت ملاذاً آمناً لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيقت

---

(١) أسد الغابة الصحابة لابن الأثير (٢/ ٢٥٨).

عليهم، فقد شهد آخر القرن الأول ومطلع القرن الثانى، وفود عدة من الدعاة إلى المذهب الخارجى، كما كان بها عدد من المعتزلة وكان كل من هؤلاء يبث فكره فى مسجد عقبة بن نافع بالقيروان حتى منعهم الإمام سحنون رحمه الله.

السبب التاسع: كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذى أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر به على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهى آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، حتى وصفها أبو إسحاق الجبنيانى بقوله: «القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقتل على إحياء السنة إلا أئمتها»[١].

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب فى المجال العلمى، ومن ذلك ما وصفها به مقديش بأنها: «منبع الولاية والعلوم، فهى لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع فى جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذاهب، وإلى أئمتها كل علم ينسب... ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها فى هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام»[٢].

«وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقية، برز فيها كبار المحدثين والفقهاء، والقراء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب»[٣].

---

(١) مدرسة الحديث فى القيروان(١ / ٥٥).

(٢) حسن البيان للشيخ محمد النيفر، ص(١٨٩) نقلاً عن مدرسة الحديث فى القيروان (٥٥/١).

(٣) مدرسة الحديث فى القيروان(١ / ٥٥).

الفصل الثانى
الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا فى مدينة القيروان

بدأت أجيال المحدثين فى القيروان بالصحابة رضى الله عليهم، فقد دخلوا إفريقية فاتحين ومعلمين، أسسوا مدينة القيروان - كما سبق - فكسبت بذلك شرفاً على مدى الأزمان، وهم أول من نشر فيها علم الكتاب والسنة قولاً وعملاً، ومن هنا سأبدأ الحديث عمن نزل القيروان من الصحابة وأثرهم فى نشر السنة بها وبإفريقية عموماً.

المبحث الأول: عددهم وتحقيق القول فى ذلك(١)

إن مما يلاحظه الناظر فى كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله كثرة من دخل إفريقية من الصحابة، قال ابن عذارى: «دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثير»(٢) وقد استمر قدومهم إليها من سنة ٢٧هـ إلى سنة ٧٨هـ وكان يدخلها فى كل غزوة جمع غفير منهم، ويتضاءل عدده مع مرور الزمن، فقد كان عدة جيش عبد الله بن سعد سنة ٢٧هـ عشرين ألفاً أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ، كما كان معاوية بن حديج فى غزواته الثلاث بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما عقبة بن نافع فقد صحبه فى غزوته الأولى سنة ٥٠هـ على الراجح كما أسلفت ثمانية عشر صحابياً، وفى غزوته الثانية ٦٢هـ خمسة وعشرون صحابياً، كما دخلها خالد بن ثابت الفهمى سنة ٥٤هـ أميراً، ودخلها سفيان بن وهب الخولانى سنة ٦٠هـ وسنة ٧٨هـ وهو آخر من دخلها من الصحابة، وعلى هذا يكون عدد من وقع التصريح بأسمائهم

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على كتاب مدرسة الحديث فى القيروان، وهو أهمها، وكذلك بعض كتب التراجم.

(٢) البيان المغرب(١/ ٨)

ضئيلاً جداً بالنسبة للعدد الحقيقى، فقد صرح أبو العرب باسم سبعة عشر منهم.

وذكر المالكى تسعة وعشرين صحابياً، وقد عد عقبة بن نافع، وهو لا صحبة له، وذكر الدباغ ثلاثين صحابياً، وقد ذكر فيهم عقبة بن عامر وهو لم يدخلها، وذكر صاحب الشجرة واحداً وأربعين، وقد تعقبت(١) عشرة منهم، تبين لى أن ثمانية منهم من كبار التابعين، لم تثبت لهم صحبة، وواحد لم يدخلها وواحد كرره، فتمحص له منهم واحد وثلاثون صحابياً.

وبعد النظر فى مختلف المصادر والمراجع ولم شتات هذه المسألة تحصل لدى عدد خمس وأربعين صحابياً ممن له رواية، أى بزيادة أربعة عشر رجلاً على أكبر عدد سبقت إليه فى تعداد الصحابة الذين نزلوا القيروان وإفريقية، وهو ما تمحص لصاحب الشجرة وقد تقدم أنه واحد وثلاثون.

وهذا عدد المخضرمين وهم ثلاثة ومن ولدوا على عهد الرسول ﷺ وتوفى وهم دون سن التمييز، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً فيما وقفت عليه بعد البحث، وهؤلاء عدادهم عند المحدثين فى كبار التابعين من حيث الرواية (٢).

المبحث الثانى
أثر الصحابة الرواة فى نشر السنة بالقيروان وإفريقية

لقد ضنت علينا المصادر بالمعلومات المنشودة المتعلقة بالنشاط العلمى للصحابة فى القيروان، وأغفلتها إغفالاً تاماً، وقد قمت (٣) بتتبع تراجم هؤلاء الصحابة فى كتب أهل المشرق والمغرب، وكتب التاريخ العامة والخاصة، لعلى أظفر بما ينير الطريق فى هذه المسألة؛ ولذلك فقد تضخمت مصادر تراجم الصحابة، ولاحظت أن اهتمام المشارقة بإظهار الجانب العلمى للأفارقة والقيروان

---

(١) المتعقب هو الأستاذ الحسين بن محمد شواط، صاحب كتاب مدرسة الحديث فى القيروان.

(٢) انظر: مدرسة الحديث (٢/٤٦٥).

(٣) القائم بهذا الأمر هو صاحب كتاب مدرسة الحديث.

وخاصة فى مجال الحديث قليل جداً حتى إنهم نادراً ما يشيرون فى ترجمة الصحابى إلى دخوله إفريقية، فضلاً عن أن يتحدثوا عن نشاطه العلمى فيها، أما أهل القيروان فإن أغلب ما صنفوه فى الحديث وفى تاريخ بلادهم وتراجم رجالها قد فقد، وأهمه مسند المحدث محمد بن سحنون(ت٢٥٦هـ)، وقد وصف بأنه كبير، ولعله إن وجد يسد هذه الثغرة، والذى يمكن قوله فى هذه المسألة بناء على ما توافر من المادة العلمية هو:

١- أن الصحابة عموماً منهل علمى طبيعى لنشر سنة النبى ﷺ ، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه ما استطاعوا، وقد هجروا أوطانهم وتفرقوا فى الأمصار بعد وفاة الرسول ﷺ؛ للقيام بهذه المهمة السامية؛ لذلك فإن قلة المادة الواردة فى هذا الشأن بخصوص القيروان لا تعنى عدم قيامهم بنشر السنة فيها، إنما تفسر بقلة التدوين وضياع أكثر ما دون.

٢-إن الظروف العامة لإفريقية والقيروان فى فترة الفتح لم تساعد على طول استقرار الصحابة فيها، وهذا يعنى عدم وجود واسطة مستقرة من الصحابة لرواية السنة، فكانوا يقدمون للغزو، وخلال ذلك ينشرون علوم الكتاب والسنة، ثم يعودون للمشرق، فلما تم الفتح النهائى واستقرت الأوضاع كان أغلب الصحابة قد توفوا ، والباقون ضعفت قواهم - لكبر السن - عن القدوم إليها؛ لهذا كان أثرهم فيها أقل مما هو فى بلاد المشرق.

٣-إن أطول فترة مكثها الصحابة فى شكل جماعى بالقيروان هى الفترة التى أسسوا فيها هذه المدينة، ودامت مدة خمس سنوات (٥٠-٥٥ هـ على الراجح) وكان عددهم ثمانية عشر صحابياً فى غزوة عقبة الأولى، ومن الطبيعى أنهم فى هذه المدة الطويلة قد قاموا برواية علوم الكتاب والسنة، ونشرها بين من أسلم من البربر، ومن استقر فى القيروان من عرب الفتح، ولا سيما ما يحتاج إليه فى العبادات والمعاملات، خاصة وقد تم بناء المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ودورهم من حوله، ولم تكن هناك حروب فى هذه الفترة.

٤-لقد تكرر دخول كثير من الصحابة الرواة إلى إفريقية ثم القيروان بعد

تأسيسها، فقد دخلها عبد الله بن سعد مرتين(٢٧، ٣٣هـ) ودخلها معاوية بن حديج ثلاث مرات(٣٤، ٤١، ٤٥) وعبد الله بن عمر مرتين(٢٧، ٤٥) وعبدالله بن الزبير مرتين(٦٠، ٧٨) وغيرهم.

ولهذا التردد على إفريقية أثر كبير فى نشر الصحابة للسنة، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطبائع أهلها، فهم أقدر على معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم بها، ولا شك أنه قد أصبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.

٥- إن كثيراً من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بإفريقية السرارى وأمهات الأولاد، كما ذكرت المصادر، فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد بإفريقية منهم: أبو محرز القاضى وغيرهم، ووجود عقبهم بها دليل على استمرار أمهات الأولاد فيها بعد عودة الصحابة، ولا شك أنهن سينشرون بإفريقية ما تعلمنه من الصحابة من السنة القولية والعملية.

٦- إن معظم من دخل إفريقية من الصحابة له رواية عن النبى ﷺ بل إن منهم جماعة من المكثرين، مثل عبد الله بن عمر، له ٢٦٣٠ حديثاً، وابن عباس له ١٦٦٠ حديثاً، وابن مسعود له ٨٤٨حديثاً، وعبد الله بن عمرو له ٧٠٠حديثاً، وغيرهم، ولا يمكن لهؤلاء أن يتوقفوا عن نشر العلم الغزير، فإن ذلك أصبح سجية من سجاياهم وطبعاً من طباعهم لا تكتمل حياتهم بدونه.

٧- لقد ثبتت الرواية فى إفريقية عن عشر من أصحاب رسول الله ﷺ وهم:

جبلة بن عمرو الأنصارى: وحديثه عندهم عن طريق سليمان بن يسار الذى غزا معه إفريقية سنة ٤٥هـ، واستقر فيها بعد ذلك مدة، وأخذ عنه من أهلها خالد ابن أبى عمران وغيره.

رويفع بن ثابت الأنصارى: حدث رويفع بإفريقية وسمع من حنش بن عبدالله الصنعانى، الذى كان معه فى فتح جزيرة جربة، وقد استقر حنش بعد ذلك فى القيروان وبقى فيها إلى أن توفى سنة ١٠٠هـ.

زياد بن الحارث الصدائى: انفرد أهل إفريقية برواية حديث الصدائى الطويل

فى خبر إسلامه وما سمعه من النبى ﷺ، وقد رواه عبد الرحمن بن زياد الإفريقى عن زياد بن نعيم عن الصدائى.

سفيان بن وهب الخولانى: سيأتى الحديث فى ترجمته وعن طول مكثه فى القيروان، وأثر ذلك فى نشره للسنة، وتلاميذه القيروانيين.

عبد اللّه بن سعد بن أبى السرح: ذكر ابن عبد الحكم بسنده إلى عبد اللّه ابن ربيعة، قال: صلى عبد اللّه بن سعد للناس لإفريقيا المغرب، فلما صلى ركعتين سمعوا جلبة فى المسجد، فأرعبهم ذلك وظنوا أنه العدو، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئاً، خطب الناس وقال: إن هذه الصلاة اختصرت، وأمر مؤذنه فأقام الصلاة، ثم أعادها [1].

عبد اللّه بن عمر بن الخطاب: حدث ابن عمر بإفريقية، وذلك فى غزوته الثانية.

فضالة بن عبيد الأنصارى: حدث فى إفريقية بحديثين، رواهما عنه حنش الصنعانى، الذى كان معه فى فتح جربة سنة٤٧هـ، وسمعهما منه أهل القيروان.

المنيذر الأسلمى الأفريقى: سكن إفريقية واختص أهلها بحديثه.

أبو زمعة البلوى: وبه سميت البلوية، إحدى مقابر القيروان، فيما بعد وروى عنه أهل إفريقية أنه حيث حضرته الوفاة بها: أمرهم أن يسووا قبره بالأرض.

أبو اليقظان: دخل إفريقية مع ابن حديج سنة٤٥هـ، ومنها غزا صقلية وحدث فيها بهذا الحديث: عن ابن عشانة المعافرى قال: سمعت أبا اليقظان صاحب رسول اللّه ﷺ بصقلية يقول: «أبشروا، واللّه لأنتم أشد حباً لرسول اللّه ﷺ ولم تروه من عامة من رآه» [2].

---

(١) فتوح مصر، ص(٢٦٢)، والحديث ضعيف فى سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف فى حفظه.

(٢) مدرسة الحديث فى القيروان(٢/ ٢٧٩).

المبحث الثالث
كبار الصحابة أو الصحابة الرواة

١ - الحسن بن على بن أبى طالب أبو محمد رضي الله عنه :

دخل إفريقية سنة ٢٧هـ مع عبد الله بن سعد، وقد صحب النبى ﷺ وحفظ عنه ثلاثة عشر حديثاً روى له البخارى فى صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة وأحمد فى مسنده .. اختلفوا فى تاريخ مولده ووفاته اختلافاً كثيراً، والأكثر على أنه ولد سنة ٣ هـ وتوفى فى حدود سنة ٥٠ هـ(١).

والحسن بن على أمه فاطمة الزهراء بنت نبينا عليه الصلاة والسلام، وقد وردت أحاديث كثيرة فى بيان مناقبه رضي الله عنه، ومن هذه المناقب ما رواه البخارى بإسناده إلى أبى بكر رضي الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول : « ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين »(٢) وهذا الحديث فيه منقبة للحسن رضي الله عنه فقد أخبر النبى ﷺ بأنه سيد.

ووصفه ﷺ للفئتين بالعظيمتين كما فى رواية للبخارى (٣)، لأن المسلمين كانوا يومئذ فريقين: فرقة مع الحسن رضي الله عنه، وفرقة مع معاوية رضي الله عنه وهذه معجزة عظيمة من النبى ﷺ إذ أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر، أصل القضية أن على بن أبى طالب لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادى يوم الجمعة وليلة السبت وتوفى ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين من الهجرة، وبويع لابنه الحسن بالخلافة فى شهر رمضان من هذه السنة، وأقام الحسن أياماً يفكر فى أمره، ثم رأى اختلاف الناس فرقة من جهته، وفرقة من جهة معاوية ولا يستقم الأمر، ورأى النظر فى إصلاح المسلمين وحقن دمائهم، أولى من النظر

---

(١) مدرسة الحديث فى القيروان (٢ / ٤٨٤).
(٢) صحيح البخارى (٢ / ٣٠٦) .
(٣) صحيح البخارى (٢ / ٣٠٦) .

فى حقه ، فسلم الخلافة لمعاوية فى الخامس من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وقيل : من ربيع الآخر، وقيل : فى غرة جمادى الأول، وكانت خلافته ستة أشهر إلا أياماً وسمى هذا العام عام الجماعة، وهذا الذى أخبر به النبى ﷺ : « لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين »(١).

فالحديث فيه علم من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن على، فإنه ترك الملك لقلة ولا لذلة ولا لعلة، بل لرغبة فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة (٢).

وفاته : كانت وفاته سنة خمسين من الهجرة بالمدينة المنورة (٣).

٢ ـ الحسين بن على بن أبى طالب أبو عبد الله رضي الله عنه .

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وريحانته فى الدنيا، ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولده سنة أربع للهجرة مر بليبيا فى غزوة العبادلة، له صحبه ورواية، عدد أحاديثه ثمانية، أخرج له أصحاب الكتب الستة، والإمام أحمد وغيرهم، وقد وردت أحاديث صحيحة فى بيان مناقبه ومناقب أخيه الحسن، روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **الحسن والحسين سيدا شباب الجنة وأبوهما خير منهما** »(٤)ومن إكرام الله له ولأخيه الحسن أنهما ماتا شهيدين تكميلاً لكرامتهما ورفعاً لدرجتهما أحدهما مات مسموماً، والآخر مقتولاً(٥).

■ **مقتل الحسين :**

لما مات معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه واستخلف من بعده ابنه يزيد قام أهل

---

(١) صحيح البخارى (٢/٣٠٦) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/١٤٤ ، ١٤٥)، معالم السنن (٤/٣١١).
(٣) فتح البارى (١٣/٦٦).
(٤) انظر : صفة الصفوة (١/٧٦٢)، فتح البارى (٧/٩٥).
(٥) البداية والنهاية (٨/٤٦).

الكوفة بمكاتبة الحسين بن على رضي الله عنه، وذكروا له أنهم فى طاعته، فخرج إليهم الحسين،فسبقه عبيد الله بن زياد إلى الكوفة ، فخذل غالب الناس عنه، فتأخروا رغبة ورهبة، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وكان الحسين قد قدمه قبله ليبايع الناس، فجهز إليه عسكراً فقاتلوه رضي الله عنه إلى أن قتل وجماعة من أهل بيته (١).

قلت : وأهل السنة يعتقدون أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً، وأن قتله من أعظم المصائب التى وقعت فى الإسلام، وهم يلتزمون بما شرعه الله عند المصائب من الاسترجاع، وإن تقادم عهد المصيبة، وما يفعله الشيعة فى يوم عاشوراء ليس من الإسلام فى شىء، بل هو من أمور الجاهلية التى يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من السابقين الأولين ومن التابعين لهم بإحسان، ولا من عادة أهل البيت ولا غيرهم، وقد شهد مقتل على أهل بيته، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته، وقد مرت على ذلك سنون، وهم متمسكون بسنة رسول الله ﷺ فى المصائب من صبر واسترجاع وحزن بدون جزع ولا تسخط على إرادة المولى.

مقتله : مات رضي الله عنه قتلاً فى يوم عاشوراء من شهر الله المحرم إحدى وستون هجرية(٢).

٣ - عبد الله بن عباس رضى الله عنهما (حبر الأمة وترجمان القرآن).

عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس، غزا إفريقية مع ابن أبى سرح سنة ٢٧٠ هـ، ومر ببرقة، وطرابلس، وهو الذى تولى قسمة الغنائم فى جيش العبادلة، وهو من أكثر الصحابة فتوى ورواية، له ١٦٦٠ حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمد وغيرهم، ومن تلاميذه الذين سكنوا القيروان، حنش بن عبد الله الصنعانى (٣).

وابن عباس هو ابن عم رسول الله ﷺ وحبر الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، كان يُقال له : الحبر والبحر، وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق من الصحابة، وأمم من التابعين، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه، وكثرة فقهه، وكمال عقله،

---

(١) انظر : الكامل لابن الأثير (٤ /٤٦-٩٣) . (١) انظر : البداية والنهاية (٨ /١٦٢).
(٣) مدرسة الحديث فى القيروان (٢ /٤٩٤) .

وسعة فضله، ونبل أصله رضى الله عنه وأرضاه، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو والد الخلفاء العباسيين، هاجر مع أبيه قبل الفتح فاتفق لقيامها بالنبى ﷺ بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة، فشهد الفتح وحنين والطائف عام ثمان، قيل : كان فتى سنة تسع، وصحب النبى ﷺ ولزمه،وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال، والأفعال والأحوال، وأخذ عن الصحابة علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة، والجمال والأصالة والبيان(١).

وقد وردت فى بيان فضله أحاديث كثيرة صحيحة عن رسول الله ﷺ كان فى بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً من الليل قال : فقالت ميمونة زوجة النبى ﷺ وخالة ابن عباس رضى الله عنهما : يارسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال : « **اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل** »(٢).

وفاته : توفى بالطائف سنة ثمان وستين، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه.

٤ ـ عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، أبو جعفر :

هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر القرشى الهاشمى، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها وهو أول من ولد بها من المسلمين وحفظ عن النبى ﷺ وروى عنه رضي الله عنه وأرضاه .

مر بليبيا فى جيش العبادلة، له خمسة وعشرون حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمد وغيرهم، ووردت له بعض المناقب دلت على عظم شأنه وعلو مكانه .

ومن مناقبه رضي الله عنه أنه كان من الذين شبهوا بالنبى ﷺ خَلقاً وخُلقاً ودعا له ولإخوانه، ودعا له خاصة أن يبارك فى تجارته، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الله بن جعفر أن النبى ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ثم أتاهم فقال : « **لا تبكوا على أخى بعد اليوم ادعو إلى ابنى أخى** » ، قال : فجىء بنا كأنا

---

(١) انظر عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام لناصر بن على (١ / ٣٧٨).

(٢) انظر : المسند فى الفتح الربانى (٢٢ / ٢٩٢).

أفرخ، فقال: « **ادعو إلى الحلاق** » فحلق رؤوسنا، ثم قال: « **أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب، وأما عبد الله فشبيه خَلْقى وخُلُقى** »، ثم أخذ بيدى فأشالها فقال: « **اللهم اخلفْ جعفراً فى أهله، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه** »، قالها ثلاث مرات. وكان ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذى الجناحين (١).

وكان ممن اشتهروا بالجود والبذل والعطاء، ذكر الذهبى أن أعرابياً قصد مروان، فقال: ما عندنا شيء، فعليك بعبد الله بن جعفر، فأتى الأعرابى عبد الله، فأنشأ يقـــول:

أبو جعفـــر من أهـــل بيت النبـــوة ... صَلاتُهُم للمسلمين طُهُـــــور
أبـا جعفـــر ضَنَّ الاميـــــرُ بمالـــه ... وأنت على مـــا فى يَدَيْكَ أميـرُ
أبـا جعفـــر يا ابن الشهيد الذى لـه ... جناحان فى أعلى الجنان يطيـــرُ
أبـا جعفـــر ما مثلك اليـــومَ أرتجـى ... فـــلا تتركنى بالفــــلاة أدور
أبـا جعفـــر إن الحجيـج ترحـــلوا ... وليس لرحـــلى فاعلمن بعيــــر

فقال عبد الله: يا أعرابى سار الثَّقَلُ، فعليك بالراحلة بما عليها، وإياك أن تُخْدع عن السيف، فإنى أخذته بألف دينار (٢).

وفاته: ذكر الذهبى أقوالاً فى وفاته منها أنه: مات سنة ثمانين، وقيل: سنة أربع أو خمس وثمانين، وقيل: : تسعين (٣).

٥- عبد الله بن عمر الخطاب العدوى القرشى رضي الله عنه :

هو عبد الله بن عمر بن نفيل القرشى العدوى أبو عبد الرحمن مر بأرض الأمل ليبيا فى غزوة العبادلة، وحدث ابن عمر بإفريقية، وذلك فى غزوته الثانية سنة ٤٥هـ، روى عنه ميسرة الزرودى، وهو من أهل إفريقية، كما سأله يزيد بن قاسط وهو من أهلها أيضاً، وتجمع عنده بعض أهلها، فلما أراد أن يفارقوه طلبوا

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٥٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٥٩).
(٣) نفس المصدر.

نصحاً وسألوه عن أحكام فأجاب،ومن هذه الأحكام ماذكره المالكى :أنا أبا سعيد المقبرى استسلف بإفريقية ديناراً جرجيريا من رجل على أن يعطيه منقوشا بمصر،فسأل ابن عمر عن ذلك فقال « لولا الشرط الذى فيه لم يكن به بأس »وعزة المالكى إلى موطأ ابن وهب،ومدونة سحنون،وهكذا يكون أهل إفريقية قد تعلموا من هذا الصحابى مواعظ وأحكاماً تفيدهم فى دينهم، كما أن فى سؤال أهل إفريقية له، واجتماعهم إليه، وطلبهم أن يزودهم من علمه دليل على أنهم كانوا حريصين على الاستفادة من وجود الصحابة بينهم، وأنهم على وعى بدور الصحابة فى الرواية والتعليم لأمور الدين(١).

علمه :عرف ابن عمر بالعلم والفقه،وطول ملازمته النبى ﷺ، وحفظ القرآن وفهم آياته وأحكامه، وعاش طويلاً فاحتاج الناس إلى علمة وفقهه، ويتحلى إلى جانب علمه النافع الغزير بالتواضع والورع والدقة،فلا يفتى،ولا يجيب عما لم يقع، واشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ .

قال النووى :« واعلم أن ابن عمر أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن النبى ﷺوهم :أبو هريرة،ثم ابن عمر، ثم أنس،وابن عباس، وجابر،وعائشة »(٢)
قال رسول الله ﷺ فى حقه :« **نعم الرجل عبد الله لو كان يُصلى من الليل** » (٣)
فما ترك ابن عمر قيام الليل ولا حتى فى الليلة التى استشهد فيها والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

عرضت عليه الخلافة مرات عديدة،منعه الخوف من الله أن يتقلدها، قال الذهبى :هو أحد الأعلام فى العلم والعمل، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة،فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام على،وفاتح العراق سعد ونحوهما رضى الله عنهما ،ومناقبه جمة،أثنى عليه النبى ﷺ ووصفه بالصلاح(٤).

---

(١) مدرسة الحديث فى القيروان(٢ / ٤٧٦).
(٢)تهذيب الأسماء واللغات(١ / ٢٨٠) للنووى.
(٣) الطبقات لابن سعد(٤ / ١٤٧). (٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٣ / ٢٠٣).

وقال سعيد بن المسيب فيه يوم وفاته: وما فى الأرض أحد أحب إلىَّ أن ألقى الله عز وجل بمثل عمله منه وكانت سنة وفاته ٧٤هـ (١).

٦- عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن فار بن مخزوم الهذلى، الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلى المكى المهاجرى البدرى، حليف بنى زهرة كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً (٢).

دخل ليبيا فى غزوة العبادلة مع جيش عبد الله بن أبى سرح، روى عن النبى ﷺ (٨٤٨ حديثاً) أخرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد فى مسنده، والطبرانى فى معجمه، ولقد حفظ سوراً عديدة من القرآن من فىّ رسول الله ﷺ، وبرع فى الحفظ، وإتقان التلاوة، وبقى ابن مسعود ملازماً للنبى ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال: «والله لقد أخذت من فى رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبى ﷺ أنى من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، «قال شقيق: فجلست فى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك» (٣).

وطلب النبى ﷺ من ابن مسعود ذات يوم أن يقرأ عليه القرآن، فقال ابن مسعود: أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟ قال: «إنى أشتهى أن أسمعه من غيرى» قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [النساء: ٤١] قال لى: «**كف، أو أمسك**» فرأيت عينيه تذرفان (٤).

هذا الصحابى الجليل والعلم النحرير، والعابد الزاهد، والفقيه الفذ، والمجاهد الكبير كان فى جيوش الفاتحين للشمال الإفريقى، ومر ببلادنا ليبيا، وكان معلماً

---

(١) نفس المصدر. (٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١).

(٣) انظر: البخارى مع الفتح رقم (٥٠٠٠).

(٤) انظر: البخارى مع الفتح رقم (٥٠٥٥).

ومربياً للجنود الذين معه، وكذلك لإخوانه الذين دخلوا فى دين الله أفواجاً، وكانت أقواله ومواعظه حكماً،تحيا بها القلوب،وكان يوصى الناس فى أخذ العلم،وأن يأخذوه عن أكابرهم فقال فى ذلك:«**لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم،فإذا أخذوه من أصغارهم هلكوا**»(١).

وتوفى هذا البحر الزاخر من العلوم والمعارف سنة اثنين وأربعين هجرية فى المدينة المنورة (٢).

٧- **عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما**: هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمى الإمام الحبر العابد،صاحب رسول الله ﷺ ، وابن صاحبه،أبو محمد،وقيل:أبو عبد الرحمن كان والده أكبر منه بإحدى عشرة سنة أو نحوها،وقد أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص،فلما أسلم غيره النبى ﷺ بعبد الله، له مناقب وفضل ومقام راسخ فى العلم والعمل حمل عن النبى ﷺ علماً جما (٣).

مر ببلادنا فى غزوة العبادلة ودخل إفريقية وكان يكتب ما يسمعه من النبى ﷺ ، بناء على الإذن النبوى الشريف له،وكان غزير العلم،له (٧٠٠حديث) أخرج له أصحاب الكتب الستة(٤)،وأحمد وغيرهم،من تلاميذه الذين نشروا العلم بالقيروان:عكرمة مولى ابن العباس.

شدة عبادته: عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال:«زوجنى أبى امرأة من قريش، فلما دخلتْ علىّ،جعلت لا أنحاش لها مما بقى بى من القوة على العبادة،فجاء أبى إلى كنته،فقال:كيف وجدت بعلك؟قالت:خير رجل من رجل لم يُفَتّش لها كنفاً،ولم يقربْ لها فراشاً،قال:فأقبل علىّ،وعنفنى بلسانه،ثم قال:أنكحتك امرأة ذات حسب، فعضلتها وفعلت،ثم انطلق،فشكانى إلى

(١) أعلام المسلمين عبد الله بن مسعود،لعبد الستار الشيخ (٣٣٩).
(٢) أسد الغابة(٣/ ٣٩٠).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠).
(٤) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ٤٩٥).

النبى ﷺ فطلبنى،فأتيته،فقال لى: «**أتصوم النهار وتقوم الليل**» قلت:نعم، قال: «**لكنى أصوم وأفطر،وأصلى، وأنام وأمس النساء،فمن رغب عن سنتى فليس منى**»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال:جمعت القرآن،فقرأته كلّه فى ليلة،فقال رسول الله ﷺ: «**اقرأه فى شهر**» قلت:يا رسول الله،دعنى أستمتع من قوتى وشبابى،قال: «**اقرأه فى عشرين**»،قلت:دعنى أستمتع،قال: «**اقرأه فى سبع ليال**»،قلت:دعنى يا رسول الله ﷺأستمتع،قال:فأبى(٢).وصح أن رسول الله ﷺنازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه فى أقل من ثلاث(٣).

وفاته:مات عبد الله ليالى الحرة سنة ثلاث وستين،وقيل: توفى فى مصر،وقيل:بالطائف،وقيل:بمكة،وقيل:بالشام(٤).

٨-المقداد بن عمرو رضي الله عنه:

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعى الكندى البهرانى ويقال له:المقداد بن الأسود؛ لأنه ربى فى حجر الأسود بن عبد يغوث الزهرى،فتبناه وقيل:بل كان عبداً له، أسود اللون فتبناه،ويقال:بل أصاب دماً فى كندة،فهرب إلى مكة،وحالف الأسود،شهد بدراً والمشاهد،وثبت أنه كان يوم بدر راكباً على فرسه وهو أحد السابقين للإسلام(٥)،وكان أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام،مر ببلادنا الحبيبة فى غزوة العبادلة فى جيش عبد الله بن أبى السرح،روى (٤٢ حديثاً)وأخرج له أصاب الكتب الستة،والإمام أحمد فى مسنده ومالك فى موطئه(٦).

دروس من سيرته يوم بدر:

عندما استشار رسول الله ﷺأصحابه أثناء خروجه لملاقاة المشركين فى بدر

---

(١) سير أعلام النبلاء(٣/ ٩٠).
(٢) المرجع السابق(٣/ ٨٣).
(٣) المرجع السابق(٣/ ٨٤).
(٤) نفس المرجع السابق(٣/ ٩٤).
(٥) سير أعلام النبلاء(٣/ ٣٨٦-٣٨٩).
(٦) مدرسة الحديث فى القيروان(٢/ ٥٠٠).

تكلم المقداد بعد أبى بكر وعمر فقال :يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك،والله لا نقول لك ما قال بنو إسرئيل لموسى :اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون،ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون،فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه،فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له،وفى رواية البخارى :«قال :ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك،قال ابن مسعود :فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره قوله» .

خوفه من الإمارة: عن المقداد بن عمرو قال :استعملنى رسول الله ﷺ على عمل،فلما رجعت قال لى :كيف وجدت الإمارة؟قلت :يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خَوَلٌ لى،والله لا ألى على عمل ما دمتُ حياً .

حرصه على الجهاد :

ذكر الذهبى أن أبا راشد الحُبْرانى وافى المقداد فارس رسول الله بحمص على تابوت من توابيت الصيارفة،قد أفضل عليها من عظَمه،يريد الغزو،فقلت له :قد أعذر الله إليك،فقال :أبتْ علينا سورة البحوث(التوبة) : ﴿ **انفِروا خِفافا وثِقالا** ﴾[التوبة : ٤١] .

وفاته:توفى رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع[١] .

٩-أبو ذر الغفارى رضي الله عنه :

هو جندب بن جنادة بن عبيد بن حزام بن غفارة بن مليل بن بكر بن عبد مناف بن كنانة،أحد السابقين الأولين،من نجباء أصحاب محمد ﷺ،قيل :كان خامس خمسة فى الإسلام،ثم إنه رُدَّ إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبى ﷺ له بذلك،فلما هاجر النبى ﷺ،هاجر أبو ذر رضي الله عنه ولازمه وجاهد معه،وكان يفتى فى خلافة أبى بكر،وعمر وعثمان[٢] .

مر بليبيا ودخل الشمال الإفريقى فى غزوة العبادلة، روى عن النبى ﷺ (٢٨١ حديثا)، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم .

---

(١) سير أعلام النبلاء(١ /٣٨٨) .

(٢) سير أعلام النبلاء(٢ /٤٦ -٧٨) .

قال فى حقه رسول الله ﷺ : «**ما أقلت الغبراء ،ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبى ذر**»(١).

قال عنه الذهبى : «كان رأساً فى الزهد ،والصدق ،والعلم ،والعمل ،قوالاً بالحق ،لا تأخذه فى الله لومة لائم ،على حدة فيه »(٢).

وتجد فى كتب الشيعة اتهاماً لعثمان رضي الله عنه بأنه ظلم أبا ذر ونفاه إلى الربذة ،وهذا اختلاق منهم وإفك مبين ،وإنما الذى حدث أن أبا ذر رضي الله عنه هو الذى اختار الربذة بنفسه ،وأن عثمان دعاه من الشام ليكون معه فى المدينة بعد أن اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنه فى الشام ،وقال عثمان لأبى ذر :«أحببت أن أجعلك بين أصحابك وخفت عليك جهل الناس» .قالت أم ذر :«والله ماسيّر عثمان أبا ذر ـ تعنى الربذة ـ ولكن رسول الله ﷺ قال :«**إذا بلغ البناء سلعاً ،فاخرج منها**» وكان أبو ذر لا يستجيز ادخار النقدين الذهب والفضة ، وكان يحدث ويقول :لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم ،ولا تبر ولا فضة ،إلا شيء ينفقه فى سبيل الله ،أو يعده لغريم فقال :هذا دال على فضل إنفاقه وكراهية جمعه ،لا يدل على تحريم(٣).

وفاته : توفى رضي الله عنه فى الربذة فى عام (٣٢هـ) ،وحضر دفنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذى مات بعده بقليل .

١٠ –عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه :

حضر بدراً مع المشركين ،ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح ،وأما جده أبو قحافة فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح ، وكان عبد الرحمن أسن أولاد الصديق ،وكان من الرماة المذكورين ، والشجعان قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم دخل إفريقية ماراً بليبيا فى جيش العبادلة ، له أحاديث ثمانية أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم ، وهوالذى أمره النبى ﷺ فى حجة الوداع أن يعتمر بأخته عائشة من التنعيم ،توفى سنة (٥٣هـ)(٤).

---

(١) مدرسة الحديث فى القيروان (٢/ ٤٨٥ ، ٤٨٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٦ ـ ٧٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٦٧). (٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٧١).

١١ـ أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه :
هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي المدني البدري العقبي الذي أسر العباس رضي الله عنه يوم بدر، وشهد العقبة وله عشرون سنة، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة، وهذا الصحابي الذي شهد بدراً وبايع في العقبة مر ببلادنا ودخل الشمال الإفريقي في جيوش الفاتحين، وله أحد عشر حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة والبخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد وغيرهم، توفي سنة(٥٥هـ) بالمدينة(١).

١٢ -فضالة بن عبيد رضي الله عنه :
هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جحْجَبَى الفقيه، أبو محمد الأنصاري الأوسي، صاحب رسول الله ﷺ من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي له قضاء دمشق، وكان ينوب عن معاوية في الإمرة إذا غاب. حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة(٤٧هـ) وسمعهما من أهل القيروان، أخرج له مسلم، والأربعة، وأحمد وبقي بن مخلد، وابن منده(٢).

قاضي دمشق :
كان أبو الدرداء يقضي على دمشق، فلما حضرته الوفاة أتاه معاوية عائداً، فقال: من ترى للأمر بعدك؟ قال: فضالة بن عبيد، فلما توفي قال معاوية لفضالة: إني قد وليتك القضاء فاستعفى منه، فقال: والله حابيتك بها، ولكني استترت بك من النار، فاسستتر منها ما استطعت.

تأمله في آية ووصيته لابن محيريز :
ذكر الذهبي رحمه الله أن فضالة قال: لأن أعلم أن الله يتقبل مني مثقال حبة أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأنه تعالى يقول: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾[المائدة: ٢٧]، وعن ابن محيريز، قال: قلت لفضالة أوصني فقال: خصالَ

---

(١) مدرسة الحديث بالقيروان(٢ /٥٣٧).
(٢) مدرسة الحديث بالقيروان(٢ /٤٧٨، ٤٩٦).

ينفعك الله بهن،إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف،فافعل،وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل،وإن استطعت أن تجلس ولا يجلس إليك،فافعل(١).

وفاته : قال معاوية رضي الله عنه حين توفى فضالة، وهو يحمل نعشه، لابنه عبد الله ابن معاوية : تعالى اعقبنى، فإنك لن تحمل مثله أبداً، وكانت سنة وفاته (٥٣هـ)، وقيل : (٥٩ هـ)(٢).

١٣ ـ سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع : سنان بن عبد الله، أبو عامر وأبو مسلم، ويقال : أبو إياس الأسلمى الحجازى المدنى، قيل: شهد مؤتة، وهو من أهل بيعة الرضوان، قال مولاه يزيد : سمعته يقول : بايعت رسول الله ﷺ على الموت، وغزوت معه سبع غزوات(٣).

شجاعته : أغار عبد الرحمن بن عُيينة على الإبل التى كانت فى ضواحى المدينة فقتل راعيها، وطرد الإبل وهو وأناس معه فى خيل، وكان مع سلمة رباح غلام النبى ﷺ فأقعده على فرس ليعلم رسول الله ﷺ، وقام على تل ونادى: ياصباحاه واتبع القوم فجعل يرميهم وحده ويقول :

أنا ابن الأكوع ... واليوم يوم الرُّضَع

حتى لحقت به خيل رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو قتادة وتغلبوا على العدو، وقال رسول الله ﷺ فى ذلك: «**خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجَّالتنا سلمة**»(٤).

ولقد دخل هذا الصحابى الجليل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس فى جيش العبادلة سنة (٢٧هـ)، روى (٧٧ حديثاً)، أخرج له الجماعة وأحمد والطبرى وغيرهم(٥).

وكان رسول الله ﷺ يردفه خلفه فى الغزو أحياناً، ومسح رسول الله ﷺ على

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/١١٦). (٢) نفس المصدر (٣/١١٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٢٦).

(٤) نفس المصدر (٣/٣٢٧ ـ ٣٣٠). (٥) مدرسة الحديث فى القيروان (١/٤٩٢).

وجهه مراراً واستغفر له مراراً، حدث إياس بن سلمة عن أبيه قال: «أردفنى رسول الله ﷺ مراراً، واستغفر لى مراراً عدد ما فى يدى من الأصابع»(١).

وفاته: استأذن رسول الله ﷺ فى البدو، وخرج فى آخر حياته إلى الربذة، وقبل وفاته بليال نزل إلى المدينة، توفى سنة أربع وسبعين الهجرية، وكان من أبناء التسعين، وحديثه من عوالى صحيح البخارى(٢).

١٤ ـ المسور بن مخرمة رضي الله عنه:

هو المسور بن مخرمة بن نوفل، بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى بن كلاب، الإمام الجليل، أبو عبد الرحمن، وأبو عثمان القرشى الزهرى، وأمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضاً، له صحبة ورواية، عداده فى صغار الصحابة كالنعمان بن بشير، وابن الزبير وكان ممن يلزم عمر ويحفظ عنه، دخل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس مع ابن أبى السرح، وهو الذى حرض عثمان على غزو إفريقية بلغت أحاديثه اثنين وعشرين حديثاً أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم.

كان كثير الصيام، وكان إذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً، وصلى ركعتين وشاهد القادسية مع سعد بن أبى وقاص، وكان من خواص ابن الزبير، وكان ابن الزبير لا يقطع أمراً دون المسور فى مكة.

وفاته: قيل: قتل فى حصار الحجاج لابن الزبير فى مكة (٧٣هـ)، ورجح الذهبى أن وفاته سنة (٦٤هـ) ودفن فى مكة(٣).

١٥ ـ سفيان بن وهب الخولانى:

الصحابى المعمر، أبو أيمن، الخولانى المصرى، اختلفوا فى صحبته والصحيح أن له صحبة ورواية، كما ذكر ابن حجر فى تعجيل المنفعة وغيره، غزا المغرب زمن عثمان، ودخلها غازياً مرة أخرى سنة (٦٢هـ)، وأميراً سنة (٧٨هـ)، حدث

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٣٣٠).

(٢) نفس المصدر السابق (٣/٣٣١).

(٣) أسد الغابة (٤/٣٩٩).

بالقيروان، ومن تلاميذه فى الشمال الإفريقى مسلم بن يسار، وبكر بن سوادة، له ثلاثة أحاديث انفرد بها أهل مصر وإفريقية، أخرج له الطبرانى فى الكبير والحاكم، وأبو يعلى، وأحمد وابن منده، وأبو نعيم.

وفاته: قيل (٨٢هـ) بإفريقية، وقيل: (٩١هـ).

١٦ ـ بلال بن الحارث المزنى، أبو عبد الرحمن:

دخل إفريقية سنة ٢٧ هـ، فى غزوة العبادلة، وكان يحمل لواء قومه مزينة، وعدتهم أربعمائة، وقيل: ثمانمائة، له صحبةٌ، ورواية، أحاديثه ثمانية، روى له الأربعة (أبو داود، والنسائى، والترمذى، وابن ماجة) وأحمد، ومالك، توفى سنة ٦٠ هـ.

١٧ ـ جبلة بن عمرو الأنصارى:

دخل جبلة إفريقية مع معاوية بن حديج، فى آخر غزواته سنة ٤٥ هـ وبقى بها مدة؛ لأن هذه الغزوة قد دامت قرابة أربع سنوات حتى إنه أخذ عنه من أهلها خالد بن أبى عمران وغيره، وكان له أثر فى نشر السنة بالشمال الإفريقى.

١٨ ـ جرهد بن خويلد الأسلمى:

دخل إفريقية مع ابن أبى سرح، له ثمانية أحاديث، أخرج له البخارى فى صحيحه، وأبو داود، والترمذى، والإمام أحمد، وبقى بن مخلد، توفى سنة ٦١ هـ

١٩ ـ الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشى العامرى:

نزل مصر منها غزا إفريقية، واستشهد بها فى بعض غزوات معاوية بن حديج.

دخل الشمال الإفريقى فى غزوة العبادلة، وقد أمره عثمان رضي الله عنه على الجيش حتى يصلوا إلى عبد الله بن سعد فى مصر، له حديث واحد فى مسند بقى بن مخلد، وأخرج له الإمام أحمد فى مسنده.

٢٠ ـ حمزة بن عمرو الأسلمى، أبو صالح:

شهد فتح إفريقية، له بها آثار محمودة، له عن النبى ﷺ تسعة أحاديث، أخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى وغيره، من تلاميذه سليمان بن يسار، وقد دخل القيروان بعد ذلك واستقر بها، توفى هذا الصحابى سنة ٦١ هـ

٢١ ـ خالد بن ثابت الفهمى :

دخل إفريقية مرتين : الأولى مع ابن حديج سنة (٤٥هـ) ، والثانية أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ٥٤هـ، وكان خالد ولى الإمارة على عهد عمر وغيره، ولم أعثر على من نسب له رواية عن النبى ﷺ .

٢٢ ـ ربيعة بن عبّاد الدؤلى :

صحب النبى ﷺ وروى عنه، شهد غزوة إفريقية مع عبد الله بن سعد ، وله بها آثار ، له خمس أحاديث، أخرج له الطبرانى فى الكبير، وأحمد فى المسند، توفى سنة ٩٥ هـ.

٢٣ ـ أبو رمثة البلورى :

لم يذكر تاريخ دخول أبى رمثة إلى إفريقية، وأجمعوا على صحبته ووفاته بها، كان له عن النبى ﷺ ثمانية أحاديث، أخرج له أبو داود، والترمذى، والنسائى، وأحمد .

٢٤ ـ زياد بن الحارث والصدائى :

له صحبة ورواية، ويعد فى المصريين وأهل المغرب، دخل إفريقية وشهد فتوحاتها، ولم يذكر التاريخ زمن دخوله، وله عن النبى ﷺ أربعة أحاديث .

٢٥ ـ أبو زمعة البلوى :

اشتهر بكنيته، وقد اختلفوا فى اسمه اختلافاً كثيراً، والأكثر على أنه عبيدة ابن أرقم دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥هـ، وتوفى بها، وسميت مقبرة البلوية فى القيروان باسمه، وقد ذكروا أن قلنسوته دفنت معه وفيها من شعر رسول الله ﷺ، له حديثان، أخرج له البغوى فى معجمه، وأبو نعيم فى معرفة الصحابة، وابن عبد الحَكَم فى فتوحه .

٢٦ ـ سلكان بن مالك :

ذكر فيمن غزا المغرب من الصحابة ولم يحددوا تاريخ دخوله، ولم يسندوا إليه رواية .

٢٧ ـ أبو خبيس البلوى :

غزا إفريقية وعداده فى المصريين من الصحابة، له حديث واحد .

٢٨ ـ عبد الله بن أنيس الجهنى :

أبو يحيى المدنى حليف الأنصار، شهد فتح إفريقية مع ابن أبى سرح،له ٢٤ حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك،وأحمد، والبخارى فى الأدب المفرد، توفى سنة سنة ٥٤هـ.

٢٩ ـ قيس بن يسار بن مسلم الكنانى :

نقل المالكى فى « رياض النفوس »عن ابن يونس أن قيساً هذا صحابى، وذكر أنه دخل إفريقية مع عقبة بن نافع (سنة ٥٠ أو ٦٢ هـ) وله عقب بإفريقية منهم : أبو محيريز القاضى .

٣٠ ـ أبو لبابة الأنصارى :

اختلفوا فى اسمه كثيراً، فقيل : بشر، وقيل : رفاعة بن المنذر، وقيل : غير ذلك له خمسة عشر حديثاً، أخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجة، اختلفوا فى تاريخ وفاته، والقبر الذى فوق مقبرة قابس بتونس قبره، وقيل : توفى سنة ٤٠هـ، أما الإمام ابن حبان فقد قال : إنه توفى فى المدينة .

٣١ ـ مسعود بن الأسود البلوى :

غزا إفريقية، عداده فى أهل مصر، وهو الذى استأذن عمر فى غزو إفريقية، وحديثه عند أهل القيروان من طريق على بن رباح الذى سكن القيروان .

٣٢ ـ المسيب بن حزن القرشى المخزومى أبو سعيد :

شهد فتح إفريقية مع ابن أبى سرح، له سبعةأحاديث، لم يرو عنه غير ابنه سعيد بن المسيب، وهو من سادة التابعين، أخرج له البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، وأحمد، وبقى بن مخلد .

٣٣ ـ المطلب بن أبى وداعة السهمى :

غزا إفريقية مع عبد الله بن أبى سرح فى جمع من بنى سهم كما ذكر ابن يونس وغيره، له تسعة أحاديث، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، وأحمد، وغيرهم .

٣٤ ـ المنذر الأسلمى الإفريقى:

نسب إلى إفريقية لكونه سكنها وتوفى بها، واختص أهلها بحديثه، من طريق أبى عبد الرحمن الحبلى، دفن فى طرابلس وقبره مشهور(١).

ونكتفى بذكر هذا الكم من الأخيار الذين دخلوا وشاركوا فى فتح الشمال الإفريقى، بل منهم من قد ساهم مساهمة مباشرة فى بناء مدينة القيروان، وأقاموا صرح الإسلام الشامخ فى ربوع البلاد، وفى قلوب العباد، ونشروا علوم القرآن وعلوم سنة النبى ﷺ القولية والفعلية، كما تلقوها عن الرسول ﷺ.

وأخيراً ننقل لك بعض الأبيات من نونية القحطانى أبى محمد عبد الله بن محمد القحطانى الأندلسى فى مدحه لصحابة رسول الله ﷺ:

❦❦❦❦❦

(١) راجع مدرسة الحديث فى القيروان (٢/٤٩٥-٥٠١) وتجدر الإشارة بأن الشيخ الحسين بن محمد بن شواط فى كتابه القيم مدرسة الحديث فى القيروان، قد ذكر خمسة وأربعين صحابياً بأسمائهم إلا أنى اكتفيت بذكر هؤلاء، ومن أراد المزيد فليراجع هذا المصدر القيم.

قل : إن خير الأنبياء محمد   وأجل من يمشى على الكثبان

وأجل صحب الرسل صحب محمد   وكذاك أفضل صحبه العمران

رجلان قد خلقا لنصر محمد   بدمى ونفسى ذانك الرجلان

فهما اللذان تظاهرا لنبينا   فى نصره وهما له صهران

بنتاهما أسنى نساء نبينا   وهما له بالوحى صاحبتان

أبواهما أسنى صحابة أحمد   ياحبذا الأبوان والبنتان

وهما وزيراه اللذان هما هما   لفضائل الأعمال مستبقان

وهما لأحمد ناظراه وسمعه   وبقربه فى القبر مضطجعان

كانا على الإسلام أشفق أهله   وهما لدين محمد جبلان

أصفاهما أقواهما أخشاهما   أتقاهما فى السر والإعلان

أسناهما أزكاهما أعلاهما   أوفاهما فى الوزن والرجحان

صديق أحمد صاحب الغار الذى   هو فى المغارة والنبى اثنان

أعنى : أبا بكر الذى لم يختلف   من شرعنا فى فضله رجلان

هو شيخ أصحاب النبى وخيرهم   وإمامهم حقًا بلا بطلان

وأبو المطهرة التى تنزيهها   قد جاءنا فى النور والفرقان

أكرم بعائشة الرضى من حرة   بكر مطهرة الإزار حصان

هى زوج خير الأنبياء وبكره   وعروسه من جملة النسوان

هى عرسه هى أنسه هى إلفه   هى حبه صدقًا بلا أدهان

أو ليس والدها يصافى بعلها   وهما بروح الله مؤتلفان

لما قضى صديق أحمد نحبه   دفع الخلافة للإمام الثانى

أعنى به الفاروق فرق عنوة   بالسيف بين الكفر والإيمان

هو أظهر الإسلام بعد خفائه   ومحا الظلام وباح بالكتمان

ومضى وخلى الأمر شورى بينهم   فى الأمر باجتمعوا على عثمان

من كان يسهر ليله فى ركعة   وتراً فيكمل ختمة القرآن

ولى الخلافة صهر أحمد بعده   أعنى على العالم الربانى

زوج البتول أخا الرسول وركنه ... ليث الحروب منازل الأقران
سبحان من جعل الخلافة رتبة ... وبنى الأمانة أيما بنيان
واستخلف الأصحاب كي لا يدعى ... من بعد أحمد فى النبوة ثانى
أكرم بفاطمة البتول وبعلها ... وبمن هما لمحمد سبطان
غصنان أصلهما بروضة أحمد ... لله در الأصل والغصنان
أكرم بطلحة والزبير وسعدهم ... وسعيدهم وبعابد الرحمن
وأبى عبيدة ذى الديانة والتقى ... وامدح جماعة بيعة الرضوان
قل خير قول فى صحابة أحمد ... وامدح جميع الآل والنسوان
دع ما جرى بين الصحابة فى الوغى ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان
فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهما فى الحشر مرحومان
والله يوم الحشر ينزع كل ما ... تحوى صدورهم من الأضغان
والويل للركب الذين سعوا إلى ... عثمان فاجتمعوا على العصيان
ويل لمن قتل الحسين، فإنه ... قد باء من مولاه بالخسران
لا تركنن إلى الروافض إنهم ... شتموا الصحابة دون ما برهان
لعنوا كما بغضوا صحابة أحمد ... وودادهم فرض على الإنسان
حب الصحابة والقرابة سنة ... ألقى بها ربى إذا أحيانى[1]

---

(١) نونية القحطانى (٢١-٢٥).

الخلاصة

١ - إن الباحث المسلم للتاريخ عليه أن يهتم باللب والغاية فى دراسة التاريخ مع الاعتناء بالأخبار وتحقيقها، والتركيز على العلل والأسباب مع تفسير هذه الحوادث والاهتداء إلى الروابط التى تجمع بينها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات.

٢ - إن علم التاريخ لا ينفصل عن علوم الشريعة بل هو فرع من فروعها يغرف منه المربون فى مجال التربية والسلوك، والمحدثون فى ميدان علم الرجال، والجرح والتعديل، وقد استخدمه علماء الحديث فى دحض حجج الكذابين والوضاعين.

٣ - إن فوائد علم التاريخ كثيرة جداً منها: التربية بالأحداث، وتنمية السلوك النافع، والتأثر بالقدوات، واستيعاب الربانية فى حياة الشعوب والأمم والدول والمجتمعات.

٤ - من أهم السنن التى تظهر لدارس التاريخ: سوء عاقبة المكذبين، وسنة إناطة التغيير البشرى بالبشر، وسنة الأيام سجال بين الناس، وسنة زوال الأمم بالعلو والطغيان، وسنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف، وسنة لكل أمة أجل، وسنة نصر الله للمؤمنين، وسنة ابتلاء المؤمنين، وسنة التدافع بين الحق والباطل، وغير ذلك من السنن.

٥ - ومن فوائد دراسة التاريخ، التعرف على معالم تاريخ الإنسانية مثل: معرفة تاريخ الأنبياء معرفة سيرة النبى ﷺ، والتعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين، والتعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة، ومعرفة أثر الإسلام فى حياة البشرية.

٦ ـ إن دراسة التاريخ تعين الباحث المسلم على التأكيد على جملة من الحقائق الهامة فى حياة البشرية مثل: أول شىء عرفته البشرية هو توحيد الله، وحقيقة أن الله خالق كل شىء، وحقيقة أن الإنسان خُلِقَ سوياً، وحقيقة أن الإنسان يحتاج إلى الذكرى والصبر على المشاق.

٧ ـ إن دراسة التاريخ تكسب القادة العاملين تجارب ضخمة فى سياسة الدول والأمم والشعوب، وتفتح لهم أبواباً فى السياسة الشرعية وعلم المقاصد والمصالح والمفاسد.

٨ ـ إن دراسة التاريخ تكسب الإنسان حصانة فكرية بمنهج أهل السنة والجماعة تحفظه من البدع والأهواء، وتعين المسلم الحريص على فهم ومعرفة القرون الفاضلة لتكون نبراساً له فى حياته المعاصرة.

٩ ـ إن دراسة التاريخ بمنهجية إسلامية تكسب الباحث مقدرة خاصة لتفسير الحوادث الإنسانية، وتستمد هذه المنهجية من عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، ولها طرق خاصة بها فى إثبات الحوادث التاريخية تعتمد على الدقة والدليل والبرهان.

١٠ ـ إن من سمات المنهج العلمى فى كتابه التاريخ الإسلامى، استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد منها، وحسن الاستدلال والتنظيم والترتيب، والإيمان الكامل بكل ما دل عليه الكتاب والسنة، ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب، والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما وغير ذلك من السمات.

١١ ـ إن كتابة التاريخ الإسلامى له غاية ووسائل تحققه، ومن أسمى غاياته وأهدافه الارتباط بالعقيدة الإسلامية فى تصوراتها وأحكامها، كما أن المنهج التاريخى يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها فى الواقع العملى، كما ينبه للأخطاء والانحرافات التى وقع بها المسلمون ويحاول أن يربيهم من خلال الأحداث والتنبيه على ترك الانحراف والالتزام بالاستقامة، كما يهتم

المنهج الإسلامى فى كتابة التاريخ فى بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم.

١٢- إن من وسائل تحقيق المنهجية فى كتابة التاريخ،التصور الصحيح المستمد من الشريعة ومن مصادرها المتعددة، ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه فى واقع حياتهم.

١٣- إن فى منهج كتابة التاريخ الإسلامى قواعد فى التصور،والاعتقاد من أهمها: الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة التاريخ الإسلامى، ووحدة الحضارةالإسلامية،ولا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالغيب، ومعرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى، وكذلك لابد من التأكد فى التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام.

١٤- إن أهم قواعد المصادر فى كتابة التاريخ،اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر؛ لأن التاريخ الإسلامى جزء لا يتجزء من الدراسات الإسلامية، وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة، وحضارة متميزة،وأخلاق إنسانية انبثقت عن تلك العقيدة الصحيحة.

١٥- إن من أشهر علماء الأمة فى كتابة التاريخ: الإمام أبا جعفر بن جرير الطبرى،وخليفة بن خياط،وابن كثير،وابن خلدون وقد شقوا هذا الطريق وتركوا لناتراثاً متميزاً فى هذا المجال.

١٦- لقد سكن الشمال الإفريقى أجناس عدة من البشر أهمها: البرابرة، والرومان والأفارقة، والإفرنج.

١٧- إن من أهم الديانات التى انتشرت فى الشمال الإفريقى قبل الفتح الإسلامى: النصرانية،والمجوسية،والوثنية.

١٨- إن لفظة الشمال الإفريقى تطلق على الإقليم الذى يبدأ من نهاية الحدود المصرية شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً، وتدخل فيه كل من ليبيا وتونس

والجزائر والمغرب وموريتانيا .

١٩ – إن الحضارات القديمة عاشت ونمت وازدهرت فى الشمال الإفريقى ومن أهمها :حضارة السكان الأصلية من البرابرة، ومن الحضارات الوافدة : الفنيقية والقرطاجنية ،والرومانية ،والوندالية، والإغريقية، والنوميدية،إلا أنها اندثرت وتركت لنا معالم من وآثاراً تعين على مبدأ الاعتبار والاتعاظ بالأقوام السابقة .

٢٠ – لقد استفحل أمر النصرانية فى الشمال الإفريقى إلا أن التفرقة العقيدية والمذاهب الفكرية،والصراعات المذهبية الحادة مزقته وخصوصاً الصراع العنيف الذى نشب بين الأرثوذكسية البيزنطية، والكاثوليكية الرومانية ،وكان هذا الصراع من أهم عوامل ضعف الدولة القائمة، مما جعل أهالى الشمال الإفريقى يقومون بضربات مسددة ضد النصرانية المنحرفة ويتمردون على دولتها المتعسفة، ويتطلعون إلى الدين الصحيح لترتوى من ينابيعه المنعشة .

٢١ – إن موقع ليبيا الاستراتيجى جعلها حلقة وصل بين جنوب البحر المتوسط وداخل إفريقيا،فأهل ليبيا احترفوا التجارة منذ أزمان موغلة فى القدم .

٢٢ – إن تلك الأمم والدول والشعوب التى سكنت الشمال الإفريقى مضت فيها سُنَّة الله التى لا تتبدل ولا تتغير،ويحتاج الدارس للتاريخ أن يقف وقفة متأمل معتبر،ومتعظ خائف،ومفكر دقيق .

٢٣ – إن دعاوى المستشرقين فى حركة الفتح الإسلامى بعيدة عن الدليل وخاوية من البرهان،وتتهاوى أمام الحقائق الساطعة، والأدلة الناصعة والنقد الموضعى، والبحث التحليلى المبنى على المنهجية العلمية والمعرفة التاريخية الصحيحة .

٢٤ – يشهد التاريخ أن أهالى برقة قبلوا دعوة الإسلام بدون مقاومة وإنما برضى وتسليم لدين الفطرة،وكانت برقة القاعدة الأصلية فى غزوات الفتح والدرع الحصين عند الملمات،ونقطة الانطلاق والتوغل فى الشمال الإفريقى ومجاهيل

الصحراء الكبرى.

٢٥- إن الصحابى الجليل والقائد الأعلى للفتوحات فى الشمال الإفريقى عمرو ابن العاص تعرض لحملات مشينة لتلطيخ سيرته العطرة، ولقد وجهت قذائف الحق وصواريخ الإيمان إلى تلك الحملات وبينت سلامته مما نسب إليه وأنها بهتان وظلم وزور.

٢٦- إن عدالة الصحابيين الجليلين أبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص تقوم على أسس علمية وحقائق تاريخية وأدلة دامغة، وبراهين ساطعة.

٢٧- إن عمرو بن العاص رضي الله عنه توقف فى فتوحاته عند طرابلس بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.

٢٨- إن عثمان رضي الله عنه الخليفة أمر عبد الله بن أبى سرح رضي الله عنه بمواصلة الفتح بعد أن جمع الصحابة واستشارهم فى المدينة، وأشاروا عليه بفتحها إلا أن سعيد ابن زيد خالف رأى الصحابة متمسكاً برأى عمر فى ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

٢٩- لقد تولى قيادات حملات الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى قادة عظام تميزوا بالقدرة القيادية، والكفاءة الحربية، وتحلوا بالروح العالية فى نشر الإسلام ودعوته، والجهاد فى سبيله مدة زمنية زادت عن سبعين سنة.

٣٠- كان قادة الفتح على التوالى هم: عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع، وأبو المهاجر بن دينار، وزهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغسانى، وموسى بن نصير اللخمى، وكانت سيرة كل قائد من هؤلاء مليئة بالدروس والعبر والحكم، والتخطيط البعيد.

٣١- من أشهر معارك الشمال الإفريقى حتى زمن حسان، معركة سبيطلة بإفريقية وقعت بين عبد الله بن سعد، والقائد الرومى « جرجير » وانهزم فيها الجيش البيزنطى، وقتل قائدهم جرجير.

٣٢- ومعركة قمونية بالقرب من القيروان حالياً نشبت بين القائد معاوية بن حديج وجيش الروم بقيادة نقفور، انهزم فيها جيش الروم وقتل قائدهم.

٣٣- معركة تهوذة وقعت بين عقبة بن نافع، وكسيلة، وانهزم فيها جيش المسلمين،واستشهد القائد الفاتح العظيم عقبة بن نافع، بتهوذة.

٣٤- معركة ممس« تقع بين القيروان وبين ولاية تبسة » نشبت بين القائد الصحابي زهير بن قيس البلوى،وكسيلة انهزم فيها جيش قبيلة(أوربة) .

٣٥- معركة وادى مسكيانه وقعت بشرق الجزائر بين القائد حسان بن النعمان والكاهنة انتصرت الكاهنة على حسان.

٣٦- معركة بئر الكاهنة وقعت بين حسان بن النعمان وجيش الكاهنة انتصر فيها حسان،وقتلت الكاهنة عام٨٢هـ .

٣٧- ومن معارك الأندلس الخالدة فى تلك المرحلة معركة جزيرة طريف بين المسلمين بقيادة طريف بن مالك وبين القوط الإسبان عام٩١هـ .

٣٨- معركة جبل طارق وقعت بين جيش طارق بين زياد والحامية المسيحية القوطية،وانتصر فيها طارق، وفتح الجبل الذى سمى باسمه حتى الآن،وكان ذلك عام ٩٢هـ.

٣٩- معركة« وادى بكة أو شذونة » وقعت بين طارق بن زياد،والملك القوطى لذريق،انتصر فيها المسلمون،وكانت عام٩٢هـ،وتعتبر هذه المعركة حاسمة؛لأنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

٤٠- لقد استقر الإسلام فعلياً فى الشمال الإفريقى فى عهد الخليفة المصلح عمر ابن عبد العزيز،ولقد ساعدت بعثة الفقهاء العشرة التى أرسلها عمر بن عبدالعزيز على تثبيت العقيدة الإسلامية،وتطهير النفوس،وتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٤١- لقد كان بجانب كتائب الجهاد المسلح سرايا وجنود من كبار الصحابة

الفقهاء العلماء، ساهموا فى فتح الشمال الإفريقى ، ومن أشهرهم: الحسن والحسين ابنا على،وأبى ذر الغفارى،والمقداد بن عمرو،وعبد الله بن عباس،وابن عمر،وابن مسعود،وغيرهم كثير،وكان لهم أثر فى نشر السنة والعلوم الإسلامية بين أهالى الشمال الإفريقى.

٤٢- إن أمة الإسلام التى حملت دينها لتشعه على أهالى الشمال الإفريقى حملت معها حضارة متميزة عن حضارات الشمال الإفريقى التى قبلها .والتى كانت وثنية أو ذات ديانة منحرفة عن الصراط المستقيم؛ ولذلك ظهرت أخلاق وضيعة فى سلوكهم، ومارسوا على أهالى الشمال الإفريقى ظلماً عظيماً وعسفاً وخيماً، وكان دافعهم هو الطمع فى خيرات البلاد الكثيرة،وحملوا معهم ديانة عبادة الأوثان، والانغماس فى الشهوات،فانطمست البصائر وزاغت الأبصار وضاع التوحيد،ونزلوا فى درجة أحط من منزلة الحيوانية،وجرت فيهم سنة الله فى أخذ من يقع فى الذنوب والمعاصى، والشرك ويبتعد عن منهج الله ونداء الفطرة.

٤٣- إن عظمة الفتوحات الإسلامية تظهر إذا قارنتها مع من سبق فى الشمال الإفريقى من الغزاة الطامعين.

٤٤- إن كل الجيوش الإسلامية التى دخلت الشمال الإفريقى كان دافعها ومحركها فى حركة الجهاد: العقيدة والحرص على هداية الناس، وإزالة العوائق التى تحول بينهم وبين دين الفطرة.

٤٥- إن الدولة الإسلامية منذ عصورها الأولى حرصت على الامتداد الطبيعى وضم الشمال الإفريقى لحظيرتها الميمونة.

٤٦- إن أهالى البلاد انصهروا مع الفاتحين فى محاضن الإسلام العظيمة وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه، والتوسع من أجل الدعوة فى سبيله.

٤٧- لقد ظهر دور العلماء والمحدثين والفقهاء من الصحابة والتابعين فى إدخال

القبائل فى الإسلام وتعليمها وتزكيتها.

٤٨- إن حركة المد والجزر والتوسع والانكماش فى الفتوحات الإسلامية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً باستقرار الخلافة والتغلب على الفتن الداخلية.

٤٩- إن البحر المتوسط أصبح ببركة الفتح الإسلامى بحراً إسلامياً تابعاً للخلافة.

هذه بعض النتائج التى وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلى العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً، وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالى الصالحة التى أتقرب بها إليه،وأختم الكتاب الأول بقول الله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحشر : ١٠].

وبقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات	**أنا المسكين فى مجموع حالاتى**
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى	**والخير إن يأتينا من عنده يأتى**
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة	**ولا عن النفس لى دفع المضرات**
والفقر لى وصف ذات لازم أبداً	**كما الغنى أبداً وصف له ذاتى**
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	**وكلهم عنده عبد له آتى**

« سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت،أستغفرك وأتوب إليك »،
« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين »

أهم مراجع هذا الكتاب

١- أثر الحديث فى نشأة التاريخ عن المسلمين، د. بشار عواد، طبعت فى بغداد، سنة ١٩٦٦م .

٢- إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام، د. أكرم ضياء العمرى، محاضرة مطبوعة على الآلة الكاتبة .

٣- اختصار علوم الحديث، الشيخ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، ط: دار الشعب بمصر .

٤- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبى بكر الزرعى، المشهور بابن قيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقى ، دار المعرفة، بيروت .

٥- أسد الغابة لمعرفة الصحابة، لأبى الحسن على بن محمد الجزرى، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٦- البداية والنهاية فى التاريخ - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى - مطبعة السعادة - القاهرة .

٧- البيان المغرب فى أخبار المغرب - أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشى، مكتبة صادر، بيروت .

٨- البدر الطالع، محمد بن على الشوكانى، نشر دار الباز، بمكة .

٩- التاريخ والحضارة الإسلامية، أحمد شلبى، طبعة مكتبة وهبة .

١٠- الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصرى السلاوى القاهرة ١٣١٠هـ .

١١- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق على محمد البجاوى، مطبعة نهضة مصر .

١٢- الإصابة فى تمييز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن

محمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر العسقلانى،المطبعة الشرقية.

١٣ـ العبر،شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى،تحقيق فؤاد سيد،مطبعة الكويت، ١٩٦١م.

١٤ـ الصحاح،إسماعيل الجوهرى،تحقيق أحمد عبد الغفور،الطبعة الثانية،دار العلم للملايين، بيروت.

١٥ـ الأعلام،لخير الدين الزركلى،دار العلم للملايين،طبعةسنة ١٩٧٩م.

١٦ـ الكامل فى التاريخ: لعلى بن محمد الشيبانى،دار صادر، بيروت.

١٧ـ المسالك والممالك،أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى المعروف بالكرفى،تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسينى،مطابع دار القلم،القاهرة، ١٣٨١هـ

١٨ـ القيادة العسكرية فى عهد الرسول ﷺ،د. عبد الله محمد الرشيد،دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٩ـ الطبقات الكبرى ،محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى،دار صادر،بيروت،لبنان، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٢٠ـ العواصم من القواصم،لأبى بكر بن العربى ، مكتبة السنة،الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ عابدين،القاهرة.

٢١ـ الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٢٢ـ المختصر فى علم التاريخ،لمحمد بن سليمان الكافيجى،مكتبة المثنى،بغداد، ١٩٦٣م.

٢٣ـ الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ،محمد بن عبد الرحمن السخاوى،دار الكتاب العربى،حققه حسام المقدسى.

٢٤ـ تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
٢٥ ـ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمرى، مؤسسة الرسالة، دار القلم، ط٢ سنة ١٣٩٧هـ.
٢٦ ـ تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تصحيح عبد الرحمن المعلمى، دار إحياء التراث العربى.
٢٧ ـ تفسير التاريخ الإسلامى، د. عماد الدين خليل، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، دار العلم للملايين.
٢٨ ـ تدريب الراوى، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى، تحقيق عبدالوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة.
٢٩ ـ تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، طبعة دار الشعب بمصر.
٣٠ ـ تاريخ بغداد، أحمد بن على بن ثابت البغدادى، المكتبة السلفية بالمدينة.
٣١ ـ تاريخ المغرب العربى، سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٥.
٣٢ ـ تاريخ الفتح العربى فى ليبيا، للطاهر أحمد الزاوى، دار التراث العربى، ليبيا، الطبعة الثالثة.
٣٣ ـ تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجانى، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م.
٣٤ ـ تحقيق مواقف الصحابة فى الفتن، د. محمد محزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
٣٥ ـ تهذيب الأسماء واللغات، الإمام النووى، المطبعة المنبرية، مصر.
٣٦ ـ جمهرة أنساب العرب، أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٨٢هـ.

٣٧ ـ جامع بيان العلم وفضله، ليوسف بن عبد البر النمرى القرطبى، دار الكتب الحديثة.

٣٨ ـ جامع الرسائل، للشيخ أحمد عبد السلام بن تيمية الحرانى، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدنى.

٣٩ ـ جوامع السير، لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق د.إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، طبعة دار إحياء السنة.

٤٠ ـ حسن البيان عما بلغته إفريقيا فى الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية، ١٣٥٣هـ.

٤١ ـ دواعى الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، د. جميل عبد الله المصرى.

٤٢ ـ دراسات إسلامية، سيد قطب، طبعة دار الشروق.

٤٣ ـ رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية وزادهم وعبادهم ونساكهم وسير أخبارهم وفضائلهم لأبى عبد الله المالكى، الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م.

٤٤ ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة المعارف، القاهرة.

٤٥ ـ سيرة النبى ﷺ، أبو محمد عبد الملك بن هشام، مطبعة حجازى، القاهرة، ١٣٥٦م.

٤٦ ـ سنن ابن ماجة، محمد بن إسماعيل القزوينى تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، الحلبى، بمصر.

٤٧ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألبانى، طبع المكتب الإسلامى.

٤٨ ـ سنن أبى داود، سليمان بن الأشعث السجستانى، تحقيق محيى الدين

عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.
٤٩ _سنن الترمذى، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث.
٥٠ _شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلى، مطبعة القدس، القاهرة، ١٣٥٠هـ.
٥١ _طبقات ابن سعد، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.
٥٢ _صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيرى، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، دار إحياء التراث العربى.
٥٣ _صفة الصفوة، للإمام أبى الفرج ابن الجوزى، دار المعرفة، بيروت.
٥٤ _علم التاريخ عند العرب، عبد الرحميد العبادى، فصل ملحق بعلم التاريخ، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة.
٥٥ _علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلى، طبعة مكتبة المثنى، بغداد.
٥٦ _عقيدة أهل السنة والجماعة فى الصحابة الكرام، د. ناصر بن على، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٥٧ _عبد الله بن مسعود، أعلام المسلمين، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨.
٥٨ _فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ، الطبعة الخامسة، ١٣٩١هـ.
٥٩ _فاتح الأندلس، طارق بن زياد، شوقى أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.
٦٠ _فى التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب، الدار السعودية للنشر، جدة، ط١، ١٣٨٧هـ.
٦١ _فتوح مصر والمغرب، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالحكم القرشى، مطابع لجنة البيان العربى.

٦٢ - فتح البارى لشرح صحيح البخارى، المكتبة السلفية، القاهرة.
٦٣ - قصائد الزهد، محمد أحمد السيد، مكتبة السوادى للتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٦٤ - قادة فتح المغرب العربى، محمود شيب خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
٦٥ - فى ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.
٦٦ - فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٤٧م.
٦٧ - لمحات فى التربية، محمد أمين المصرى، طبع دار الفكر، بيروت، ط٤، سنة ١٣٩٨هـ.
٦٨- لسان العرب لابن منظور،قدم له عبد الله العلايلى،إعداد وتصنيف يوسف خياط،طبعة دار لسان العرب،بيروت.
٦٩- ليبيا منذ الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر،د.صالح مصطفى مفتاح المزينى،منشورات جامعة قاريونس،بنغازى،الطبعة الثالثة،١٩٩٤م.
٧٠- لسان الميزان،أحمد بن على العسقلانى،ط٢،دار الأعلمى للمطبوعات، بيروت.
٧١- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان،محمد فؤاد عبد الباقى،نشر دار الباز،بمكة.
٧٢- منهج كتابة التاريخ الإسلامى،محمد صامل العليانى السلمى،دار طيبة للنشر والتوزيع،الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٧٣- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون،دار إحياء التراث العربية،بيروت.
٧٤- مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى ،الطبعة

الثالثة١٤٠١هـ، مكتبة الكليات الأزهرية،بمصر.
٧٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى،طبع دار صادر،بيروت.
٧٦- مجموع الفتاوى،لأحمد بن عبد الحليم الحرانى،الطبعة الثانية،مكتبة ابن تيمية.
٧٧- مناقب عمر بن الخطاب،عبد الرحمن بن على بن الجوزى ،تحقيق الدكتورة زينب القاروط،الطبعة الأولى،دار الكتب العلمية،بيروت.
٧٨- مدرسة الحديث فى القيروان،الحسين بن محمد شواط،الدار العالمية للكتاب الإسلامى ،الطبعة الأولى ،١٤١١هـ.
٧٩- ميزان الاعتدال،محمد بن أحمد عثمان الذهبى،تحقيق على البجاوى،دار المعرفة،بيروت.
٨٠- معجم مااستعجم،للبكرى،لجنة التأليف والترجمة والنشر،الطبعة الأولى ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.
٨١- معجم البلدان الليبية،للطاهر الزاوى، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨ هـ /١٩٦٨م.
٨٢- نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب،أبو العباس أحمد القلقشندى،القاهرة١٩٥٩م،الطبعة الأولى.
٨٣- نفح الطيب،أحمد بن محمد المقرى التلمسانى،تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد،مطبعة السعادة،القاهرة،١٣٦٧هـ،الطبعة الأولى.
٨٤- نونية القحطانى،لأبى محمد عبد الله بن محمد الأندلسى،الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م مكتبة السوادى للتوزيع.
٨٥- نماذج من شعر إيليا أبو ماضى،عبد اللطيف شرارة،دار صادر،بيروت، ١٩٦٥م.

الفهـــــرس

الباب الثانى

الشمال الإفريقى قبل الفتح الإسلامى ١٠٩

الباب الثالث

ليبيا قبل الفتح الإسلامى ١٢٧

الباب الرابع

الفتح الإسلامى لشمال إفريقية ١٥٧

الباب الخامس

عهد الولاة ٣٠٧